أوراق الثورة العربية (٣)

ميسلون

نهاية عهد

صبحي العمري

مَيْسَلُون

نهاية عهد

Papers of the Great Arab Revolt (3)
Maysaloun
End of a Regime

BY

Sobhi Omari

First Published in the United Kingdom in 1991

56 Knightsbridge
London SW1X 7NJ
U.K.

CYPRUS: P.O.Box: 7038 - Limassol

British Library Cataloguing in Publication Data
Omari, Sobhi
Maysaloun
End of a Regime
1. Arab countries. Social Life revolt, history
I. Title
909'.097927

ISBN 1855131110

الطبعة الأولى: كانون الأول / ديسمبر ١٩٩١

المحتويات

مقدمة

«ميسلون» هي ولا شك، إحدى معارك العرب الحديثة، التي كثر الحديث حولها. وأمست مع الزمن رمزاً، لمعركة لم تسمح للمحتل أن يدخل عاصمة عربية دون قتال. بغض النظر عن التفاصيل.

صبحي العمري، ضابط عربي خاض تلك المعركة، وكتب دراسته عنها، ليدخلنا في التفاصيل، التي ربما كنا نجهلها حتى الساعة. قد توافقه في كثير من آرائه وتحليلاته، وقد لا توافقه. ولكنك لا تستطيع إلّا أن تعترف بأهمية هذه الدراسة، وما قدمته للتاريخ العربي الحديث، من فائدة.

ميسلون الرمز، وميسلون التفاصيل، وبين هذه وتلك، يشدنا المؤلف إلى موضوع شيق وهام.

الناشر

مـدخـل

مـوقعة ميسلـون لم يكتب عنها حتى الآن أحـد ممن حضرها من العرب وكـل ما كتب عنهـا كان نقـلاً غير دقيق عن بعض من حضر جـانباً من جـوانبها، ولمـا لم يكن في بعض تلك الجوانب ما يكفي لتهدئة العواطف المجـروحة فقـاموا بحشـوها بالمبالغات عن ضعف إمكاناتنا وقلة وسائلنا وعن قوة عـدونا وكثـرة وسائله. أما الشخص الذي كتب الشيء القليل عن حقيقتها فهو قائـد اللواء الذي عهد إليه الدفاع عن ميسلون قائدها الفعلي المقدم (حسن الهندي) لقد كتم هذا القائد المخلص الشجاع ما لديـه من معلومـات وأخفى ما لديــه من أوراق طيلة حيـاته ضنّـاً بالعـواطف التي كانت تؤجج في ذكرى ذلك اليوم من كل عام لكيلا يسفح الماء عليها بالوقت الذي كان المستعمر لا يزال جاثماً على صدر البلاد. ويذهب هذا القائد الشريف إلى جوار ربه بعد أن أودع ما كتبه عن هذه الموقعة إلى ابنه الأستاذ فاروق الذي رأى مثلنا أن الـوقت قد أصبـح ملائمـاً لنشرها خدمة للحقيقة والتاريخ فتفضل علينا مشكوراً بالكثير مما حوته هذه المذكرات.

يـلاحظ القارئ فيمـا كتبناه عن هـذا العهد وعن مـوقعة ميسلـون خصـوصاً أننـا ذكرنـا الكثـير من النقـائص والأخطـاء التي ارتكبت فنـرجو أن لا يتهمنـا بأننـا نقصد التشهـير أو التجريـح بـأحـدٍ أو التشكيك بالقدرة العربية. إن قصدنـا فيما أبـديناه من نقـد وتحليل للوقائع أن نحدد مواطن الضعف وأسباب العجز وما تعرض له هـذا العهد من مؤثرات خارجية وداخليـة إلى وجود هـذه النواقص وتلـك العيـوب. وقد يبـدو هذا النقـد لأول وهلة قـاسياً وسلبيـاً ولكنـه في

حقيقته ايجابي، الغاية منه إزالة الصدأ الذي غمر الطاقة العربية منذ أضاعت شخصيتها وحيويتها وأصبحت ضعيفة تعيش عالة على مجد أجدادها دون أن تفعل شيئاً مما فعلوه، مستعيضة عن قصورها بالادعاء الفارغ والقصائد العامرة والأناشيد اللاهبة. انني أكتبها مادة للمؤرخين الذين من واجبهم تمحيصها وغربلتها ثم تقديمها حقائق لأجيالنا الناشئة الضائعة بين الحقائق المرة التي يشاهدونها وبين ما يقرأون ويسمعون.

إن احداث هذا العهد (العهد الفيصلي) وحدة متسلسلة مرتبطة ببعضها، يصعب علينا أن نتفهم احدى نواحيها إذا لم نقف على نواحيها الأخرى. ولذلك سوف نبدأ هذا العهد بدخول الجيش العربي إلى دمشق في أعقاب الجيش التركي وننتهي منه بموقعة ميسلون واحتلال الفرنسيين لسوريا.

١

تأسيس الدولة العربية

وصلنا فيما كتبناه في هذه المذكرات إلى احتلال الجيشين العربي والبريطاني الأراضي السورية في أعقاب الجيش التركي المنسحب أمامها حتى موقع (قطمه) في شمال حلب وإعلان الهدنة في ١١ تشرين الأول ١٩١٨. ونستمر في هذا الجزء بذكر ما أعقب ذلك من أحداث.

حينما خرق الانكليز الجبهات التركية في فلسطين وبدأوا بمطاردة الجيش التركي المنسحب وقام الجيش العربي بمهاجمة حوران، كلف جمال باشا المرسيني الأمير سعيد الجزائري بتشكيل قوة متطوعة من المغاربة الموجودين في دمشق لمساعدة الجيش التركي، فلبى هذا الأمر وتمكن من جمع قوة صغيرة بقيادة أخيه عبد القادر سار بها إلى أزرع. وخلال يومين جرف الجيش التركي المنهزم هذه الجماعة معه إلى دمشق، وأصبحت المدينة في فوضى، ويجمع جمال باشا زعماء الأحياء ويكلفهم بتأمين الأمن ولما لم تحصل الفائدة المطلوبة من ذلك طلب إلى الأمير سعيد أن يأخذ على عهدته الأمن بواسطة أولئك المتطوعة الذين كانوا بقيادة أخيه. ويعلن الأمير سعيد استقلال البلاد باسم الشريف حسين ويرفع العلم العربي على سارية دار الحكومة وكان ذلك قبل دخول الجيش

العربي إلى دمشق بيومين[1].

ما كاد الأمير فيصل يدخل على رأس جيشه إلى دمشق في ٣ تشرين الأول ١٩١٨ حتى باشر تنظيم وإكمال تشكيلات الدولة في هذه المنطقة التي كانت في العهد العثماني تتكون من ولايتي دمشق وحلب والتي ألحق بها فيما بعد منطقة دير الزور. ولأن هذه البلاد كانت في العهد العثماني تدار كولايات ترجع في أمورها الادارية والعسكرية والعدلية إلى مراجعها في العاصمة العثمانية، وكانت جميع القوانين والمعاملات مدونة باللغة التركية، أصبح الوضع برمته يحتاج إلى إعادة تنظيم على ضوء الواقع الجديد وما ينبثق عنه من حاجات وصلاحيات ومسؤوليات. ولأن البلاد حسب العرف الدولي كانت لا تزال في حالة حرب ومن بلاد العدو المحتلة التي لم يبت بأمرها. فقد عهد القائد العام لجيوش الحلفاء الجنرال اللنبي بإدارة شؤون هذه المنطقة إلى قائد الجيش العربي الشمالي الأمير فيصل الذي اعتُبر أحد قادة الحلفاء. واعتبر الأمير فيصل ذلك بداية لتطبيق المعاهدة التي جرت بين بريطانيا والملك حسين باستقلال هذه البلاد. وبهذا الاعتبار عين لادارتها حاكماً عسكرياً عاماً هو الفريق الركن رضا الركابي الذي كان من قادة الجيش التركي، يتبعه حكام عسكريون في كل من ولايتي حلب وبيروت وكذلك في بعلبك والبقاع. وقام الحاكم العسكري العام بتعيين مدراء لمصالح الدولة يقومون بتصريف الأمور. وتأسست محكمة للتمييز ومجلس شورى الدولة. كما تأسست لجان لتعريب الاصطلاحات التي كانت تستعمل في الدوائر المدنية والعسكرية وكتب المدارس. وأمليت الشواغر التي حصلت من جراء انفكاك الموظفين الأتراك بغيرهم من العرب. والمديريات التي تأسست هي:

---

(١) صحيفة ٩٦ من كتاب **جهاد نصف قرن** للأمير سعيد الجزائري.

مديرية الداخلية.
مديرية الشورى الحربي (رئاسة أركان الجيش).
مديرية المالية.
مديرية المعارف.
مديرية الأمن.
رئاسة مجلس الشورى.

وبدأ كل مدير بتنظيم أمور مصلحته وتدبير شؤونها وتعيين ما يلزمها من موظفين. كما شرع بتوسيع الجيش وذلك بفتح باب التطوع وقبول الضباط العرب العائدين من الجيش التركي برتبهم. وهكذا تشكلت هذه الدولة بسرعة غريبة. وقد كان يقبل في عداد موظفيها وضباطها كل عربي دون أي تفريق بين منتسبي الأقطار العربية الأخرى. وبذلك كانت أول دولة عربية قامت على أساس قومي غير اقليمي. ولم يقم بعدها حتى الآن ولا دولة عربية على هذا الأساس.

■ اعلان الحكم العربي في الساحل السوري

عندما أعلن الأمير سعيد الجزائري الحكم العربي في سوريا كما ذكرنا، أبرق إلى جميع رؤساء بلديات المدن الداخلية والساحلية يطلب إليهم رفع العلم العربي وإعلان الحكم الوطني، وممن أبرق اليهم رئيس بلدية بيروت عمر الداعوق الذي ذهب مع ثلاثة من أعيان بيروت يوم ٣٠ أيلول ١٩١٨ إلى والي الولاية اسماعيل حقي بك وأبلغه فحوى البرقية وبعد أخذ ورد وافق الوالي على تسليمه شؤون الادارة. وفي اليوم التالي في ١ تشرين الأول ١٩١٨ أصدر أمراً إلى جميع مأموري الحكومة في الولاية بتسليم جميع شؤون الادارة في ولاية بيروت إلى رئيس بلديتها وبإنهاء وظائفهم مع الحكومة العثمانية. وعلى ذلك أصدر رئيس البلدية الذي أصبح مسؤولاً عن ادارة دفة

الحكم في ولاية بيروت بياناً أعلن فيه تسلمه زمام السلطة وبدأت الادارة العربية منذ ذلك اليوم ممارسة عملها وتم الاتصال بحكومة دمشق ورفع العلم العربي على سارية دار الحكومة في احتفال شعبي كبير.

وكانت صلاحيات الحاكم العسكري في ولاية بيروت تشمل جميع الساحل السوري حتى لواء الاسكندرون. وكان اللواء شكري الأيوبي الذي عين لها مسجوناً من قبل الأتراك فأخرجه المتظاهرون من السجن التركي قبل دخول الجيش العربي إلى دمشق بيوم واحد. وقد رافقت شكري الأيوبي إلى بيروت إحدى السرايا النظامية من القوة العربية التي دخلت دمشق ووصل، إلى بيروت بتاريخ ٦ تشرين الأول ١٩١٨ وحال وصوله تسلم السلطة وأعلن انضمام لبنان إلى الحكومة العربية وعيّن حبيب باشا السعد حاكماً مدنياً بعد أن أقسم يمين الولاء للملك حسين.

وبلّغ هذا الإجراء الذي جرى في بيروت إلى باقي مدن الساحل فألف الأهالي في كل من صيدا وطرابلس وأنطاكية واللاذقية وصور وبقية المدن الساحلية إدارات مدنية ورفعت العلم العربي على ساريات دوائرها.

ما كاد الفرنسيون يعلمون بهذه الإجراءات وإرسال الجنود العرب إلى بيروت حتى هبوا ثائرين يحتجون على فيصل ويلحون على الانكليز بتطبيق اتفاقياتهم، ونتج عن ذلك انزال العلم العربي في بيروت وباقي مدن الساحل وتحويل إدارتها إلى حاكم فرنسي (جورج بيكو) تحت إمرة القائد العام الإنكليزي الجنرال اللنبي.

وهكذا ما كادت الحرب تنتهي وتتحرر البلاد العربية من الأتراك وتزول بزوالها حاجة الحليفتين (بريطانيا وفرنسا)

لمساعدةالعرب وإرضاء الرئيس الأميركي ولسن بتطبيق مبادئه الشهيرة وفي مقدمتها تحرير الشعوب، حتى صرفوا النظر عن كل ما تعهدوا به للعرب وراحوا يعملون على تطبيق ما اتفقوا عليه في معاهدة سايكس ـ بيكو وما أعطوه لليهود من وعود. واستعجلوا اعلان نواياهم الاستعمارية وتنكرهم للعرب قبل وقوع الهدنة. وبمجرد مباشرة العرب في ممارسة حقهم في تشكيل حكومات وطنية في البلاد التي اعتبروا أنها ستكون مستقلة حسب اتفاقهم مع بريطانيا. وكانت حادثة إنزال العلم العربي في المدن الساحلية وتسليم ادارتها للفرنسيين بمثابة الاعلان الأول عن نوايا الحليفتين السيئة نحو العرب. والتفت العرب ليجدوا أنفسهم بغتةً قد تحولوا من محاربين في جانب حلفائهم في سبيل التحرر والاستقلال إلى مناضلين ضد هؤلاء الحلفاء في سبيل الحيلولة دون وقوعهم في قبضة استعمارهم.

أخذ فيصل منذ دخوله المنطقة الشرقية (دمشق ـ حمص ـ حماه وحلب) يدير أمورها على أساس أنها جزء من المملكة العربية الكبرى التي كان يأمل أن تؤسس على وجه من الوجوه وكان مما يصدم آماله بهذا الحلم هو وجود الفرنسيين في الساحل الشامي والانكليز في العراق وفلسطين. وكانت مخاوف العرب تكمن في وجود فرنسا في الساحل أكثر من وجود الانكليز في فلسطين والعراق لأنهم (أي العرب) لم يكونوا قد نفضوا أيديهم بعد من شرف بريطانيا ووفائها بعهودها لهم.

في ٦ تشرين الثاني ١٩١٨ وصل الأمير فيصل إلى حلب وكان في معيته عدد كبير من الرجال بعد أن مرَّ بحمص وحماه والمعرة، وكان الاحتفال فيه عظيماً. وفي ١١ منه أقيم له في النادي العربي في حلب احتفال خطب به خطاباً أكد فيه على خطة نسيان ما مضى وضرورة الوحدة الوطنية باسم القومية معلناً أن العرب هم عرب قبل عيسى ومحمد وهدد كل من يقدم

على بذر بذور الفتن بين المواطنين. وفي خلال وجود الأمير في جلب وردت إليه برقية من والده يأمره فيها بالتوجه إلى الغرب ليمثله في مؤتمر الصلح.

وغادر الأمير حلب في ١٨ منه إلى حمص ومنها إلى طرابلس الشام فاستقبل فيها بحفاوة بالغة. وفي ١٩ منه وصل إلى بيروت وكان استقباله فيها رائعاً وجاء رجالات دمشق إليها لوداعه وأبحر من بيروت في ٢٢ منه على مركب حربي بريطاني. وكان في صحبته رئيس مرافقيه نوري السعيد ورئيس ديوانه رستم حيدر وكاتبه الخاص فائز الغصين ومرافقه الخاص تحسين قدري وطبيبه الخاص الدكتور أحمد قدري، وقد أناب عنه في ادارة شؤون البلاد أثناء غيابه أخيه الأمير زيد.

وفي هذه الآونة زار الجنرال اللنبي حلب وأقيم له استقبال كبير فيها اشتركت فيه الفرقة الانكليزية التي كانت في حلب كما اشترك فيه لواؤنا أي لواء الهجانه الذي استولى على حلب. وجرى الاستقبال بأبهة عظيمة قدم أثناءها رئيس بلدية حلب إلى الجنرال مفاتيح المدينة مع خبز وملح دليل الصداقة والتقدير. وقبل موعد هذه المراسيم كلفني قائد المفرزة علي جودت الأيوبي أن أكون خلال هذه المراسم مرافقاً عسكرياً للشريف ناصر ابن علي الذي كان يمثل الأمير فيصل في حلب. وهكذا اشتركت في هذه المراسم وما أعقبها من حفلات بصفتي مرافقاً للأمير.

ولما انتهت المراسم وغادر الجنرال حلب رفض الشريف ناصر أن يتركني أعود إلى لوائي وأبيت الانفكاك من سريتي بعد أن قضيت بين جنودي تلك الأوقات السعيدة المملوءة بلذة المشاق والأخطار والظفر. وأخيراً اقترح قائد المفرزة أن أبقى في ملاك سريتي أعمل فيها إلى جانب قيامي بواجبات مرافقيه وهكذا كان.

كان الشريف ناصر يقيم في دار بحي العـزيزيـة التي خصصت لتكـون مقراً رسميـاً لدار الإمـارة وكان في معيتـه كأمـين للسر الشيخ سعيد الباني وعلي الغبرة كمرافق صحفي وأمين الغريب كترجمان وهو صحافي مغترب. والشريف ناصر هو أول من ناصر الثـورة من الأشراف وكان عـلى رأس قوة الهجـانة التي رافقت فيصـل إلى دمشق في العهد التـركي لإرسالهـا إلى جبهة سينـا وهي القـوة المتطوعـة التي خـدع فيصـل بهـا جمـال بـاشـا. وعنـدمـا تقـرر اعـلان الثـورة فـر الشريـف نـاصر بهـذه القـوة من دمشق والتحق بفيصـل في المـدينـة المنـورة وأعلنت الثـورة، (كـانت طلقـة الشريف نـاصر التي قتـل بهـا الشيخ ابن مبيرك الضالع مع الأتراك الطلقـة الأولى في ميادين الثورة وكان ابن مبيرك أول قتلاها). لقد كان الشريف ناصر أول الموثوقين عند فيصل وما من حملـة تقرر القيـام بها في الجيش الشمالي منذ تشكيلـه حتى نهايـة الحرب من مشـارف المدينـة المنورة حتى شمال حلب إلا وعهد اليه بقيادتها فهو الذي افتتح الوجه والعقبة ومعان ودمشق وحماه وحلب وكان مـوفقاً في كـل معـركة دخلهـا حتى أصبح الأمـير وبقية القـادة يعتقدون أنـه حليف اليمن والبركة والنصر والتوفيق. وقد كان ميسوراً يملـك الكثير من العقار والمتـاع فترك جميـع ما يملـك في المدينـة بيد الأتراك في سبيل معاضدته للثورة يدفعه إلى ذلك إيمانـه المطلق بقـوميته وكـان يتّقد ذكـاءً وفكراً هـادئاً سريـع الادراك حاضر الجـواب، والحادثـة الآتيـة التي حضرتهـا تـدلنـا عـلى سرعـة بديهته[٢].

لقـد حضر كل من سـايكس الانكليزي وجـورج بيكـو الفـرنسي صاحبي المعاهـدة الشهيرة في زيـارة إلى حلب، وفي أحد الأيـام

(٢) في كتاب **صور من البطولة** لسليمان موسى فصل عن تاريخ حياته.

جاءا معاً لزيارة الشريف ناصر بصفته أميراً لحلب. وبعد أحاديث المجاملات بدأ بيكو يشكو من الشائعات التي كانت تدور عن أطماع فرنسا في سوريا، إلى أن قال بأن الناس أصبحوا يتجنبون التكلم مع أي فرنسي وأن أحداً لم يتجرأ على زيارته منذ وصوله إلى حلب. وبدأ ينفي تلك الشائعات ويتكلم عن نوايا فرنسا الطيبة تجاه سوريا وعدم تفكيرهم بما يسيء إلى حريتها واستقلالها؛ فأجابه الشريف ناصر بأن هذا الشعور الشعبي الذي ذكره صحيح وليس للحكومة دخل فيه وهو متأتٍ من الريبة التي يشعر بها الشعب خوفاً على استقلاله وأن تلافي هذا الأمر بيدكم وبإمكانكم أن تطمئنوا الشعب بالقول والفعل وعندما يحصل له هذا الاطمئنان فإنه سيغمركم بحبه وعطفه وصداقته. أما أقوالك المطمئنة التي ذكرتها الآن فلم يسمعها سوى الحاضرين فهي لا تحل المشكلة، وهناك مثل بدوي يقول: (ان (...) من خلف العبا لا يلقح) ولما تردد المترجم (أمين الغريب) في ترجمة المثل لاحتوائه على كلمة نابية أصر عليه أن يترجمها حرفياً واعتذر عما فيها بأن بعض الأمثال تحمل عادة مثل هذه التعابير. وكانت كلمات الشريف ناصر محكمة ومحرجة والمثل ينطبق على الواقع. ولم يبق أمام بيكو إلّا الاعتراف بأنه ليس بإمكانه بهذه الحالة الاتصال بالشعب ليفهمهم نوايا فرنسا الطيبة. عندها قال له الشريف ناصر: حسن يمكن أن تقام لكما حفلة تكريم في النادي العربي حيث يدعى إليها زعماء البلد وأعيانها وشبابها ويقوم كل منكما بإلقاء كلمة تطمئنوا بها الشعب إلى عدم وجود أطماع لحكومتيكم في هذه البلاد. وهكذا لم يبق لهما طريق للتملص وقد اضطرا لقبول الاقتراح. ثم طلب إليهما الاطلاع على خطابيهما قبل القائهما كي لا يحصل سوء فهم. ومضى اليوم التالي بتصحيح خطابيهما. وفعلاً أقيمت لهما الحفلة وخطبا بما من شأنه

تطمين الأفكار. أما كونها ظهرت فيما بعد بـأنها كـانت أكاذيب وخداعاً وتخـديراً فهـذا أمر آخـر. وهكذا نـرى الشريف ناصر الذي لم يتخرج من أية مدرسـة كيف أحسن التصرف والتغلب على هذين السياسيين العريقين في السياسة.

٢

المسرح السياسي

في يوم ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ وقعت الهدنة. وبانتهاء الحرب أغمد القادة العسكريون الغالب منهم والمغلوب سيوفهم وتراجعوا خطوات إلى الخلف ليفسحوا في المجال أمام القادة السياسيين الذين كانوا خلفهم ليتقدموهم ويشحذوا عقولهم لاستثمار الظفر بالنسبة للغالبين وانقاذ ما يمكن انقاذه بالنسبة للمغلوبين.

وبانتهاء الحرب أيضاً تخلص العرب من حكم تركي ظالم غاشم متخلف استمر أكثر من ٤٠٠ عام ليجدوا أنفسهم أمام شبح استعمار أخطر منه يقترب منهم مكشراً عن أنيابه بابتسامة خبيثة مليئة باللؤم والغدر. ففرنسا الولهانة بسوريا لم تنتظر الهدنة بل أسرعت فأتت بجيوشها التي كانت وجوه أفرادها لا تزال تعلوها كدمات جزم الألمان لتثبت وجودها في الساحل العربي، وبريطانيا الحليفة والصديقة اللدود التي خرجت من الحرب وهي أقوى دول العالم وجيوشها تحتل جميع الأهداف التي تطمع فيها في البلاد العربية، قد بدأت تفتش عن الأساليب الملائمة التي يجدر بها اتباعها للوصول إلى تأمين مصالحها من خلال القضايا والالتزامات المعقدة التي تورطت بها وورطت غيرها فيها أثناء الحرب من أجل الوصول إلى الظفر.

لقد اتفقت مع فرنسا على تقسيم البلاد العربية بينهما وتخصيصها بكليكيا وسوريا، ووعدت اليهود بمساعدتهم على تأسيس وطن قومي لهم في فلسطين واتفقت مع العرب على استقلال بلادهم إن هم ثاروا على الأتراك ووقفوا إلى جانبها.

وكانت هذه الاتفاقات التي اضطرتها ظروف الحرب لعقدها لا تتفق ونواياها ومصالحها، ولذلك ما كادت تنتهي الحرب حتى بدأت بالسعي لتعديلها. فهي لا تريد الوفاء بكل ما اتفقت عليه مع العرب ولا هي راضية من اعطاء فرنسا الموصل وبترولها ولا هي مرتاحة من وجود فرنسا في سوريا قريبة من مناطق نفوذها على طريق الهند البري الذي بدأت بفتحه اعتباراً من سواحل فلسطين وانتهاءً بالبصرة على الخليج العربي. ولا هي راغبة بتنفيذ ما اتفقت عليه مع فرنسا بتدويل فلسطين ولا هي مرتاحة لتأسيس دولة عربية كبرى للعرب ومساعدتهم لنقل الخلافة اليهم كما وعدتهم بذلك، بل هي مصممة على السعي في إلغائها (كما وقع فعلاً) والتخلص من شبحها المزعج. وأهم ما كان يعترض سبيل بريطانيا لحل هذه المشاكل هو إصرار فرنسا المستميت على الاحتفاظ بكل ما نالته في معاهدة سايكس ـ بيكو وتأمين وجودها في سوريا.

ورأت بريطانيا أن دعوة العرب إلى مؤتمر السلم من شأنه أن يسهل عليها بعض هذه المصاعب فيقوى موقفها أمام فرنسا من جهة ويخفف من شعور العرب بمسؤوليتها عن عدم وفائها بما اتفقت عليه معهم وجعلهم يشعرون بأن قضيتهم أصبحت دولية ليس بإمكان بريطانيا وحدها البت فيها.

وهكذا أبرقت وزارة الخارجية البريطانية إلى الملك حسين تقترح عليه أن ينتدب ابنه الأمير فيصل ممثلاً عنه إلى مؤتمر السلم الذي سيعقد في باريس. لماذا اقترح البريطانيون فيصلاً بالذات؟ لأن كبار البريطانيين المولجين بالحركة العربية أمثال

اللنبي وكلايتون وسبيرس وونجيت ولورنس وهوجارت كانوا أكثر اتصالاً بفيصل من غيره من الأمراء، وقد عرفوا فيه وهو يقود جيشه القريب من جيش اللنبي الهدوء وحسن التدبير وتقدير الأمور تقديراً واقعياً (ففضلوه على غيره). ويبرق الحسين الى فيصل الذي كان في زيارة لحلب بالتوجه إلى باريس. ويصل إلى مرسيليا بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٨ وليس لديه من المعلومات عن الأسس التي يجب السير عليها سوى توصية والده بالاعتماد على بريطانيا وبتنفيذ ما يشير به ساستها، وعدم التوقيع على ما يخالف ما اتفق عليه مع الانكليز.

وكان الحسين وفيصل لا يزالان تحت تأثير البيان المشترك الذي أعلنته بريطانيا وفرنسا قبل بضعة أيام بتأكيد ما اتفق عليه الحسين مع بريطانيا باستقلال بلاد المشرق العربي (الجزيرة العربية، الحجاز والشام) ولم يكونا قد فطنا بعد إلى أن بريطانيا تدرك أن وجود فرنسا في سوريا أمر لابد منه وأنها بعد الحرب لم تعد الصديق الذي كانته أثناء الحرب.

وعندما وصل فيصل إلى مرسيليا وجد في استقباله الكولونيل لورنس وبعثة فرنسية خاصة برئاسة الكولونيل بريمون. وأول ما لاقاه من المتاعب هو عدم اعتراف فرنسا به كممثل للعرب وبعدم موافقتها على تمثيل الحجاز في مؤتمر السلم إلا بعد قرار من الدول الكبرى، وقبلته بصفته أميراً حجازياً ونجل ملك الحجاز جاء ليزور فرنسا وصارت الصحف الفرنسية تلقبه بالأمير الحجازي، وفي الوقت نفسه تحيطه بآيات التعظيم. وأبلغ الفرنسيون لورنس بعدم سماحهم له بمرافقة فيصل بثيابه العربية كما أبلغوا فيصل بعدم إمكانهم استقباله في باريس ولذلك سوف يرافقه رئيس البعثة بزيارة بعض المدن الأخرى وهكذا بدأت فرنسا بإظهار نواياها السيئة للعرب. وفي

خلال زيارته لمدينة ستراسبورغ قلدوه وسام جوقة الشرف ثم وجهوا إليه الدعوة لزيارة باريس، وفي ٧ كانون الأول استقبله رئيس الجمهورية. وكان الأمير يرتدي الملابس العربية وقد لفت إليه جميع الأنظار والقلوب بوجهه السموح وقامته المديدة وقد شبهه الكثيرون بالسيد المسيح. ولاحظ الأمير رغبة فرنسا بإبعاده عن مؤتمر فرساي فقطع برنامج زيارته. وفي ٩ كانون الأول غادر فرنسا الى انكلترا وعاد لورنس لمرافقته ليصبح له ترجماناً ودليلاً ومستشاراً.

وأحاطت الحكومة البريطانية الأمير بكل مظاهر الحفاوة فأنزلته ضيفاً عليها في فندق كارلتون وهو أضخم فنادق لندن كما هيأت له مقابلة الملك.

ويصل الرئيس الأميركي ولسن إلى انكلترا وتسعى بريطانيا لقبول الأمير في مؤتمر الصلح بتعضيد أميركا، وبالرغم من معارضة فرنسا منح الحق للعرب بأن يمثلوا بمندوبين عوضاً عن مندوب واحد.

وخلال وجود الأمير في لندن سعى اليهود للاجتماع به فقبل الاجتماع بثلاثة منهم ووقع لهم على كتاب قدموه له يعترف لهم فيه بتأسيس وطن قومي ثقافي فقط في فلسطين وكتب بذيل ذلك الكتاب بخطه وبالعربية بأنه يقبل ما عرض عليه إذا ما وفى اليهود بوعدهم بمساعدة العرب في المحافل السياسية وتم للعرب تحقيق استقلالهم من طوروس إلى خليج البصرة وفقاً لمطالب الملك حسين من الحكومة البريطانية قبل دخوله الحرب.

■ في مؤتمر الصلح

وأشير على الأمير بالعودة إلى باريس للاتصال بالحكومة الفرنسية بعد أن تقرر اشتراكه في مؤتمر الصلح. وبدأ الأمير

يسعى للحصول على معاضدة الرئيس الأميركي ولسن للوصول إلى حقوق العرب بعد أن تيقن من موقف فرنسا وبريطانيا المخالف لمبادئه المعلنة التي دخل ولسن على أساسها الحرب وفي مقدمتها حق الشعوب في تقرير مصيرها.

لقد اشترك مع الدول الكبرى في المؤتمر سبع وعشرون دولة ممن آزرتها في الحرب وقد لاقى الأمير عطفاً لأنه لم يكن للدول المشاركة في المناقشات سوى دور الاصغاء لمناقشات الدول الخمس الكبرى وهي أميركا، بريطانيا، فرنسا، اليابان وايطاليا وكان كل من هؤلاء يسعى للحصول على أكبر قسط ممكن من المنافع الاستعمارية لبلده.

وفي ١٨ كانون الثاني ١٩١٩ افتتح مؤتمر الصلح في فرنسا وكان الرئيس ولسن قد لاحظ نوايا فرنسا وبريطانيا الاستعمارية فأخذ بمخالفتهما وبالدفاع عن حقوق الأمم الضعيفة مما اضطرهما للنزول عند ارادته في عدم ترك القضية العربية خارجة عن المؤتمر. وهكذا في ٣٠ كانون الثاني تقرر أن يكون للبلاد العربية حقها المشروع في تقرير مصيرها على أن تنتدب عليها جمعية الأمم. ودمج قرار مجلس الحلفاء الأعلى هذا في المادة ٢٢ من ميثاق الجمعية.

وعين الأمير فيصل رستم حيدر ليكون المندوب العربي الثاني في المؤتمر بالنظر لدراسته الحقوق والسياسة وكان كل من الدكتور أحمد قدري ونوري السعيد وعوني عبد الهادي أعضاء يشتركون في لجان المؤتمر.

وفي ٦ شباط ١٩١٩ بسط الأمير مطالب العرب وهاجم بشدة تقسيم البلاد العربية في معاهدات سرية وطالب باستقلالها ووحدتها وطالب بإرسال لجنة لاستفتاء أهلها للتأكد من مطالبهم (بعد أن اتفق على ذلك مع الوفد الأميركي) ولدحض

ادعاءات الجمعيات اللبنانية المرتبطة بفرنسا. وفي الجلسة التي عقدت في ١٤ شباط وتقرر فيها ميثاق جمعية الأمم اعترض رستم حيدر (المندوب العربي الثاني) على كلمة الانتداب طالباً تحديد معناها معترضاً على معاهدة سايكس بيكو وتقسيم البلاد العربية إلى مناطق نفوذ.

وفي ٣٠ شباط ١٩١٩ قرر المؤتمر فصل البلاد العربية عن تركيا والاعتراف باستقلالها ووضعها تحت إرشاد احدى الأمم الراقية العريقة بالحكم. وفي ٢١ آذار ١٩١٩ قرر إرضاءً لولسن إرسال لجنة يشترك فيها مندوبون عن أميركا وفرنسا وبريطانيا لاستفتاء سكان سوريا والتحقق من رغائبهم.

وكان رئيس الولايات المتحدة قد اشترط على الحلفاء من أجل الدخول في الحرب بجانبهم اتباع خطة مثالية جديدة لم يكن لها سابق عهد في السياسة العالمية ومخالفة للنهج الاستعماري القائم في ذلك العهد والذي قامت في سبيله تلك الحرب الضروس ومن أهم تلك الشروط تحرير الشعوب وحقها في تقرير مصيرها(١) وحيث أن الحلفاء كانوا في ذلك الوقت في موقف سيىء أمام ضربات الألمان فقد قبلوا بمبادىء ولسن الأربعة عشر مبيتين عدم العمل بها. ولما وصل ولسن إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح كان النجم المتألق الذي كانت جميع الشعوب الغالب منها والمغلوب عدا الدول الاستعمارية تبني عليه أعظم الآمال في القضاء على الظلم والاستعمار وإشاعة العدل الدولي. وتحمس ولسن خصوصاً لقضية العرب واعطاها اهتمامه بالرغم من العراقيل التي كان يضعها الانكليز والفرنسيون في سبيله.

وكانت خطة ولسن المثالية هذه قد سببت خروج الولايات

(١) مبادىء ولسن التي اشترطها لدخول الحرب.

المتحدة عن مبدأ (منرو) الانعزالي الذي قرره الشعب الأميركي سنة ١٨٣٣ بأن لا يقبل مداخلة أوروبا في شؤونه الداخلية ولا هو يتدخل في شؤونها. فاستلزمت خطة ولسن هذه دخول الولايات المتحدة الحرب وبالنتيجة تحملها مسؤوليات عظيمة في العالم، ولكن الشعب الأميركي الذي لم يكن حتى ذلك الوقت قد تعود بعد على الخروج عن مبدأ منرو سبب لولسن أن يكون عرضة لمعارضة شديدة من قبل كبار الساسة الأميركيين ومن الكونغرس مما اضطره للعودة إلى أميركا لإصلاح الموقف ولكنه على إثر عودته غيّر نهجه واضطر إلى إقرار أمور تناقض جميع المبادىء التي أعلنها. وهكذا خسر العرب أقوى مؤيد لهم وأصبح الميدان مفتوحاً أمام الدولتين الاستعماريتين الطامعتين في البلاد العربية لتتوصلا إلى ما يحقق أطماعهما.

ويقرر الأمير فيصل العودة إلى سوريا لتهيئة الأمور أمام لجنة الاستفتاء التي تقرر إرسالها. فوكل عنه في عضوية المؤتمر عوني عبد الهادي إلى جانب العضو الثاني محمد رستم حيدر وقبل مبارحته لفرنسا وفي ١٦ نيسان ١٩١٩ اجتمع إلى الرئيس الفرنسي كليمنصو الذي فاتح الأمير بأن الانكليز سينسحبون من المنطقة الشرقية التي تحت الادارة العربية وأنه يود أن يحل الجنود الفرنسيون محلهم فرفض الأمير معللاً رفضه بوجود قوة عربية كافية ولم يقنع كلمنصو بذلك وبيّن له أن الأمة الفرنسية تأبى إلا أن يرفع علمها على سوريا ليمثلها مع قوة عسكرية فرنسية ولو قليلة.

لقد كانت الموصل في القسمة التي تقررت في اتفاقية سايكس - بيكو بين بريطانيا وفرنسا تقع ضمن حصة فرنسا. ولما وقعت الهدنة وجاء دور تطبيق الاتفاقية وكانت بريطانيا على علم بما تحتويه أرض الموصل من بترول فدخلت مع كلمنصو بمفاوضات حول تنازله عنها وإلحاقها بالعراق مقابل اطلاق

يدهم في جميع سوريا ولم يجد البريطانيون صعوبة في إقناعه بذلك لأن سوريا كانت تملأ أفكار الفرنسيين الذين لا يزالون يحلمون بها منذ الحروب الصليبية.

وفي ٢٣ نيسان ١٩١٩ غادر الأمير مع حاشيته فرنسا بطريق عودته إلى سوريا عن طريق ايطاليا تلبية لدعوتها ونزل في روما ضيفاً على الحكومة وقابل الملك والبابا وغادر ايطاليا متجهاً إلى بيروت فوصلها في ٣٠ نيسان ١٩١٩ وجرى للأمير في بيروت وفي دمشق استقبالات شعبية عظيمة.

٣

توسيع الجيش

حينما وقعت الهدنة لم يكن في البلاد جيش سوى المفرزة الشمالية التابعة لجيش الثورة العربية، التي قامت بمطاردة الجيش العثماني المنسحب حتى وقوع الهدنة في شمال حلب. وعقب الهدنة بقيت هذه المفرزة مرابطة في حلب، وتقدمت بقية جيش الثورة الشمالي من مواقعها في الوهيدة وابا السن فأشغل معان واستمر في تقدمه إلى عمان ودرعا. أما باقي المدن السورية فكانت خالية من أية قوة عسكرية عربية. وهذا على ما يظهر كان أحد الأسباب التي حدت الحكومة لتوسيع الجيش من العناصر المتخلفة عن الجيش التركي من ضباط وضباط صف وجنود على أساس التطوع.

فأثناء انسحاب الجيش التركي من المدن الشامية كان يتخلف عنه جميع الجنود والضباط العرب على اختلاف رتبهم وكان جميع هؤلاء إلا ما ندر يرغبون بالانتماء إلى الجيش العربي بقصد تأمين المعيشة والمستقبل، وكان عددهم يزداد باستمرار بسبب الأعداد المتلاحقة التي كانت تصل من تركيا. لأن الأتراك وقد احتل الحلفاء عاصمتهم وسرحوا الجيش الذي كان فيها كما سرحوا الجيوش في جميع الولايات الأخرى التي

احتلوها، فكان الضباط العرب على اختلاف أقطارهم يـراجعون قيادات الحلفاء طـالبين تسفـيرهم إلى سوريـا وهكذا تجمـع في سوريا عدد كبير من الضباط العراقيين والسوريـين، وحتى ذلك التاريخ لم تكن التفرقة بين الأقطار العربية قد ظهرت بعد وكان العراقيون يفضلون الخدمة في سوريا لأن بلادهم كانت ما تزال تحت الاحتلال الانكليزي. وهكـذا عندمـا تقرر تـوسيع الجيش قبل فيه هؤلاء الضباط على مختلف رتبهم وأقطارهم. أما ضباط الصف والجنود فكان لهم شأن آخر.

كانت البلاد عندما أعلن نظام التطوع الذي نحن في صدده قـد خرجت حديثاً من الحرب التي استمرت خمس سنوات بويلاتـها ومصائبها، والجنود الذين عادوا إلى بيوتهم وذويهم بعد غيابهم كانوا قد قضوا هذه السنين الصعبـة إما في ميـادين القتال أو فارين من الجيش لا يستقرون عـلى حال. أمـا الآن وقد انتهت الحرب وعاد كل منهم لأهله فمن لـه حقل عـاد للعمل في حقلـه ومن له تجارة في تجارته ومن له صناعة في ضناعتـه. ومن بقي للتطوع في الجيش كان عليه أن يقبل براتب الجندي الضئيل.

ولـذلـك لم يتطـوع في الجيش سـوى الـذين ليس لهم عـائلـة مسؤولون عنها أو أرض يعملون فيها أو صناعة يشتغلون بها. لقـد كانـوا من العاطلـين غير المـرتبطين بمسؤوليـات وقد كـان أكثرهم ممن قضى سني الحرب فاراً من الجندية بين البسـاتين والأزقة فتعوّد التشرد ومـا يجره من أخـلاق وعادات. ومـا كاد يبـدأ تطوع هؤلاء حتى بـدأت عمليات الفـرار وما يلحقهـا من إجراءات التعقيب والمحاكمات. وكانت أكثر المحاكمـات الادارية تجري لأسباب انضباطية وأخلاقية. فهؤلاء المتطوعة هم الذين تشكل منهم الجيش المتطوع وأصبحوا الخميرة التي تكوّن منها الجيش الإلزامي فيما بعد.

أما الضباط الـذين مرّ ذكـرهم فقد كـان أكثرهم ممن بقـوا في

خدمة الأتراك حتى أيامهم الأخيرة، وياسين باشا الهاشمي الذي كان المسؤول الأول عن الجيش كان أحدهم فتخلف عن الجيش التركي في دمشق وهو مصاب برصاص العرب فاختبأ في دار أحد معارفه في حي الميدان عدة أيام حتى إذا ما اكتشف أمره ذهب إليه ثلاثة من أصدقائه الضباط العراقيين فأخرجوه من مخبئة وأبلغوه بأمر من الأمير فيصل يعينه فيه رئيساً لديوان الشورى الحربي (تعادل وزير الدفاع) أكبر مقام عسكري مسؤول.

إن الفكرة القومية في ذلك الوقت كانت لا تزال حديثة عند الشعب لم يهضمها أو يتفهمها بعد ذلك الضياع الطويل، ومنهم هؤلاء الضباط الذين أتوا من صفوف الأتراك وكانوا لا يزالون متشبعين بالعقلية العثمانية، لا يصدقون إمكانية تأسيس حكم عربي وهم يشاهدون ما يعترض سبيل هذا الحكم من وجود الفرنسيين في الساحل والانكليز في فلسطين والعراق وكانوا أيضاً لا يزالون تحت تأثير الدعاية التي أشاعها الأتراك أثناء الحرب بأن الثورة ما هي إلا خيانة قام بها الشريف حسين بأموال الانكليز وليست سوى عصيان على الخليفة وتفريق أمر المسلمين.

وكانت تتملك أكثرية هؤلاء الضباط عقدة نفسية تجعلهم يشعرون بأنهم غرباء عن هذا العهد الاستقلالي الذي قام على هزيمة الأتراك الذين بقوا في صفوفهم إلى آخر أيامهم وكان بعضهم يجاهر بأن الثورة على الأتراك كانت خيانة وكفراً.

وكان بعضهم متأثراً بالدعاية التي كان يبثها عملاء الفرنسيين بعدم امكانية استمرار هذا الحكم وبأن الفرنسيين سوف يحتلون البلاد وأن على فيصل أن يقوض خيامه ويعود إلى الحجاز. وكان ضباط الثورة يشعرون بالكراهية والحسد الذي

كان يكنّه لهم باقي الضباط خصوصاً وكان البعض منهم قد حاز على رتب ما كان يصل إليها لو أنه كان في الجيش التركي لأن الرتب كانت خلال الثورة تمنح للشجاعة غير العادية وليس للمدة والقدم علماً أن كل ضباط الثورة كانوا قد منحوا رتبة أعلى من التي كانت لهم في الجيش العثماني، لم يهضموا الفكرة القومية غير مرتاحين لوجود ضباط أعلى منهم رتباً ومنصباً من منسوبي الأقطار العربية الأخرى كالعراقيين والفلسطينيين واللبنانيين وكان التركيز في ذلك ينصب بصورة خاصة على العراقيين (وليس من شك أن ذلك بإيحاء من الفرنسيين والانكليز عن طريق عملائهم).

لقد كان الضباط العراقيون أول من لبى نداء الثورة وأول الملتحقين بصفوفها وقد خاضوا المعارك من بدايتها حتى نهايتها من جدة حتى شمال حلب وكانوا يقاتلون بكل جهد وإخلاص تدفعهم إلى ذلك روح قومية صادقة تستهدف تحرير البلاد العربية كلها وكانوا يشكلون الأكثرية في جيش الثورة ومنهم القادة الكبار الذين أداروا حركاتها وأمنوا الظفر في معاركها. وقد كان القسم الأكبر من شهداء وجرحى الضباط منهم، وعندما وصلوا إلى سوريا وانتهت الحرب زهد قسم كبير منهم بالمناصب وانصرفوا إلى العمل من أجل العراق وإشعال الثورة فيه على الانكليز متخذين من سوريا نقطة ارتكاز وانطلاقاً لأعمالهم.

هذه هي الأفكار التي كانت سائدة بين ضباط الجيش، لقد كانوا فئات غير متجانسة وغير متفاهمة لا تجمعهم لا فكرة ولا غاية ولا هدف، وكان عدد كبير منهم لا يشعر بأي حماس لهذا العهد العربي بل ظهر فيما بعد أن عدداً غير قليل منهم باعوا أنفسهم إلى الفرنسيين يتقاضون منهم الراتب ويقدمون لهم ما يطلبونه من خدمات، وعندما وقعت الحرب مع الفرنسيين

اشتركوا مع العملاء الآخرين بتوصيل الأخبار وإشاعة الفوضى والتشويش، وهكذا قدم البعض من هذه الفئة إلى الفرنسيين أعظم الخدمات التي حققت لهم كسب الحرب بتلك السهولة. وكان بينهم عدد من ذوي الرتب الكبيرة قدموا للفرنسيين خدمات كانت لها نتائج مباشرة في خسارة موقعة ميسلون وفي استيلائهم على حمص وحلب.

وفيما يلي ما جاء في الصفحة ١٣٠ من مذكرات الدكتور أحمد قدري عن هذا الأمر، ولأقوال الدكتور قدري أهمية خاصة بسبب اطلاعه على تطورات القضية العربية منذ نشأتها ومشاركته في جميع ادوارها. ففي الحقبة التي نتكلم عنها كان الدكتور يعمل طبيباً خاصاً للأمير فيصل وكان أحد مستشاريه في مداولاته مع الحلفاء في الغرب وكان أحد المؤسسين الثلاثة لحزب الفتاة الذي كان يسيطر على أمور الدولة وكان بطبيعة مركزه هذا ذا اطلاع واسع على جميع ما كان يدور من أحوال. يقول الدكتور قدري:

««وكان ياسين الهاشمي رئيساً لمجلس الشورى العسكري (وزارة الدفاع) وتعذر عليه العمل بالصرامة التي يستلزمها الموقف لتأمين جيش سوري قوي مدرب بعد الغاء الجيش الذي دخل سوريا مظفراً من الحجاز مع سمو الأمير، بسبب عودة الضباط السوريين إلى سوريا من تركيا ومطالبتهم بتشكيل جيش جديد هذا وأن الكثيرين ممن يرغبون في الوظائف من الشباب بدأوا يتشكون من أنهم أصبحوا غرباء في بلادهم وعمل الفرنسيون كثيراً لدعم ونشر هذه النزعات. ولما كنا نود حكومة عربية، لم يدر بخلدنا الاكتفاء بسورية فقد عانينا وعانى الأمير معنا الكثير للوقوف بوجه هذه الموجة من الأستياء».

٤

إلغاء جيش الثورة

إنها فكرة ياسين الهاشمي أساساً عرضها على فيصل معللة بعدم جواز وجود جيشين مختلفين فوافق عليها فكانت حسب اعتراف فيصل فيما بعد أعظم خطيئة ارتكبها خلال حكمه في سوريا وكانت أسوأ الأخطاء التي ارتكبها الهاشمي خلال المسؤولية التي اضطلع بها في سوريا. لقد كان ياسين الهاشمي أول من سلمت إليه مسؤولية الجيش في أول حكم عربي وهو من ضباط العرب القلائل المرموقين في الجيش العثماني والوحيد بينهم الذي توصل إلى قيادة فيلق تركي (بعد ذكي باشا الحلبي الذي كان قائداً للجيش الرابع قبل جمال باشا) وكان اللواء ياسين في طليعة من اعتنقوا الفكرة القومية ومن كبار أعضاء حزب العهد العسكري السري وهو أحد القادة الذين اتصلوا بفيصل في دمشق وكلفوه بدعوة أبيه للثورة على الأتراك وتكفلوا بإقامة الثورة في سوريا بالقطعات التي بأمرتهم وأكثريتها من العرب[1].

(١) أصبح ياسين الهاشمي فيما بعد كبير رجال السياسة في العراق ورئيساً للمعارضة ولعدة وزارات، وقد قام بكر صدقي بانقلابه الشهير في عهد وزارته حيث نزح عن العراق وتوفي في لبنان ودفن في دمشق في تربة صلاح الدين الأيوبي في عام ١٩٣٧.

بالرغم من كل ذلك لقد تغلبت على هذه الشخصية المحترمة العقدة التي تملكت أكثرية الضباط الذين التحقوا بعد انتصار الثورة فلم يحتمل وجود جيش الثورة الذي اكتسب فضل المشاركة في هزيمة الجيش التركي وبعثرته وصبغ في سبيل ذلك الأرض العربية بدماء أفراده من الحجاز حتى شمال حلب.

لقد نسي الهاشمي جميع الاعتبارات العسكرية والوطنية وتقدم إلى فيصل بطلب الغاء جيش الثورة بحجة واهية ضعيفة بعيدة عن العقل والمنطق يحتار الإنسان كيف يعلل قبول فيصل لها وكيف أمكن لشخصية عسكرية محترمة عاملة مثل ياسين الهاشمي أن يعرضها عليه، الأمر الذي سبب في النهاية بعثرة جيش برهن على جدارته بما ناله من انتصارات، فعل ذلك قبل أن يتأكد من إمكانية تشكيل جيش بديل عنه بوسعه القيام بالمهمة المصيرية التي كانت تنتظره.

كان بالإمكان الإبقاء على جيش الثورة بكامله كإحدى الفرق الثلاث التي جرى تشكيلها دون أن يكون هناك جيشان مختلفان كما اعتقد. لم يكن هناك أي سبب أو ضرورة لالغاء جيش الثورة فالجيش الشمالي الذي حارب في الأراضي السورية واستقر فيها هو جيش نظامي كباقي الجيوش النظامية التي كانت تقاتل في المنطقة كالأتراك والانكليز والفرنسيين وقد كانت هذه الجيوش تتفوق عليه بالعدد والعدة ولكنه كان يتفوق عليها (أي على تلك الجيوش) بحماسه وانسجامه وقوة معنوياته.

لم يأت أحد من منسوبي هذا الجيش إلى ميدان الثورة بالرغم عنه أو بموجب أوامر عسكرية لأن جميع ضباطه وجنوده كانوا متطوعين يحملون فكرة وطنية واضحة فكانت جهودهم والمعارك التي يدخلونها تجري بدافع من وطنيتهم ولذلك كان كل واحد منهم يشعر ويقاتل في سبيل تحرير وطنه وأن كل شبر من

أراضي هذا الوطن قد استحوذ عليها بجهده وعرقه ودماء رفاقه. وأن هذا الكيان الذي وصلت إليه البلاد قد دفع ثمنه غالياً وأصبح حقاً من حقوق أمته وعليه يقع واجب الدفاع عن هذا الحق.

لقد كانت النسبة في العدد والعدة بين جيش الثورة والجيش العثماني الذي كان يناجزه كبيرة جداً ومع ذلك فكانت الغلبة دائماً للجيش العربي والمبادرة بيده وذلك بسبب كفاءته وقوة معنوياته لقد كان هذا الجيش لا يتجاوز عدده الثمانية آلاف ومع ذلك كان يقارع خمسين ألفاً من الأتراك وقد كان مجموع ما أسره من الجيش التركي على ما اعترف به الانكليز أنفسهم ٣٥ ألفاً.

لقد علل السيد احسان الهندي في الصفحة ٨٤ من كتاب ميسلون أسباب إلغاء جيش الثورة بقوله:

««وبما أن جيش الحجاز الأصلي هو جيش غير نظامي، تعود على حرب العصابات أكثر من تعوده على الحرب النظامية، ولذا فإنه لم يعد من الملائم الاحتفاظ بهذا الجيش خصوصاً وأن قسماً كبيراً من ضباطه وجنوده يحنون إلى أهلهم وعشائرهم في الحجاز وفي الأردن.

ولما آنس الخبراء العسكريون في دمشق أنه يمكن تشكيل نواة جيش جديد من مسرحي الجيش التركي، وممن سيختارون البقاء في الجندية من أفراد الجيش الحجازي الأصلي، وممن سيتطوعون من أبناء بلاد الشام للخدمة في الجيش العربي الجديد، قاموا عن طريق «رآسة ديوان الشورى الحربي» بحل الجيش السابق وتسريح قسم كبير منه، وابتدأوا مباشرة، عن طريق التطوع والاستدعاء للخدمة بتشكيل جيش منظم حسب الأصول الحديثة».

لقد ألف السيد الهندي كتابه «معركة ميسلون» في سنة ١٩٦٧ أي بعد تلك الموقعة بأكثر من ٤٧ عاماً ويغلب على الظن أنه

استقى ما كتبه عن إلغاء جيش الثورة من أحد أولئك الضباط المتبقين من ذلك العهد لذلك نرى أن نبين الحقيقة بشيء من التوضيح.

عندما أعلنت الثورة لم يكن مع الشريف حسين في الحجاز لا ضباط ولا جنود، لقد كان جميع المقاتلين من البدو، انقسموا إلى ثلاث مجموعات كل منها تحت قيادة أحد أنجاله.

كان الحسين قبل قيام الثورة قد قدر أن ثورته ستحتاج إلى جيش نظامي فتطرق أثناء مفاوضاته مع الانكليز إلى هذه الناحية وتقرر أن يستعان على هذه الأمنية بتطويع الجنود والضباط العرب الذين أسرهم الانكليز في ميداني فلسطين والعراق على أن يقدم الانكليز جميع ما يحتاجه هذا الجيش من أسلحة ومعدات.

وأخذ الحسين من اليوم الثاني للثورة يلح على الانكليز لإرسال الضباط والجنود إلى الحجاز للبدء في إنشاء الجيش وفي ١٥ رمضان ١٣٣٤ هـ أرسل برقية إلى المندوب البريطاني في مصر أي بعد اعلان الثورة بخمسة أسابيع قال فيها:

««بكل إمكان من السرعة تبعثوا لنا ضباطاً لتأليف قوة البلاد المنظمة فإن أمرها أصبح أول شيء تحتاجه البلاد».

ولا ريب أن هذه البرقية القصيرة توضح إحساس الحسين بالأهمية التي كان يوليها لوجود الجيش النظامي في دعم الثورة واستمرارها.

وفي ٢ آب ١٩١٦ وصلت إلى جدة أول قافلة من المتطوعة وهم الرعيل الأول من الضباط المجاهدين الذين لبوا نداء الثورة العربية الأولى وكانت هذه القافلة تتكون من:

نوري السعيد	ضابط ركن عراقي
سعيد المدفعي	ضابط مدفعي عراقي

محمد حلمي	ضابط مدفعي عراقي
ابراهيم الراوي	ضابط مدفعي عراقي
رؤوف عبد الهادي	ضابط مدفعي سوري (فلسطين)
الدكتور أمين معلوف	طبيب سوري (لبناني)
الدكتور خليل الحسيني	طبيب سوري (فلسطين)
رشيد المدفعي	ضابط مدفعي عراقي
راسم سردست	ضابط مدفعي سوري

ونلاحظ أن جميع هؤلاء الضباط من صنف المدفعية وكان برفقتهم في الباخرة نحو ١٣٠ ضابط صف وجندي مدفعي. جميعهم عراقيون وأربعة مدافع مع حيواناتهم وعتادهم[٢].

وفي ٥ أيلول ١٩١٦ وصل إلى جدة عزيز علي المصري ليقوم بتنظيم الجيش العربي وعين وزيراً للدفاع، وعزيز علي من رؤوس الحركة العربية وزعيم الضباط العرب في الجيش العثماني ومؤسس حزب العهد العسكري الذي قام ببث الفكرة القومية العربية بين الضباط العرب في الجيش العثماني. وأن أكثر من ذكرناهم أعلاه من الضباط كانوا من أعضاء هذا الحزب.

وتعاقبت بعد ذلك قوافل الضباط والجنود من معتقلات الأسر في الهند ومصر إلى ميدان الثورة وكانوا يوزعون بين الجيوش الثلاثة التي ذكرناها، ولما هدأ زخم الهجوم التركي وتحولت المبادرة من الأتراك إلى الجيوش العربية واستسلمت مدينة الطائف توجه جيش الأمير عبد الله الذي كان يحاصرها للاشتراك في القتال مع الجيشين الآخرين في أطراف المدينة، وحين آثر الأتراك الحصار فيها وتوجه فيصل بجيشه نحو

(٢) مذكرات اللواء ابراهيم الراوي، ص ٧٣.

الشمال واحتل الوجه، قبلت الخطة التي اقترحها عزيز علي المصري بأن يصار إلى تقسيم جيوش الثورة إلى ثلاثة، اثنان يقومان على حصار المدينة والثالث يكون جيشاً متحركاً مهيأ لتخريب خطوط المواصلات والاندفاع إلى الشمال، وتقرر أن يقوم جيشا الأميرين علي وعبد الله على حصار المدينة المنورة وأن يكون جيش فيصل هو الجيش السيار. وعلى ذلك بوشر بتجميع أكثرية الضباط والجنود النظاميين في جيش فيصل. واعطائه بعد ذلك جميع الملتحقين من المعتقلات وفي مقدمتهم جعفر العسكري الذي عين قائداً عاماً لجيش فيصل.

وهكذا أصبح في ميادين الثورة منذ الشهر الثاني لقيامها صنفان من المقاتلين الأول ألوية الجيش النظامي الذي جرى تشكيله وتوسيعه بصورة مستمرة وسريعة. والثاني من رجال العشائر وهو الاسم الذي عرفوا به، أي أنهم لم يسموا جنداً. ولم يكن لهم تشكيلات خاصة ولا قادة من الضباط وليس لهم نظام عسكري ولا مخصصات ثابتة. يجتمعون برئاسة شيوخهم ويقاتلون كقوة مساعدة للقطعات النظامية حسب أساليبهم.

أما العسكريون النظاميون فقد جرى تنظيمهم حسب الأنظمة العسكرية المعروفة ووزعوا على ألوية وأفواج وسرايا وفصائل وحظائر وإلى صنوف مشاة ومدفعية وخيالة ومخابرة وهندسة وكان قادتهم وجميع ضباطهم ممن نشأوا وخدموا في الجيش العثماني برتب مختلفة من لواء حتى مرشح ضابط وجميعهم كانوا إما ممن تطوعوا من معتقلات الأسر كما ذكرنا أو ممن فروا من قطعات الجيش التركي والتحقوا بأحد جيوش الثورة(٣) أو أنهم ممن أسروا خلال المعارك من الجيش العثماني وقبلوا الالتحاق بجيش الثورة.

---

(٣) كاتب هذه الأسطر احد هؤلاء.

وعندما افتتح الشريف ناصر العقبة بالعشائر الشامية بقيادة أحد شيوخهم عودة أبو تايه لم يكن معهم من العشائر الحجازية سوى ٣٥ مندوباً كحرس خاص للشريف المذكور.

وينتقل الأمير فيصل بجيشه النظامي من الوجه إلى العقبة ولم يستصحب معه من العشائر الحجازية سوى عدد قليل من الهجانة والخيالة كحرس خاص له ولبقية الأشراف والمستخدمين الذين بمعيته. ولم يكن لهؤلاء صلة أو علاقة بالجيش النظامي.

وبعد وصول الجيش النظامي إلى العقبة جرى تنظيمه بفرقتين كل فرقة من لوائين وكل لواء من فوجين أو ثلاثة وكل فوج من ثلاث سرايا مشاة وسرية رشاش وفصيل نقلية كما جرى تشكيل لواء خيالة باسم لواء الهاشمي من سرية خيالة وسرية رشاش[٤] وتشكلت المدفعية بلواء صحراء من بطاريتين كل منهما من مدفعين أو أربعة ومن لواء مدافع جبلية عيار ٧,٥ ببطاريتين كل بطارية من مدفعين أو أربعة. ونظمت الإعاشة والمهمات والنقليات برئاسة ضباط.

وكان قائد الجيش الذي قام بهذا التنظيم اللواء جعفر العسكري يعاونه رئيس ركنه العقيد نوري السعيد. وتشكل المقر العام من ضباط ركن آخرين يترأس كل واحد منهم شعبة (العمليات، الادارة، الاستخبارات، اللوازم، الصحة، المحاسبة).

وجميع هؤلاء الضباط ممن نشأوا في مدارس الجيش العثماني ومنهم من تخرج من مدرسة الأركان ومنهم من أكمل تحصيله العالي في المانيا (كجعفر العسكري). وكذلك ضباط الصف

(٤) كاتب هذه الأسطر كان قائداً لهذه السرية.

والجنود جميعهم دون استثناء ممن خدموا وتدربوا في الجيش العثماني وليس فيهم من لم يمارس الحرب في الجيش العثماني كما هو واضح من طبيعة التحاقهم بالثورة لأن أكثرهم أسروا أثناء المعارك أو التحقوا من إحدى الجبهات.

ولم يكن بينهم جبان لأن الجبان يعتبر الوقوع في الأسر نعمة قد أنقذته من ويلات الحرب فهو لا يعود ويتطوع ليبتلى بها.

إذاً فالجيش الشمالي الذي اقترح ياسين الهاشمي الغاءه للأسباب التي ذكرها السيد احسان الهندي في كتابه (معركة ميسلون) لم تكن أسباباً حقيقية، فالجيش الشمالي كان بأجمعه ضباطاً وجنوداً جيشاً نظامياً مدرباً ومنظماً يتفوق على الجيش العثماني الذي يحاربه بجميع النواحي، خصوصاً لجهة وحدة عناصره وانسجامهم بقوميتهم وأفكارهم وآمالهم ومشاعرهم بخلاف الجيش العثماني الذي كان يتشكل مما لا يقل عن ثلاثة عشر عنصراً لا تجمع بينهم أية رابطة فمنهم العربي والتركي والكردي والألباني والأرمني والرومي والبوشناقي واللازي والتركماني والشركسي والشاشاني واليهودي والغجري وجميعهم غير منسجمين ولا مخلصين لا لجيشهم ولا لبعضهم باستثناء الأتراك.

لم يكن في جيش الثورة النظامي ولا بدوي واحد ولا ضابط غير شامي أو عراقي سوى ضابط واحد يماني اسمه (سري) كان في الأصل ضابطاً في الجيش العثماني كباقي الضباط، كما لم يكن في الجيش كما ذكرنا ولا ضابط حجازي لأنه في الأصل لم يكن في الحجاز ضباط ولا جنود حجازيون بسبب اعفاء الحجازيين في العهد العثماني من الخدمة العسكرية وعدم وجود مدارس عسكرية فيها.

كما أن جيش الثورة لم يحارب على أصول العصابات قطعاً.

فجميع المعارك التي دخلها مع الجيش التركي جرت على الأصول النظامية وبموجب خطط منظمة كما هي مفصلة في (الثورة العربية الأولى كما عشتها).

إن الطريقة التي جرى بموجبها إلغاء جيش الثورة كانت مقصودة لذاتها وكأنها جرت بإرادة خفية من الفرنسيين والانكليز لإبقاء البلاد بلا جيش يدافع عنها خصوصاً وأنهم كانوا يعرفون الشيء الكثير عن الأعمال التي قام بها جيش الثورة ومقدار خطره على أطماعهم. اننا لا نقصد القول بأن الإلغاء جرى بإيعاز من الفرنسيين أو باتفاق معهم وأنه خيانة ولكنه في النتيجة كان عملاً وصل إلى تلك المرتبة.

بعد صدور الأمر بإلغاء جيش الثورة بقي جميع ضباطه لم يسرح منهم أحد ولكنهم بعثروا بين القطعات الجديدة التي بدأوا بتشكيلها. أما الأفراد فإنهم بعثروا أيضاً وسرح من أراد منهم التسريح بعد أن افترق عن رفاقه وهكذا لم يبق في البلاد لا جيش الثورة القوي الذي كانت تكلل هامته وتقوي معنوياته الانتصارات ولا جيش جديد يستحق هذا الاسم لسبب تفككه وسوء عناصره. كما سيتبين ذلك مما سنشرحه في الصفحات القادمة.

كان للأوامر التي صدرت بإلغاء جيش الثورة أسوأ الأثر في منتسبي المفرزة الشمالية التي تحولت الى لواء خيالة واستقرت في حلب على ملاك الفرقة الثالثة. وبناءً على إلحاح قادتها والشريف ناصر تقرر عدم إلغائها وأعطي لها اسم جديد يتفق مع ما قامت به من أعمال وهو (لواء الفتح الخيال) لأنها بالفعل قد أصبحت لواءً خيالاً، ولكن القرار بعدم إلغاء هذا اللواء لم يفده بشيء. فقد جرى نقل ضباطه تدريجياً إلى قطعات أخرى وسرح أكثر أفراده حتى أصبح كباقي قطعات الجيش التي تشكلت حديثاً متفككاً بسبب عدم انسجام عناصره وانحلال

عقائدهم وبالعملاء الذين نفذوا إلى داخله للإفساد والتخريب. كما سيتضح ذلك عند استيلاء الفرنسيين على حلب. تلقى الشريف ناصر أمراً من الأمير فيصل بلزوم حضوره إلى دمشق ليبقى إلى جانب أخيه زيد خلال غيابه في الغرب، وأصر الشريف ناصر على بقائي برفقته، ونزل في دمشق في دار استأجرناها في شارع السكة قريبة من دارة الأمارة وبقيت على ملاك لوائي بصفة ضيف على ملاك مرافقي دار الأمارة.

لقد تسنى لي خلال وجودي مرافقاً للشريف ناصر في حلب بحكم وظيفتي التعرف على أعيان البلد وزعمائها وعلى الطبقة النيرة من الشباب العامل وكبار الموظفين ورجال الدولة الذين كانوا يؤمون حلب.

وكانت دمشق في ذلك الوقت مركزاً للنشاط السياسي والقومي ليس لسوريا الطبية فقط بل للحجاز والعراق أيضاً، وكانت العناصر الفعالة من رجالات هذه الأقطار تعمل في دمشق فتجد فيها لنشاطها المدى الواسع والعون والتشجيع وكانت سياسة الدولة تتجاوب مع مبادىء الثورة العربية وروحية فيصل فتأسست هذه الدولة على أساس قومي بعيد عن الإقليمية فكانت الوزارات والمديريات والمحافظات وجميع الوظائف الكبيرة والصغيرة يعين لها الأكفاء اللائقون، بصرف النظر عن القطر الذي ينتمون إليه. وهكذا يقال عن النشاط القومي. فالفلسطينيون الذين يعملون لإنقاذ فلسطين من الانكليز ووعد بلفور ورجال السواحل الشامية الذين يعملون لدرء الخطر الفرنسي، والعراقيون الذين يهيئون ثورتهم ضد الاحتلال الانكليزي، جميع هؤلاء كانوا يجدون في سوريا المكان الأمين والعون المادي والمعنوي، وكان بلاط فيصل الموئل لجميع هذه النشاطات منه يستمدون ما يسهل أعمالهم ويشجعهم ويسدد خطاهم.

كل هذا لا يعني أن الأمر لم يكن ليخلو من دسائس الفرنسيين يبثونها بواسطة أعوانهم وعملائهم الكثيرين المنبثين في جميع أنحاء البلاد وفي دوائر الدولة والجيش لإشاعة التفرقة وزرع بذور الخلاف ونشرها بين أصحاب المصالح، وساعدهم على ذلك الجهل وعدم النضوج القومي.

ومما أشاعوه في سبيل تفرقة القلوب والجهود نغمة عراقي وسوري وفلسطيني ولبناني ومسلم ومسيحي، ثوري وغير ثوري، وبالرغم من أن هذا الصوت كان يبدو ضئيلاً بين صيحات القومية العربية وحماسها لكنه في الحقيقة كان ذا أثر أليم في النفوس استغله الفرنسيون والانكليز والشعوبيون من أعداء العرب أعظم استغلال.

كنت في هذه الحقبة أنتمي إلى البلاط في عداد المرافقين وبطبيعة عملي تهيأ لي التعرف على الكثيرين من العاملين في الحقل الوطني. وأن الخدمات التي تهيأ لي القيام بها أثناء الثورة أكسبتني شيئاً من التقدير والاعتبار لدى الأميرين فيصل وزيد وجعلت لي لديهما دالة انعكست على الآخرين فكان لها أثرها في نفوس من كنت أتعرف إليهم من الرجال العاملين وكان لهذا التعارف آثاره ونتائجه بالنسبة لشخصي في خلال السنين المقبلة، لقد كان بلاط فيصل المركز الذي تنبعث منه وتدور حوله(٥) السياسة العربية بأجمعها بمشاكلها ومختلف أنواع نشاطاتها. ففي هذا الجو كنت أعيش فأتعرف على مختلف الشخصيات ومختلف الأمور.

(٥) وممن تعرفت عليهم في ذلك الوقت هاشم الأتاسي، جميل مردم، رشيد طليع، ابراهيم هنانو، محمد كردعلي، أحمد مريود، لطفي الحفار، شكري القوتلي، نبيه العظمة، عادل العظمة وغيرهم كثيرون.

■ قوة الهجانة

بعد عودة الشريف ناصر من حلب وقرار بقائه في دمشق، صدر الأمر بعودة الهجانة الحجازيين الذين كانوا في حلب بإمرة الشريف مطر فأضيفوا إلى باقي الهجانة الذين جرى تجميعهم ممن كانوا في معية الأمير وباقي الأشراف. وتشكل من مجموعهم قوة واحدة بقيادة الشيخ مرزوق التخيمي واعتبرت كحرس خاص للأمير، وأصبح من الضروري وهم متمركزون في داخل مدينة دمشق أن يصار إلى تنظيمهم بتشكيل شبه عسكري لتأمين أمور ادارتهم وتدريبهم وضبطهم، وكلفني الأمير زيد أن أساعد الشيخ مرزوق التخيمي بهذا التنظيم فنظمنا لهم منهج تدريب ملائماً وأنظمة للواجبات وقضايا الضبط وقد بقيت هذه القوة وسرية الحرب الملكي النظامية التي كان جميع جنودها من اليمانيين الذين كانوا في الجيش الشمالي هي القوات الوحيدة من جيش الثورة التي بقيت سليمة من التشتيت ولم يكن لقوة الهجانة هذه ارتباط بالجيش لا من الوجهة الادارية ولا العسكرية ولا المالية، بل هي مرتبطة بالأمير زيد مباشرة. وفي موقعة ميسلون كما سنلاحظ ذلك في مكانه ظهر النفع العظيم الذي حققه هذا الترتيب عندما بقيت هذه القوة سليمة من إفساد العناصر المأجورة من الداخل كما وقع في أكثر قطعات الجيش وقد سلمت أيضاً من التسريح وكانت هي وسرية الحرس الملكي القوتين الوحيدتين اللتين حاربتا في موقعة ميسلون بموجودهما الكامل كما سيتضح ذلك.

٥

حالة الشعب

كانت فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى من أصعب وأخطر الفترات التي مر بها القطر الشامي كان الشعب خلالها يخطو أولى خطواته في سبيل تكوين شخصيته وينفض عن كاهله غبار أكثر من ألف سنة من الاستعباد. وقد أضاع خلال هذه السنين الطويلة شخصيته واعتداده بنفسه وما ادخره من تراث، وأصبح عالة على مجد أجداده. لقد أضاع شعوره القومي تحت حكم القوميات الأخرى التي تعاقبت على حكمه بالظلم والجور مستمدة شرعية حكمها من الدين ومن شعار (لا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى) مع محافظتها على قوميتها واستهانتها بقوميته، وألف على مرور الزمن الخنوع والذل والاستسلام. وأصبح من أمثاله الدارجة على كل لسان (من أخذ أمي صار عمي).

خرجنا من الحكم التركي ونحن متفرقون مفككون الى مسلم، مسيحي، شيعي، سني، اسماعيلي، نصيري ودرزي. ومن القوميات الأخرى تركي، تركماني، شركسي، كردي، الباني، وأرمني، وجميع هذه الديانات والمذاهب والقوميات مختلفة مع بعضها كل منها تعتبر نفسها غريبة عن الآخرين وتعتقد أنها مغبونة مهضومة الحقوق. لقد كان المسيحيون بصورة عامة لا يزالون تحت تأثير الماضي. لقد كان المسيحي في العهد العثماني

مواطناً من الدرجة الثالثة، لا يشعر أنه مواطن له حقوق وعليه واجبات، فلا يعقل أن ينقلبوا بمجرد خروج الأتراك قوميين عرباً وينسوا كل ما مر بهم، من مظالم وإهانات خلال تلك القرون الطويلة، وهكذا كانت أكثرية المسيحيين، غير مرتاحة للحكم الوطني فبقوا أصدقاء لفرنسا. أما اليهود فهم شعب عدو لكل ما هو غير يهودي يفضلون أن يكونوا تابعين لأي حكم أجنبي، والشيعة في حيهم منكمشين يشعرون بغربتهم عن الأكثرية السنية وقد لجأ عدد غير قليل منهم للحصول على الجنسية الايرانية لتحميه من ظلم الدولة، والنصيرية في جبالهم، منعزلين تحت وطأة الفقر والجهل والاهمال، لا يعرفون عن الحكم سوى أنه ضريبة إلى الجابي في يد الجاندرمه (الدرك)، وهكذا الاسماعيليون المرتبطون مذهبياً واجتماعياً بآغا خان، والدروز في مناطقهم الجبلية يشعرون بغربتهم عن جميع من يحيط بهم وهم دائماً في ريبة وعدم اطمئنان والحكومة في نظرهم عدو متربص بهم. أما الأقليات العنصرية كالأتراك والشراكسة والتركمان وغيرهم فبقي ولاؤهم للأتراك يعتبرون أن هذه الحركة العربية التي فصلتهم عن الأتراك المسلمين بالتعاون مع الانكليز الكفار حركة خائنة، ويتفق معهم بهذه الفكرة أكثرية رجال الدين المسلمين والكثير من العامة. أما عشرات الألوف من الأرمن المقيمين منهم والمهاجرين الذين تعرضوا خلال الحرب للمذابح التي أقامها لهم الأتراك فقد أعطوا ولاءهم لفرنسا التي عطفت عليهم خلال الحرب وبعدها فتطوعوا في جيشها وحاربوا معها لينتقموا من المسلمين ولم يكونوا قد توصلوا بعد للتفريق بين العرب الذين عطفوا عليهم أثناء محنتهم وأنقذوا عشرات الألوف منهم بالرغم من أنهم كانوا مثلهم تحت وطأة مذابح من نوع آخر، وبين الأتراك الذين أقاموا لهم تلك المذابح. وكان باقي الشعب الشامي الذي خرج من أتون الحرب مهشماً ينفض عن كاهله آثار النكبات

التي نزلت به خلال الحرب، لا يـزال مأخـوذاً بفرحـة الخلاص والتحـرر غير متفهم لـما يتطلبـه الحكم الـوطني من تضحيـات وواجبـات وكان لا يـزال تحت تأثـير عقـدة عـداء الحكم التي كونتها في نفسه المظالم التي عـاناهـا من الحكام الأغـراب عنه منذ مئات السنين وكانت الفكرة القومية عنده لا تزال جديدة لم يتفهمها على حقيقتها، وقد فسرها له بعض الجهلاء والمغرضـين من أعداء العرب على أنها عداء للإسلام وتفريق للمسلمين، وقد وجد الكثيرون من فلـول الأتراك والعنصريـاتِ الأخرى وعمـلاء الأجانب من هذه الفكرة منفذاً يدخلون منه للتشكيك بها.

هـذه هي حقيقة أكثـرية الشعب في تلـك الآونـة العصيبـة من حياته، وقد وجد فيها الفرنسيون الطامعون باستعمار البلاد مـا يسهـل عليهم مهمتهم فاستفـادوا من هـذا الضعف فـراحـوا ينفخون بناره ونار كل خلاف ليؤججوه ويضعوا إصبعهم في كل خرق ليوسعوه وقد وجدوا لهم في الجهل وعدم الوعي مسـاعداً يعينهم على الوصول لغاياتهم، فألحقوا به معيناً آخر لا يقل عنه تأثيراً وهو المال فصرفوا منه الملايين بل عشرات الملايين فوجدوا أمـامهم الطـريق ممهـدة لشراء الألـوف من المستعـدين لبيـع أنفسهم. إذا كـانت الشعـوب تتـأثـر في أعمـالهـا وأفكـارهـا بزعاماتها، ففي الفترة التي نتكلم عنها كـان في البلاد صنفـان من الزعامـات، الأول: أولئك الـذين ورثوا زعـامتهم عن آبائهم الذين حصلوا عليها بما قدموه للدولة من خدمات أعـانتها عـلى ظلم الشعب وحققت لهم الجاه والثراء، ولما غادر الأتراك البلاد أظهـروا ولاءهم وحمـاسهم للحكم الـوطني للمحـافظـة عـلى مصالحهم ونفوذهم. وظهر منهم فيما بعـد مَن وَالَى المستعمرين وأخلص لهم أكثر من إخلاصه لوطنه.

والصنف الثاني من الزعامات، هي التي كانت تستمد زعـامتها من مكانتها العـائلية أو الـدينية وكـان أكثر هؤلاء كغـيرهم من

أفراد الشعب لم يدركوا بعد المعنى الحقيقي من الحكم الوطني فكانت زعامتهم لا تتعدى مشاركة الشعب بمشاعره دون أن يكون عندهم المقدرة على معالجة شؤونه.

وكان هناك فئة من المتعلمين الذين ناضل بعضهم في العهد التركي في سبيل القضية العربية وأعدم الأتراك قسماً منهم بسبب هذا النضال، ولكن لم يكن بين هؤلاء من سبق له ممارسة العمل السياسي وتعلم قيادة الجماهير. فامتصتهم الوظائف وجعلتهم فوق كراسيهم يتمايلون تحت ضغط حماس الشارع.

لم يكن هناك غاية وطنية متوخاة لها أهداف مدروسة خططها خبراء علماء تفرغوا لدراستها من جميع وجوهها ونواحيها، كانت جميع الأمور تعالج بصورة ارتجالية تحت تأثير حماس الشارع وشعاراته. وكان الشارع لا يزال كما تركه معاوية ابن أبي سفيان (لا يفرق بين الناقة والجمل) وينطبق عليه قول المثل الذي يكرر في المجتمع الشامي (طبل يجمعه وعصى تفرقه).

٦

العودة إلى حلب

في هذه الآونة كنت لا أزال أقوم بوظيفة مرافق للشريف ناصر في دار الأمارة وقد بدأت أتضايق من هذا العمل الرتيب الأنيق الذي لم يتلاءم مع نفسيتي وما تعودته من حياة الجندية الخشنة خلال سنوات الحرب الأربع، والإنسان حريص على ما ألف. ولذلك قررت العودة إلى لوائي في حلب وأقنعت بذلك الشريف ناصر فكان لي ما أردت. استقبلني اخواني في اللواء وسروا بعودتي. ما كدت أقف على ما حصل أثناء غيابي حتى انتابني الغم وندمت على عودتي. إن أكثر ضباط الصف والجنود سرحوا والضبط والادارة قد تبدلت بما لا يسر حتى أن المال الذي كنت قد تركته في صندوق السرية (وهو من المكافآت التي كانت تعطى لنا لتصرف في مصالحها) وكانت نحو /١٢٠٠/ جنيه قد ذهبت بغير طريقها. وكان الملازم سعد الله الذي ناب عني في قيادة السرية مدة غيابي قد أهمل أمور السرية وانهمك بملذاته وتصرف بأموال السرية حتى عمد إلى التجهيزات التي غنمناها من الأتراك حين دخولنا حلب وكانت في مستودع كبير فتصرف بها تدريجياً حتى باعها بأجمعها. وكان يحسن التملق وكسب رضا الأمراء فتمكن من اكتساب ثقة ومحبة قائد اللواء الطيب القلب حتى أنني حينما فاتحته بأمره وطلبت إليه محاكمته لم يوافق خوفاً من

الفضيحة، أما باقي السرايا فقد نقل بعض ضباطها واستعيض عنهم بضباط من الملتحقين من الجيش التركي وأصبحوا أكثرية وبعد أن كنا في مجتمعاتنا نتحدث عن الثورة وعن المعارك التي خضناها وشهدائنا وآمالنا القومية في المستقبل صرنا نتحاشى الخوض بمثل هذه الأمور التي أصبحت مجلبة للجدل مع هؤلاء الضباط الذين كانوا يتهموننا بوطنيتنا لاشتراكنا بالثورة ضد السلطان أمير المؤمنين. فتصور كم كان وقع ذلك أليماً على نفوسنا. فبعد أن كنا نفرح بما فعلناه أصبحنا متهمين بوطنيتنا وديننا. من الفائدة أن أذكر حادثة جرت لي قبل مبارحتي لحلب وانتقالي مع الشريف ناصر إلى دمشق سأذكرها الآن لما لها من صلة بالأحداث التي سنتكلم عنها فيما بعد. جرت هذه الحادثة في الأشهر الأولى من دخولنا إلى حلب: لاحظت أن الملازم سعد الله الذي مرّ ذكره يصرف على مباذله أكثر مما يتحمله راتبه. ففي إحدى الأمسيات سألته عن كيفية تأمينه لهذه الأموال فأجابني بقوله: أنت أيضاً يمكنك الحصول على أموال أكثر مما أحصل عليه أنا. ولما سألته عن كيفية ذلك قال: إن الجيش الانكليزي سوف ينسحب من البلاد وسيحل محله الجيش الفرنسي وسيسرح الفرنسيون الجيش العربي وسوف يشكل عوضاً عنه جيشاً جديداً وأنهم يقومون الآن بانتخاب الضباط الذين سيعتمدون عليهم ويدفعون لهم رواتبهم من الآن مقابل خدمات بسيطة، ويدفعون أيضاً لبعضهم علاوات مقابل خدمات اضافية مثلاً: أنا أتقاضى /٥٠/ جنيهاً شهرياً ولو أنني كنت في مكانك لدفعوا لي بالتأكيد ألف جنيه في الشهر بسبب أنك مرافق للشريف ولديك الشفرة السرية وجميع أسرار دار الأمارة ولأنه بإمكانك أن تقدم لهم خدمات لا تقدر بثمن.. فأجبته بجد وانفعال، إذاً أنت تتجسس للعدو وتتقاضى راتبين أحدهما من دولتنا والثاني من عدونا. وبسرعة وبما أوتيه من لسان زرب قلب الحديث إلى هزل

وأقنعني بأنه غير جاد بما حدثني به. وبعد ذلك بأيام وفي مناسبة أخرى تطرق للحديث نفسه وقال مازحاً: ان مبلغ الألف جنيه في الشهر صعد إلى الألفين فنهرته وقلت له: أكاد في هذه المرة أن أصدق ما قلته، فاضطرب وأقنعني بأنه يمزح ولم يفاتحني بعد ذلك بهذا الأمر وبعد هذه الحادثة بثماني سنوات أي في سنة ١٩٢٦ وكنت آتياً من العراق للالتحاق بالثورة السورية عن طريق دمشق ـ لبنان ـ شرقي الأردن ـ جبل العرب ـ الغوطة. وفي دمشق صادفت هذا الضابط في إحدى المتنزهات فعرفني قبل أن أعرفه لأنه كان بقيافة مزرية فدعوته للجلوس فجلس وبدأ يشكو لي حالته وما أصابه من بؤس وعوز وجوع وسجن وأن كل ما ناله كان من الفرنسيين بالرغم مما قدمه لهم من خدمات على حساب وطنه وشرفه إلى أن تطرق إلى الحديث الذي حدثني به في حلب فاعترف أنه كان حديثاً جدياً ثم شرح لي كيفية دخوله في خدمة الفرنسيين وتجسسه لحسابهم إلى أن قال: إن الأمر الذي فاتحتك به في حلب كان حقيقياً لأنهم كانوا مهتمين بك بسبب وجود الشفرة لديك ووقوفك بحكم طبيعة وظيفتك على الأمور التي تجري بين دمشق والحاكم العسكري ودارة الأمارة إلى أن قال: وقد كانوا يدفعون لي زيادة عن غيري من الضباط الذين في خدمتهم لكوني كنت في معيتك وأسعى لأن أحصل منك على ما يهمهم من أخبار وعندما لم أتمكن من ذلك كنت ألفقها وأحصل على مكافآت إضافية عنها تتناسب مع أهمية الخبر. فمن هنا كنت أصرف بسعة وأهم ما قدمته لهم من خدمات كان عندما تقدم الجيش الفرنسي لاحتلال حلب فقد تمكنت من إشاعة الشك والبلبلة بين الضباط بالتعاون مع من كانوا مثلي في خدمتهم كما كنت على اتصال بهم أخبرهم عن ترتيبات اللواء من أجل الدفاع عن حلب. وبعد دخولهم إلى حلب طلبوا إليّ الالتحاق بثورة الشيخ

صالح العلي كمجاهد ففعلت. «وهنا شرح لي مطولاً الخدمات التي قدمها لهم خلال ثورة الشيخ صالح العلي». إلى أن قال: وبعد كل تلك الخدمات نبذوني ثم سجنوني وها أنا ذا كما تراني لا أجد لقمة العيش وصار يبكي. استنتجت من مجمل حديثه أن السبب فيما حصل له من قبل الفرنسيين هو الاقلال من عطاآتهم بعد أن نفدت حاجتهم إليه. ولأنه كان قد تعود الصرف الكثير بما يكسبه بالجهد القليل فقد أخذ يستعمل معهم في سبيل الحصول على المال طرقاً أكثر التواءً وتحايلاً مما كان يتّبعه سابقاً فانكشف أمره فعاقبوه بالسجن عدة أشهر ثم طردوه من عمله كجاسوس وحرم من الدخول في دورة الضباط التي افتتحوها لزملائه في جامع دنكز عقب دخولهم. لقد أطلت الكلام على هذا الضابط لأنه كان يمثل صورة لعدد غير قليل من الخونة الذين كانوا من الأسباب الرئيسية التي سهلت للفرنسيين الاستيلاء على البلاد بتلك الصورة التي سنذكرها.

كانت حالة اللواء عندما عدت إلى حلب على الصورة التي ذكرتها فبدأت أفكر بالانفكاك منه. وأثناء ذلك صدر بلاغ بطلب ضباط يتطوعون للخدمة في الحكومة الحجازية بسبب انقراض جيشها نتيجة المعركة التي وقعت في موقع تبا مع ابن السعود. فتطوعت وغادرت حلب إلى دمشق. وفي دمشق وجدت معارضة لتطوعي فقد طلبني الأمير زيد وكلفني بالعودة للبلاد كمرافق فاعتذرت واقترح أن أعين في أي محل أريده على أن أبقى في دمشق وذكر لي أن هناك عملاً سيكلفني به فيما بعد. وعينت آمراً لسرية رشاش الفوج الثاني من اللواء الأول. وفي هذه الآونة علمت بوجود لجنة من كبار الضباط العراقيين برئاسة علي جودت الأيوبي يقومون بتطويع الضباط العراقيين للعمل في العصابات التي يشكلونها للعمل على الحدود العراقية في جهات دير الزور ضد الانكليز. فتقدمت إلى اللجنة بتطوعي ولما عدت

إليهم بعد يومين لتلقي الجواب أبلغوني عدم موافقة الأمير زيد لأنه يريد بقائي في دمشق لأعمال أخرى.

لقد جرت معي عقب عودتي من حلب الحادثة التالية التي سأذكرها أيضاً لما لها من أهمية في تفهم الوضع في ذلك الوقت..

في أحد أيام الجمع دخلت مقهى النصر الكائن في طلعة رامي وكنت على موعد مع صديقي محمود الهندي، وهناك وجدت بجانبه ضباطاً آخرين أحدهم نقيب كنت أعرفه من الجيش التركي عندما كنا في مركز تدريب الرشاش الذي أقامه الألمان في عين كارم قرب القدس. وقد عاد عقب انتهاء الدورة إلى الجبهة وهناك وقع أسيراً بيد الانكليز وفي المعتقل تطوع في جيش الثورة. وكان قصير القامة بصورة غير عادية يكاد أن يكون قزماً فكونت هذه الظاهرة عقدة في نفسه مركب نقص جعله متكبراً شرساً حقوداً. وفي العقبة جرت له حادثة مع القائد العام سببت اعتقاله ثم أرسل إلى مكة مخفوراً وأدخل السجن وبقي فيه حتى نهاية الحرب حيث أرسل إلى دمشق ودخل الجيش العربي ولكنه كان ناقماً على الثورة وعلى الاشراف وعلى العروبة كلها. ووجد الجو في تلك الحقبة صالحاً لإظهار شعوره فصار يعلن نقمته على الحكم الوطني دون تحفظ. ولما أصبحنا وحدنا في إحدى زوايا المقهى قال لنا: «ألا تزالان مغفلين، تظنان أن هذا الحكم سيستمر. ان فيصل سوف يقوّض خيمته ويعود للحجاز، وهذه التي تسمونها حكومة عربية سوف لا يمر عليها أشهر قليلة حتى تزول. وسوف تأتي فرنسا لتشكيل حكومة وجيش (مثل الأوادم)، وأنتما إذا كان عندكما عقل فعلتما مثلما فعلت فسألته عما فعل فقال إن الفرنسيين يهيئون كل شيء من الآن فعند دخولهم البلاد سوف يسرحون هذا الجيش ويشكلون جيشاً جديداً

وسوف لا يقبلون فيه سوى الضباط الذين يبرهنون من الآن على أخلاصهم وولائهم لهم فيسجلونهم ويدفعون لهم رواتبهم من الآن وأن الكثير من الضباط قد تسجلوا عندهم ومنهم من تعرفونهم فلان وفلان... وقد قمت بالتوسط لتسجيل فلان وفلان... وأنا مستعد وأنتما صديقاي أن أقوم لكم بهذه الخدمة. فسألته كيف يجري ذلك قال، نذهب إلى دار المعتمد الفرنسي الكولونيل كوسي وهناك يجري التسجيل. فقلت له: قبلنا. وقررنا الذهاب في صباح اليوم الثاني. ولما افترقنا عنه سألني محمود: أنت جاد بقولك؟ قلت له نعم وغداً يجب أن نذهب ونتحقق من الأمر بأنفسنا لأن المسألة على غاية من الأهمية والخطورة. وفي اليوم التالي ذهبنا برفقة ذلك النقيب إلى دار الكولونيل كوسي الكائن في مدخل الزقاق المواجه للنادي العسكري الحالي الذي بجانب المجلس النيابي. فاستقبلنا سكرتيره وهو دمشقي قد سبق لي التعرف به حينما كان يأتي إلى دار الأمارة بصحبة الكولونيل كترجمان. فعندما شاهدنا وسمع الضابط يقدمنا إليه كأصدقاء لفرنسا ونرغب بالاجتماع بالكولونيل اندهش وارتبك من السرور وبدأ يدلل لنا على صداقة فرنسا للسوريين ويحبذ ما عولنا عليه من الاجتماع بكوسي لتأمين مستقبلنا ومصلحتنا وعدّد لنا أثناء ذلك بقصد التشجيع أسماء بعض الضباط الذين سجلوا أسماءهم عنده في عداد أصدقاء فرنسا وأصبحوا من ضباط الجيش السوري المقبل. ثم قال لي: كم سيكون الكولونيل مسروراً بك وطالما تمنى أن يراك في عداد أصدقائنا. وأخيراً أفهمنا أن الكولونيل قد سافر إلى بيروت وسوف يعود مساءً. وعيّن لنا موعداً للقائه في اليوم الثاني. وبعد خروجنا وافتراقنا عن ذلك الضابط وقفت مع محمود الهندي نسجل أسماء الضباط الذين تذكرناهم ممن ذكروهم لنا فكانوا سبعة عشر اسماً. ذهبت تواً إلى البلاط

وقابلت الأمير زيد وكان وقتها نائباً عن أخيه الأمير فيصل الذي كان في أوروبا. فشرحت له الأمر وقدمت له قائمة الأسماء وقلت له ان الوضع يدل على أن هناك مئات الأسماء غيرهم. فكان الأمير مندهشاً يكاد لا يصدق ما أقول. وأعتقد أنه لم تتخذ أية إجراءات بهذا الخصوص. وسنتفهم في الفصول المقبلة النتائج التي حصلت من جراء ما ذكرناه عن هذه الأمور.

٧

الأحزاب والجمعيات السياسية

خلال غياب الأمير فيصل في أوروبا بدأ النشاط الحكومي بتأسيس وتنظيم دوائر الدولة، وكذلك باتجاه الحركة الوطنية التي التحق بعضها بالثورة والبعض الآخر رحل إلى مصر. وبعد انتهاء الحرب تجمع القسم الأعظم من هؤلاء من مختلف أقطارهم في دمشق مركز النشاط العربي في ذلك الوقت، فدب النشاط في الحركة الوطنية وتأسس العديد من الجمعيات والأحزاب التي كانت تختلف في بعض الأمور الفرعية إنما جميعها كانت تتفق في غايتها الأساسية ألا وهي الاستقلال التام لجميع البلاد العربية. وفيما يلي أبرز تلك الجمعيات والأحزاب:

■ جمعية الفتاة

انها الجمعية نفسها التي تأسست في سنة ١٩١١. وهي أنشط وأوسع الجمعيات والأحزاب العربية وأكثرها إنتاجاً قبل وبعد الحرب. وقد كان لهذه الجمعية التأثير الأول في قيام الحسين بثورته وكان الأميران فيصل وزيد من أعضائها كما كان لها الأثر البارز في تنظيم المقاومة خارج سوريا بعد وقوعها تحت الاحتلال الفرنسي كذلك في شرق الأردن وفي الثورة السورية عام ١٩٢٥، وفي ثورة العراق سنة ١٩٢٠ وفي جميع الثورات التي

قـامت خلال الاحتـلال الفرنسي في سـوريا وفي فلسطـين ضـد الانكليز. وكانت هذه الجمعية خلال العهد الفيصـلي في سوريـا تسيطر على الحكم سيطرة كاملـة، وما كـان ليتم شيء إلاّ بأمـر وبقرار منها حتى أن أعضاء الوفـد الذي ذهب إلى أوروبـا مع الأمير فيصل ومثـل العرب ووجهـة نظرهم وتكلم بـاسمهم كان جميع أفراده من أعضاء هذه الجمعية. باستثناء نوري السعيد الذي كان ينتمي إلى حزب العهد العسكري توأم هذه الجمعية، فالأمير فيصل والدكتـور أحمد قـدري ورستم حيدر وعوني عبد الهادي وتحسين قدري وجميل مـردم، جميع هؤلاء من جمعيـة الفتـاة ونجد أن المؤسسـين الثلاثـة الأول لهذه الجمعيـة وهم الدكتور أحمد قدري ورستم حيـدر وعوني عبـد الهادي كـانوا أعضاء في هذا الوفد، وبانتهاء الحرب أعيد تنظيم هذه الجمعية فتشكلت لجنتها الادارية من رضـا الركـابي، ياسـين الهاشمي الـدكتور أحمـد قدري، نسيب البكـري، رفيق التميمي وتوفيق الناطور.

وعقب عـودة الأمير من أوروبـا تبـدلت هـذه اللجنـة وأصبحت تتشكـل من ياسـين الهاشمي والـدكتـور أحمـد قـدري، رفيق التميمي، سعيـد حيدر، أحمـد مريـود، عـزت دروزه وشكـري القوتلي.

وفي آذار ١٩٢٠ استقـالت هذه اللجنـة، وفي اجتمـاع عقـد في منزل علي رضا الركابي برئاسة الأمير زيد انتخبت لجنة جديدة من عـلي رضا الـركابي، نسيب البكـري، سنعيد حيـدر، خالـد الحكيم، الـدكتور أسعـد الحكيم، محمـد الشريقي (سكـرتـير) وجميل مردم (أمين صندوق). وقد انتمى لها خلال هذه الفتـرة الكثـيرون منهم الدكتـور عبد الـرحمن شهبندر، حسن الحكيم، الأمـير عادل أرسـلان، عمـر الأتـاسي، خـالـد الحكيم، أسعـد الحكيم، يوسف حيدر ورشيد طليع.

بعد انتهاء الحرب وتشكيل الحكومة في سوريا خففت الجمعية قيود القبول لعضويتها وأقرت أن تقبل كل من فيه اللياقة لاستلام عمل هام في الدولة وأصبح بذلك أكثر المتربعين في وظائف الدولة الرئيسية من أعضائها. وبالنظر لتكاثر الأعضاء تقرر أن يكونوا على قسمين، فمن دخل الجمعية قبل دخول الجيش العربي دمشق اعتبر عضواً أساسياً له الحق في الاشتراك بانتخاب الهيئة الادارية كما يحق له معرفة جميع أعضاء الجمعية. أما من انتمى إليها بعد دخوله دمشق فيعتبر عضواً عادياً. ثم رأت الجمعية أن يكون لها مظهر خارجي يعمل كحزب سياسي وأن يبقى للجمعية وضعها السري. فأسست حزب الاستقلال وأنيط أمر الاشتغال به إلى عدد من أعضاء الجمعية تحت توجيهات الهيئة الادارية.

■ حزب الاستقلال

أنشىء في دمشق سنة ١٩١٩ ليكون الاطار الخارجي لجمعية الفتاة كما ذكرنا وتشكلت هيأته الادارية الأولى من: سعيد حيدر، أسعد داغر، عزت دروزه، زكي التميمي، فوزي البكري، عبد القادر العظم، سليم عبد الرحمن، وفايز الشهابي. وكثر الذين انتموا إلى هذا الحزب. وكانت جريدة المفيد ناطقة باسم هذا الحزب.

■ حزب العهد

هو الحزب نفسه الذي تشكل قبل الحرب وهو حزب تشكل في الأصل من الضباط العرب. وقد أسسه عزيز المصري في الآستانة وعقب تشكيل الحكومة في دمشق اجتمع أعضاؤه القدماء من عراقيين وسوريين سواء من اشترك منهم بالثورة العربية أو لم يشترك وتذاكروا بأمر استئناف نشاطهم بعد أن

شعروا بنوايا الحلفاء السيئة نحو العرب وقرروا أن ينقسم الحزب إلى حزبين، سوري وعراقي، فيعمل كل منهما لخدمة قضية بلده مستقلاً عن الآخر على أن يستمرا فيما بينهما بالتعاون، وهكذا بدأ النشاط الاقليمي. واشترك عدد من غير العسكريين في أعمال الحزب. وهذه أسماء الهيئة الادارية المنتخبة للقسم السوري: حسني البرازي، محمد اسماعيل، لطفي الرفاعي، عارف التوأم، رشيد بقدونس، الأمير فؤاد الشهابي وحسن الحكيم. وكانت جريدة الكنانة لسان حال هذا الحزب.

■ حزب الاتحاد السوري

خلال الثورة العربية كان بعض السوريين ممن كانوا في مصر قد عاضدوا الشريف حسين في ثورته ولكن انفض بعضهم من حوله لأسباب منها تشدده وصلابته في آرائه وعدم ميله للأخذ برأي غيره من ذوي الرأي وبعد افتضاح أمر معاهدة سايكس ـ بيكو وبعد أن تبين لهم أن الحلفاء مصممون على ترك الحجاز للحسين وعدم الافساح في المجال له للتدخل في شؤون غيرها، كونوا لأنفسهم تياراً لأجل انقاذ سوريا دون أن يكون لهم ارتباط بحكومة مكة. وبدأ هؤلاء عملهم خلال الحرب في سنة ١٩١٨ واختاروا منهم لجنة هي: رفيق العظم، الدكتور عبد الرحمن شهبندر، فوزي البكري، الشيخ كامل القصاب، خالد الحكيم، مختار الصلح، وحسن حماده.

وفي أوائل سنة ١٩١٨ قدّم أعضاء اللجنة إلى اللورد ملز وزير الدفاع البريطاني مذكرة بينوا فيها مخاوفهم على مستقبل البلاد العربية واستقلالها وسألوا اللورد عن نوايا بريطانيا نحو تأمين استقلال البلاد ومساعدتها كما بينوا له أنهم يطلبون الاستقلال بموجب حكم لامركزي وأنهم يعتمدون على مؤازرة

ومساعدة بريطانيا ويثقون بتقاليدها التي تقضي بسلامة البلاد العربية-ويذكرون اللورد بتصريحات حكومته بضمان سلامة واستقلال الأراضي التركية حليفة عدوتهم المانيا وإغفالهم في هذا الضمان لأراضي العرب حلفائهم. ويذكرونه بأن سوريا هي أساس الثورة القائمة في الحجاز ولها اليد الطولى في قيامها.

وفي ٢٢ حزيران ١٩١٨ بلغتهم الحكومة البريطانية الجواب الرسمي على مذكرتهم الصادرة من وزارة الخارجية البريطانية واننا نثبت نصها الحرفي لأهميتها بحيث تعتبر من الوثائق المهمة التي خالفتها بريطانيا.

١ ـ ان حكومة جلالة الملك ترغب في أن تكون عامة الشعوب التي تتكلم اللغة العربية منقذة من السلطة التركية وأن تعيش فيما بعد وعليها الحكومة التي ترغب فيها.

٢ ـ ان بعض البلاد العربية إما كانت تتمتع باستقلالها التام منذ مدة أو حصلت عليه الآن وهو استقلال اعترفت به انكلترا اعترافاً تاماً وهذا يكون شأنها أيضاً مع البلاد التي تحصل على استقلالها من الآن وحتى نهاية الحرب.

٣ ـ ان سائر البلاد العربية هي الآن إما خاضعة للترك أو تحتلها جيوش الحلفاء فحكومة جلالة الملك تأمل ولها الثقة أن شعوب هذه البلاد تحصل أيضاً على حريتها واستقلالها وأن يتخذ بشأنها عند انتهاء الحرب قرار يتفق مع رغباتها.

٤ ـ ان حكومة جلالة الملك تعتقد أن العوائق والصعوبات المقدرة التي تقف في سبيل احياء هذه الشعوب سينقلب عليها تقلباً ناجحاً. وهي تعمد بكل مساعدة لمن يسعى في إزالتها ومستعدة لأن تنظر في أي خطة لعمل مشترك

يتلاءم مع الحركات العسكرية الحاضرة ويتفق مع المبادىء الأساسية لبريطانيا وحلفائها.

بعد الحصول على هذه الوثيقة الرسمية التي سميت (العهد البريطاني للسوريين السبعة) اجتمع عدد كبير من السوريين في مصر فتذاكروا في شؤون البلاد ومستقبلها السياسي وانتهوا إلى تشكيل حزب الاتحاد السوري على أساس المبادىء الأربعة الآتية:

١ ـ تتكوّن وحدة سوريا القومية من جبال طوروس شمالاً والخابور فالفرات شرقاً والصحراء العربية فمدائن صالح جنوباً والبحر الأحمر فخط العقبة ورفح فالبحر المتوسط غرباً.

٢ ـ تكون سوريا مستقلة استقلالاً تاماً تضمنه جمعية الأمم وتضمن قانونه الأساسي ضماناً لا يخل بهذا الاستقلال.

٣ ـ يكون الحكم فيها على مبدأ الديمقراطية اللامركزية ويكون أساس قوانينها وأحكامها مدنياً بحتاً ما عدا أحكام الأحوال الشخصية فإنها تبقى على ما هي عليه.

٤ ـ يكون قانون حكومتها الأساسي ضامناً حقوق الأقليات.

واختير السادة الآتون للجنة الادارية وهم: للرئاسة ميشيل لطف الله، للسكرتيرية رشيد رضا والدكتور عبد الرحمن شهبندر وسليم سركيس أعضاء كما انضم إليهم رفيق العظم والشيخ كامل القصاب، وخالد الحكيم ووهبه عيسى. وهذا الحزب كان أول من احتج على تقسيم سوريا إلى مناطق بعد الحرب وأول حزب طلب الاستفتاء في تقرير المصير، ولما حضرت لجنة الاستفتاء الأميركية إلى سوريا حضر رئيسه وبعض أعضاء لجنته إلى سوريا حيث انضموا إلى العاملين وأنشىء

لهذا الحزب فرع في دمشق برئاسة الدكتور عبد الرحمن شهبندر وكانت جريدة الدفاع لسان حال هذا الحزب.

الحزب الوطني السوري

نشأ هذا الحزب في ٢٥ كانون الثاني ١٩٢٠ أي قبل موقعة ميسلون بستة شهور على المبادىء الآتية:

١ ـ السعي إلى استقلال سوريا السياسي التام بحدودها الطبيعية والمطالبة بذلك والدفاع عنه بكل الوسائل الفعالة.

٢ ـ تقوية الصلات القومية والأدبية والاقتصادية بين الشعوب العربية عامة والبلاد السورية خصوصاً والسعي لتقوية الفكرة العلمية في الأمة العربية لتنهض إلى مستوى الأمم الراقية.

٣ ـ التساوي في الحقوق المدنية والسياسية بين جميع أبناء الوطن السوري على اختلاف المذاهب والعناصر.

٤ ـ تأييد المبدأ الملكي الديمقراطي بتأليف حكومة ملكية نيابية تكون من الشعب ومسؤولة أمام الشعب يرأسها سمو الأمير فيصل باسم ملك سوريا ويمثلها تمثيلاً سياسياً كما هو الحال في الحكومات الملكية المقيدة.

٥ ـ صيانة الحق القانوني في جميع أوضاع الحكومة والأمة والسعي لتحسين حالة النظام الاجتماعي في سوريا بتأسيس صناديق للتعاون الاقتصادي والخيري وتنشيط النقابات الزراعية والتجارية وجمعيات العمال.

٦ ـ مؤازرة سمو الأمير في ما يطلبه لمصلحة البلاد واستقلالها وتشويق الأهلين الاقبال على التجنيد وما يلزم من

التكليف حتى يتسنى الدفاع عن الوطن وتوطيد الأمن في ربوعه والظهور بمظهر الحكومات المنظمة الراقية الخ.

وكان للحزب لجنتان إدارية تتألف من ١٦ عضواً واستشارية وتتألف من ٢٥ عضواً معظمهم من وجهاء وأعيان دمشق وغيرهم من الأحرار ومن بعض الأشراف الحجازيين وتولى سكرتيريته محمد الشريقي وكانت جريدة الأردن لسان حاله.

■ الجمعية العربية الفلسطينية

كانت دمشق كما ذكرنا مركزاً للحركة العربية وقد أمَّها الكثير من الفلسطينيين ممن ساهم في المجهود العربي وكان لهم صوت مسموع في الأوساط الحكومية وجهود في التنظيمات الحزبية، وكان الكثير من رجالها يشغلون مناصب رفيعة في دوائر الحكومة والأحزاب. وقد أسسوا في حزيران سنة ١٩٢٠. جمعية باسم الجمعية العربية الفلسطينية من مبادئها جمع كلمة الفلسطينيين وتوحيد غاياتهم، تعمل لمقاومة الهجرة الصهيونية وإدخال فلسطين ضمن الوحدة السورية. وانتخب لها هيئة ادارية من: ابراهيم القاسم عبد الهادي، الحاج أمين الحسيني، سليم عبد الرحمن، معين الماضي، عزت دروزه وعارف العارف.

■ الحزب السوري المعتدل

نشأ في مصر في هذه الآونة حزب سياسي باسم الحزب السوري المعتدل للعمل في توحيد سوريا في ظل الانتداب الأميركي، وقد ضم شخصيات كبيرة من السوريين منهم الدكتور فارس نمر صاحب جريدة المقطم، الدكتور يعقوب صروف، ميشيل أيوب باشا، سعيد شقير باشا، انطون مشاقه باشا، خليل خياط باشا، سليمان نصيف، نسيم ميبعة، أمين مشاقة، نقولا دياب،

سليم حداد والياس عيساوي وغيرهم. وعندما وصلت لجنة الاستفتاء الأميركية إلى دمشق أرسل هذا الحزب وفداً منه قابل رئيس اللجنة مستر كراين وقدم له مطالب الحزب التي تتفق مع مطالب سائر الهيئات والأحزاب مبيناً فيها أيضاً أن يكون استقلال سوريا الموحدة التام بقرار من مؤتمر الحلفاء، ويوكل لأميركا الانتداب على هذا الاستقلال.

■ النادي العربي

وتشكل في دمشق نادٍ باسم النادي العربي له فروع في كل من حلب وحمص ومدن أخرى بالاسم نفسه تستمد منه الأوامر والتعليمات وكان هذا النادي مركزاً للحركة الوطنية السياسية ومحلاً لعقد الاجتماعات والحفلات الوطنية العمومية وتجتمع فيه جهود ونشاطات جميع الجمعيات والأحزاب على اختلافها وكانت تتمثل فيه جميع مظاهر ونشاط الروح الوطنية واذكاء ونشر الفكرة الاستقلالية لجميع نواحي البلاد في الجنوب أو الساحل.

٨

من حرب إلى حرب

ما كاد يمر شهر على وقوع الهدنة وتشكيل الحكم العربي في سوريا الداخلية برئاسة الأمير فيصل الذي اعتبر أحد قادة الحلفاء المنتصرين حتى تحول فيصل إلى مندوب سياسي عربي أوكل إليه والده أمر تمثيل العرب والدفاع عن حقوقهم في المؤتمر الدولي المجتمع في باريس، ويذهب فيصل إلى الغرب ليقوم بهذه المهمة الصعبة التي عهد إليه بها. ويقوم مقامه في إدارة شؤون هذه الدولة الحديثة أخوه الأصغر الأمير زيد الذي كان شاباً لا يتجاوز العشرين من عمره لم يسبق له الاضطلاع بالأمور السياسية.

وكانت مهمة فيصل في الغرب وهو يُقارع دسائس ومناورات أعظم وأقوى وأدهى دولتين استعماريتين عريقتين بالاستعمار صعبة جداً، وكانت مهمة الأمير زيد في ادارة شؤون هذا الحكم الذي بني على انقاض الحكم التركي المهترىء أصعب منه، لقد بدأت الصعوبات تعترض طريق هذا الحكم منذ أيامه الأولى. فالشعب الذي خرج من الحرب وهو منهوك القوى كان لا يزال غير واعٍ ولم يهضم الفكرة القومية، عرضة للتأثر بمختلف الأفكار، يتحمس بسرعة ويخبت بسرعة، فإذا تحمس لا يجد أمامه القيادة الحكيمة التي توجهه إلى طريق العقل، وإذا تخاذل يجد نفسه دون قيادة فيمشي وحيداً على طريق الفوضى،

والفرنسيون الذين كانوا يتهيأون منذ مئات السنين لاستعمار هذا القطر كانوا يعرفون عنه كل شيء، وقد أسسوا لأنفسهم في داخله جيوباً ينفذون منها إلى زرع التفرقة والإفساد وشراء الضمائر. يخلقون المشاكل ويضعون إصبعهم في كل خرق ليوسعوه ويصلوا منه إلى مشكلة جديدة.

دخل الجيش العربي سوريا ورفع العلم العربي عليها وتشكل حكم وطني في داخلها وسواحلها وملأ الفرح والأمل نفوس الشعب، ولكن هذه الفرحة لم تدم أكثر من أيام، حيث أنزل العلم من جميع مدن السواحل واستلمت فرنسا إداراتها المحلية، ومنذ ذلك الوقت بدأت المشاكل تتلاحق وتتنوع وتتوسع انتفاضات وطنية وعصيان وثورات ضد الاحتلال الفرنسي لا تكاد تهدأ في ناحية حتى تندلع في ناحية أخرى وبقيت مستمرة متلاحقة مدة ٢٨ عاماً لم تنطفىء إلا بمغادرة آخر جندي فرنسي للبلاد.

■ خطاب المسيو بيشون

وبينما كانت الأمور متوترة على هذه الصورة، والشعب متشكك وغير مطمئن إلى مستقبل بلاده، ألقى وزير خارجية فرنسا المسيو بيشون بتاريخ ١٩ كانون الأول ١٩١٨ في مجلس النواب الفرنسي خطاباً جاء فيه:

ان لفرنسا في سوريا وفلسطين ولبنان حقوقاً ومصالح لا تقبل الاعتراض يجب علينا صيانتها نظراً إلى أنها مؤسسة على أسس التقاليد التاريخية والاتفاقات المتقابلة وعلى رغائب الأهلين منذ أمد طويل. فنحن مضطرون إلى تأييد تلك الرغائب. غير أننا نلاحظ أن الاتفاقات المعقودة بيننا وبين الانكليز سوف تربط كلا الطرفين بروابط قوية تؤيد حقوقنا ومنافعنا القديمة.

ولما عرف فحوى هذا الخطاب في سوريا قامت الهيئات الوطنية فأمطرت وابلاً من برقيات الاحتجاج إلى سائر الحكومات والهيئات الدولية. وفي ٢٠ شباط ١٩١٩ قامت في دمشق مظاهرات كبيرة تؤيد تلك الاحتجاجات وكانت الجماهير تهتف بنداءات معادية للاستعمار الفرنسي وكانت هذه هي أولى المظاهرات الوطنية التي عرفتها البلاد.

■ مقاومة الاحتلال

كانت حادثة خطاب المسيو بيشون البداية لجميع الانتفاضات والثورات التي اندلعت في جميع أنحاء سوريا داخلاً وساحلاً لمقاومة الاحتلال الفرنسي لأن هذا الخطاب كان الجهر الواضح بنوايا الفرنسيين.

وفيما يلي بيان أسماء هذه الثورات التي قامت قبل وبعد موقعة ميسلون.

١ ـ ثورة انطاكية في كانون الأول (١٩١٨).

٢ ـ ثوزة دير الزور كانون الأول (١٩١٨).

٣ ـ ثورة جبل عامل كانون الأول (١٩١٨).

٤ ـ ثورة جبل صهيون كانون الثاني (١٩١٩).

٥ ـ ثورة جبل العلويين شباط (١٩١٩).

٦ ـ ثورة الشوف آب (١٩١٩).

٧ ـ عصابات البقاع بدأت في أيلول (١٩١٩).

٨ ـ ثورة الفاعور تشرين الأول (١٩١٩).

٩ ـ اضطرابات الحولة تشرين الأول (١٩١٩).

١٠ ـ ثورة تل كلخ كانون الأول (١٩١٩).

وبعد موقعة ميسلون واحتلال الفرنسيين سوريا الداخلية لم تهدأ الاضطرابات ولا انقطعت الثورات حتى تم جلاؤهم عن البلاد. وفيما يلي الثورات التي قامت بعد موقعة ميسلون:

١ ـ ثورة الفرات والجزيرة أيلول (١٩٢٠).
٢ ـ ثورة حوران عقب موقعة ميسلون أيلول (١٩٢٠).
٣ ـ استمرار ثورة جبل العلويين سنة ١٩١٩ ـ ١٩٢١.
٤ ـ استمرار ثورتي الشمال (هنانو) ١٩٢٠ ـ ١٩٢١.
٥ ـ ثورة عشيرة الموالي مايس (١٩٢١).
٦ ـ ثورة الفرات والجزيرة أيلول (١٩٢١).
٧ ـ ثورة بادية تدمر حزيران (١٩٢٢).
٨ ـ ثورة سلطان الأطرش الأولى تموز (١٩٢٢).
٩ ـ ثورة جبل العرب تموز (١٩٢٥).
١٠ ـ ثورة حماه تشرين الأول (١٩٢٥).
١١ ـ ثورة الغوطة تشرين الأول (١٩٢٥).
١٢ ـ ثورة حمص بدأت حوادثها في ١٩٢١ إلى أن اختلطت بثورة الغوطة سنة ١٩٢٥.

٩

خلال غياب فيصل

■ حادثة الأرمن في حلب

عقب وقوع الهدنة وانسحاب الأتراك من سوريا وكليكيا واستلام الجيش الفرنسي أمر ادارة كليكيا ولبنان كان ضمن الجيش الفرنسي متطوعة من اللبنانيين والأرمن وقد وضع الفرنسيون هؤلاء المتطوعة ضمن قطعاتهم المحتلة، اللبنانيون في لبنان والأرمن في كليكيا. كان يسكن في كليكيا قبل الحرب عدد كبير من الأرمن وكان لهم فيها قرى كاملة وكثرة فائقة في بعض مدنها وأكثر المذابح التي قام بها الأتراك أثناء الحرب كانت في كليكيا وقد أتت على القسم الأعظم منهم ولم يصل منهم إلى سوريا إلا كل ذي عمر طويل، وهكذا خلت جميع كليكيا من الأرمن. وبانتهاء الحرب جاء هؤلاء المتطوعة وأكثرهم ممن ساعده الحظ، وتمكن من الوصول إلى الأسطول الفرنسي الذي كان يعمل في النقاط القريبة من الساحل. نقول إن هؤلاء المتطوعة عندما عادوا إلى هذه المنطقة وقد أصبحوا من مرتبات الجيش المحتل، وكانت النقمة والكراهية تشتعل في قلوبهم، وحب الانتقام يغلو في أفئدتهم، ولم يكونوا قد تفهموا شيئاً عما كان يدور بين الترك والعرب ولا عما فعله الأتراك بشعبنا وأننا كنا وإياهم سواسية في تعرضنا

لمظالم الأتراك، ولذلك، وبتأثير استمرار تفكيرهم القديم المبني على التعصب الديني الذي كان الأجانب يغذونه فيهم لإثارتهم ضد الأتراك ومقابلة الأتراك لهم بمثله من التعصب، بتأثير كل هذا ابتدأ هؤلاء المتطوعة وبتحريض من الفرنسيين الذين كان من سياستهم التقليدية في هذه البلاد تنمية التعصب الديني والكراهية بين المسيحيين والمسلمين. وهكذا بدأوا منذ وصولهم إلى كيليا بالتعرض لكل مسلم بالقتل والسلب والأذى وشكلوا منهم عصابات مسلحة لتعترض السُبُل وتعتدي على العائدين من تركيا من العرب، مدنيين وعسكريين. وبسبب مركزي كمرافق لأمير حلب كنت على علم بجميع الأخبار التي كانت تصل عن هذه الأمور. وكانت هذه الأخبار تتسرب بطبيعة الحال إلى الشعب عن طريق العائدين من تركيا، الأمر الذي سبب النقمة على الأرمن، خصوصاً وأن العرب خلال الحرب بالرغم مما كانوا فيه من ضيق وسوء حال قاموا بتقديم كل ما في وسعهم من المساعدات إلى الأرمن المنكوبين، وكان للعرب فضل انقاذ من نجوا من المذابح التركية. فكان لهذا التصرف السيىء من قبل الأرمن وقع أليم في قلوب العرب. وباستمرار تعدياتهم وبتزايد استياء العرب وقع في حلب في ٢٨ شباط ١٩١٩ حادث ابتدأ في سوق الجمعة ثم انتشر في باقي الأحياء، إذ قام بعض الأهالي ضد الأرمن واشترك فيها بعض الجنود من لواء الفتح فقتل من جراء ذلك ٤٣ أرمنياً وجرح ٧٥. فتدخلت السلطات العربية والانكليزية فوطدوا الأمن، وقد كنت أثناء ذلك مع الشريف ناصر في دمشق وأرسل رئيس مرافقي الأمير نوري السعيد على وجه السرعة إلى حلب وتألف مجلس عسكري مختلط من رئيس انكليزي (الكولونيل جيد) وعضو فرنسي وعضوين من الأرمن وثلاثة أعضاء من العرب. وأوقف عدد من الأهالي وعدد من جنود لواء الفتح وحكم نتيجة المحاكمة على

بعض الجنود بالموت ونفذ فيهم الحكم وعلى البعض الآخر بالسجن وانتهت هذه الحادثة المؤلمة.

واستفاد الفرنسيون من هذه الحادثة وجعلوها وسيلة للحط من كرامة العرب وبث الدعايات ضدهم في أوروبا لإثبات دعواهم بعدم صلاح العرب للحكم.

أما الأرمن فقد انتبه عقلاؤهم لسوء ما فعله بعضهم بحق العرب وسعوا جهدهم لإقناع عامتهم بأن العرب غير الترك موضحين لهم ما قام به العرب تجاههم أثناء محنتهم. وقد زار بطريرك الأرمن الأمير فيصل معترفاً له بالجميل، ولكن كل ذلك لم يؤثر في الرأي العام الأرمني وبقي قسم كبير من شبابهم متطوعاً في الجيش الفرنسي يتغلب عليهم شعور الكراهية والحقد على كل مسلم ولم يبدلوا من أفكارهم تماماً إلا بعد أن جلا الفرنسيون عن كليكيا وسلموها للأتراك وسلموا معها الأرمن الذين عادوا إلى بلادهم وقراهم فاضطروا إلى الهجرة من جديدة بدافع الخوف من أن يكونوا عرضة لمذابح أخرى فتركوا كل ما لهم ولم يجدوا أرضاً يلجأون إليها سوى سوريا. فأيقنوا حينئذ بالحقيقة التي كانت تقال لهم وعلموا فوق ذلك أن الفرنسيين كانوا يتظاهرون بحمايتهم والذود عنهم في زرع العداوة بينهم وبين العرب فقط لا حباً بهم. فقرر الأرمن منذ ذلك الحين أن يكونوا مخلصين لوطنهم الجديد مقدرين لأبنائه ولم يعودوا بعد ذلك أداة في يد المستعمر وأخذوا يبذلون جهدهم ليكونوا مواطنين صالحين مفيدين وأننا نجد الأرمن الآن يلقنون أولادهم تلك الدروس وسنرى أنهم في خلال الثورة السورية لم يكونوا أداة تنكيل في يد الفرنسيين كما كانت بعض الأقليات المذهبية أو العنصرية.

■ حوادث صمخ والزاوية

في أواخر كانون أول ١٩١٩ تبلغت أمراً بالحركة إلى منطقة الزاوية التابعة لقضاء القنيطرة وبقيادتي ١٢٠ خيالاً من منتسبي فوجنا (فوج الدرك الاحتياطي) بسبب نزوح أهالي قرى تلك المنطقة عن قراهم واعتصامهم في الجبال والأحراش القريبة منهم ورفضهم الرضوخ للتجنيد الإلزامي. وقد عمد بعضهم إلى مهاجمة الجيش البريطاني المرابط في موقع صمخ بالتسلل عبر الحدود الفلسطينية.

كانت التعليمات المعطاة لي تقضي بعد التفاهم مع قائممقام القنيطرة تأسيس مخافر على الحدود لمنع هذه التسللات والعمل لعودة أهالي الزاوية إلى قراهم وتأمينهم وابلاغهم بعدم أخذهم إلى الجندية بصورة اجبارية دون اعلان ذلك كي لا يفسح في المجال أمام المناطق الأخرى بطلب اعفائهم من الجندية.

اجتمعت بالقائممقام وفهمت منه تفاصيل الوضع وكان عنده أحمد مريود الذي تعرفت إليه لأول مرة وفهمت أثناء هذا الاجتماع أن هناك مشكلة ثالثة كانا يظنان أنها السبب الأساسي الذي أرسلت من أجله وهي: أن لعبد الرحمن باشا اليوسف[1] قرى كثيرة في تلك المنطقة. بعض تلك القرى اغتصبها جده من الفلاحين، لقد اختلف عبد الرحمن اليوسف مع فلاحي هذه القرى وأراد طردهم منها فاستحصل على أحكام قضائية بذلك ولم يبق سوى التنفيذ الذي أهمله القائممقام بالاتفاق مع أحمد مريود ولكن اليوسف عندما علم بحركة القوة التي معي استحصل على أمر بتنفيذ الأحكام من

(١) هو أكبر اقطاعي في سوريا كان عضواً في جمعية الاتحاد والترقي يعمل ضد الأماني العربية، ولما تأسس الحكم الوطني في سوريا مال إلى الفرنسيين وعندما استولوا على دمشق عينوه وزيراً.

قبلنا وكان ذلك بعد تحركي من دمشق ولذلك أرسل هذا الأمر لتبليغي إياه بواسطة القائممقام. فاتفقت معهما على أن أعترض على تنفيذ هذا الأمر بمثل هذه الظروف لأنه سيكون سبباً في تردي الوضع.

تقدمت إلى الزاوية. فلما علم أهل قراها بتقدمنا خافوا وظنوا أننا أتينا لقتالهم وتجنيدهم فنزح من كان باقياً منهم في القرى، ولكنني تجاهلت كل ذلك ووصلت إلى قرية الشجرة مركز الناحية وكان برفقتي مدير الناحية وهو من مشايخ الزاوية، وعلمت منه أثناء صحبتي له أنه وعشيرته ينتسبون للعائلة العمرية ولديهم حسب وشجرة قديمة لنسبتهم هذه، وهكذا اعتبرنا أقرباء فأخلص لي وصار يطلعني على حقيقة الأمر التي تتعلق بمهمتي، وهكذا تبادلنا الثقة فأفهمته أن لا شأن لي بأمر الجندية وسوف لا أجبر الأهالي عليها ولكن المصلحة تقضي برجوعهم إلى قراهم وعدم الإفساح في المجال للمشاكل وأنه ليس من المصلحة التعرض لفلسطين الآن. وبعد يومين جمع لي مشايخ جميع القرى النازحة واتفقنا معهم على أن يعودوا إلى قراهم وعلى عدم الاعتداء على الأراضي الفلسطينية. وهكذا عادوا إلى قراهم واستتب الأمن. وأثناء وجودي في الشجرة سقطت طائرة انكليزية قرب القرية، وكان بداخلها اثنان من الطيارين أحدهما برتبة مقدم برجل مبتورة فلم يصابا بأذى. وبعد أن استضفناهما ليلة أركبناهما خيلاً وسلمناهما إلى القوة الانكليزية في صمخ. بعد رجوع أهل القرى واستتباب الأمن أمرت بالعودة إلى القنيطرة. وخلال وجودي في القنيطرة حصل هجوم الفرنسيين على عمارة الأمير فاعور فاشتركت مع من معي من الخيالة بمقابلة ذلك الهجوم والتغلب على المهاجمين.

■ التجنيد الإلزامي

إن الحوادث المتتابعة التي كانت تمر بالبلاد والنشاطات بأنواعها التي كان يقوم بها الفرنسيون أوضحت بصورة لا تقبل الشك نوايا فرنسا السيئة، الأمر الذي نبه رجال البلاد إلى ما يراد بهم وأنه لا بد أن يأتي اليوم الذي سنضطر فيه لمجابهة فرنسا؛ وأن الجيش الحالي بنظام التطوع الذي يسير عليه لا يفي بالحاجة بل يجب أن توضع مسؤولية الدفاع عن البلاد على عاتق عموم الشعب. وعلى ذلك درست الحكومة نظاماً للتجنيد الإلزامي فأقره الأمير في ٢١ كانون أول سنة ١٩١٩ وكان يقضي بتجند الرجال من سن العشرين إلى سن الأربعين ومدة الخدمة ستة شهور والبدل النقدي ٣٠ جنيهاً.

وفشل تطبيق قانون التجنيد الإلزامي كما فشل من قبله قانون التطوع، فالشعب لم يقبلهما ولا أقبل عليهما بالرغبة والحماس كما كان منتظراً وفشل القانون، وسنذكر فيما يلي الأسباب التي أدت لهذا الفشل لأن في بيانه نتعرف على أمور أخرى تتعلق بالوضع العام وببعض الأمور التي كانت من جملة أسباب انهيار الحكم العربي الأول في سوريا.

١ ـ استثني من التجنيد جبل الدروز لأن للدروز سوابق في رفض التجنيد في العهد العثماني فتجنبت الحكومة فرضه على الدروز.

٢ ـ ان حوران رفضت التجنيد مطالبة باستثنائها كما استثني جيرانها الدروز. وهكذا فعلت بعض بقية المناطق المتاخمة لحوران كالزاوية التابعة للقنيطرة وبعض مدن شرقي الأردن.

٣ ـ لم يكن قد مر وقت كبير على خروج الشعب من الحرب العالمية التي كان التجنيد خلالها من أكبر عوامل الشقاء

التي سببتها الحرب. ولذلك كانت أكثرية الشعب تنفر من الجندية والتجنيد.

٤ ـ كانت الفكرة المطبوعة في ذهن الناس عن الجندية التي عرفوها في الجيش العثماني منذ القديم هي الجوع والحفاء والعري والضرب والاهانة والتعب وفرقة الأهل والعيال، لذلك كانوا يتهربون منه خصوصاً وقد كان الكثير من الرجال قد سبق لهم ممارسة الفرار في العهد العثماني بالرغم من قسوة الأتراك وأعدامهم للألوف منهم.

٥ ـ معاملة الضباط المسيئة وضرب الجنود وإهانتهم (وهم ممن نشأوا وتعلموا على ذلك الأسلوب في الجيش التركي).

٦ ـ ان جميع الأقليات الدينية والعنصرية (عدا استثناءات شخصية) كانت ضد عهد الاستقلال وتحت تأثير الدعاية والتوجيهات الفرنسية والتعصب الديني والعنصري ولم يسبق لها الخدمة في الجيش.

٧ ـ كانت الدعاية الفرنسية نشيطة وفعالة ومنظمة وكانت تجد لها مساعدين ومروجين بين الأقليات كما كانت تجد لها رواجاً بين الجهلة من الشعب دون أن يعرفوا بخفاياها.

٨ ـ كان الشعب بصورة عامة طيباً ومتحمساً يتجاوب مع الروح الاستقلالية ولكنه كان بأكثريته جاهلاً وتربيته الوطنية ناقصة لم تصل به لدرجة الشعوب بالتضحية في سبيل الصالح العام. أما الاستثناء القليل فجرفته الكثرة الساحقة.

١٠

المؤتمر السوري

ذكرنا آنفاً أن مؤتمر فرساي قرر في ٣٠ شباط ١٩١٩ فصل البلاد العربية عن تركيا والاعتراف باستقلالها ووضعها تحت إرشاد إحدى الأمم الراقية وأنه قرر في ٢١ آذار ١٩١٩ إرسال لجنة لاستفتاء سكان سوريا والتحقق من رغبتهم في نوع الحكومة التي يريدونها للقيام بهذا الارشاد وأن الأمير فيصل عاد إلى سوريا لتهيئة الأمور أمام تلك اللجنة. وفي ٣ أيار ١٩١٩ وصل فيصل إلى دمشق فزحف الشعب بأجمعه لاستقباله ولم يبق في البيوت سوى المرضى، وكنا نشاهد الخلق حتى الهامة الكتف بالكتف وكانت الأعلام العربية على مختلف أحجامها ترفرف في كل مكان وكانت الأشجار من جسر فيكتوريا على جانبي الطريق حتى قرية الهامة مزينة أغصانها بالأعلام. كل ذلك قام به الشعب من دون أن يكون للحكومة أو البلدية تدخل فيه.

وفي ٥ أيار ١٩١٩ اجتمع الأمير فيصل في بهو سراي الحكومة بوفود أهل الرأي وألقى فيهم خطاباً أبان لهم فيه الوضع العام وبلغهم عن حضور لجنة الاستفتاء وطلب إليهم أن يقدموا لها مطالبهم الوطنية بصورة موحدة وأن يكونوا صفاً واحداً. وأخيراً سألهم عما إذا كانوا يسمحون له بإدارة دفة شؤون

البلاد في سياستها الداخلية والخارجية بظروفها الحاضرة الموقتة. فكان جوابهم التأييد الكامل، واشترك في هذا التأييد جميع البطارقة وكانوا حاضرين فقال لهم: انني بعد أن نلت منكم هذا التأييد سأثابر على العمل حتى يجتمع المؤتمر العام الذي سينعقد قريباً. لقد كان الوقت ضيقاً لا يتسع لسن قانون تجري بموجبه اجراءات انتخابات لأعضاء مؤتمر يمثل سوريا أمام لجنة الاستفتاء، ولذلك تقرر اجراء الانتخابات بموجب القانون العثماني الذي كان لا يزال من جملة القوانين العثمانية المعمول بها في البلاد، فدعي الناخبون الثانويون الذين انتخبوا النواب للبرلمان العثماني إلى اختيار نواب جدد، وجرت عملية الانتخاب في سوريا الداخلية بكل سكون ونظام. وأما في الساحل السوري وفلسطين فكان اجراء الانتخابات متعذراً على هذه الصورة بسبب وجود السلطات الأجنبية كل في المنطقة التي يطمع فيها، وعلى ذلك اجتمع فيها كبار القوم وأهل النفوذ والوجاهة وانتخبوا مندوبين عنهم بموجب مضابط. فجاء نواب بيروت وطرابلس وصيدا وجبل عامل واللاذقية وفلسطين إلى دمشق ودخلوا المؤتمر ممثلين رسميين عن بلادهم.

وعقد المؤتمر أول اجتماع له في صالة النادي العربي وانتخب لرئاسته محمد فوزي العظم ولأمانة السر عزة دروزه. وفي ٧ حزيران ١٩١٩ افتتح المؤتمر رسمياً في صالة النادي العربي بخطاب ضافٍ ألقاه الأمير فيصل بسط فيه الغاية لدعوته وتكلم عن اللجنة الأميركية التي ستصل وعن مهمتها وقال إن مهمة المؤتمر تنحصر في تمثيل البلاد أمام اللجنة وعرض أمانيها، وفي سن القانون الأساسي ليكون دستور سوريا في المستقبل مع ضرورة النص فيه على حفظ حقوق الأقليات الدينية. وعقد المؤتمر خلال تلك المدة ثلاث دورات، الأولى بعد انتخابه وعند مجيء لجنة الاستفتاء، والثانية عند حدوث أزمة استبدال

الجيش الانكليزي، والثالثة قبل اعلان الاستقلال حيث بقي طيلة المدة التي أعقبت هذا الاعلان. وقد وضع المؤتمر في مادته الأخيرة مشروع القانون الأساسي المؤلف من ١٤٨ مادة.

وفيما يلي أسماء أعضاء المؤتمر مع المناطق التي يمثلونها:

■ عن دمشق

محمد فوزي العظم، عبد القادر الخطيب، فوزي البكري، فخري البارودي، أحمد القضماني، محمد المجتهد، مسلم الحسني، الياس عويشق، عبد الرحمن اليوسف، عزت الشاوي، يوسف لنيادو، الشيخ تاج الدين الحسني.

■ عن حلب

تيودور انطاكي، سعد الله الجابري، حكمت النيال، يوسف كيالي، نوري الجسر، فاتح المرعشلي. (اعزاز)، جلال القدسي (اعزاز)، ابراهيم هنانو (حارم)، محمود نديم (منبج)، فؤاد عبد الكريم (أدلب)، أحمد العياشي (أدلب)، زكي يحيى (أدلب).

■ عن حماه وحمص

خالد البرازي (حماه)، عبد الحميد البارودي (حماه)، عبد القادر الكيلاني (حماه)، هاشم الأتاسي (حمص)، وصفي الأتاسي (حمص)، مظهر رسلان (حمص)، حكمت الحراكي (المعرة).

■ مناطق أخرى

شريف الدرويش (الباب)، خليل أبو الريش (النبك)، محمود

الفاعور (القنيطرة)، سعيد حيدر (بعلبك)، محمد حيدر (بعلبك)، تامر حمادة (الهرمل)، محمود روميه (حوران)، سليمان السودي (عجلون)، سعيد الصليبي (السلط)، عبد الرحمن رشيدات (عجلون)، حسن رمضان (الزبداني)، فايز الشهابي (حاصبيا)، ناصر الزعبي (حوران)، عيسى المدانات (الكرك)، سعيد أبو ناجي (السلط).

■ عن الساحل السوري

رشيد رضا (طرابلس الشام)، توفيق البيسار (طرابلس الشام)، عثمان سلطان (طرابلس الشام)، الشيخ عبد العظيم (طرابلس الشام)، ابراهيم الخطيب (لبنان)، رياض الصلح (صيدا)، عفيف الصلح (صور)، عبد الفتاح الشريف (عكار)، سليم علي سلام (بيروت)، جميل بيهم (بيروت)، أمين بيهم (بيروت)، جورج حرفوش (بيروت)، ناجي علي أديب (جبله)، محمد خير (اللاذقية)، محمد الشريقي (اللاذقية)، منح هارون (اللاذقية)، صبحي الطويل (اللاذقية)، توفيق مفرج (الكورة)، دعاس الجرجي (حصن الأكراد)، رشيد نفاع (المتن)، مراد غلمية (مرجعيون)، رشيد طليع (لبنان).

■ عن فلسطين

سعيد الحسيني (القدس)، راغب النشاشيبي (القدس)، ابراهيم القاسم عبد الهادي (نابلس)، عزة دروزه (نابلس)، عادل زعيتر (نابلس)، أمين التميمي (نابلس)، الشيخ طاهر الطبري (طبريا)، يوسف العاقل (طبريا)، عبد الرحمن النحوي (صفد)، صلاح الدين قدوره (صفد)، الدكتور أحمد قدري (خليل الرحمن)، رفيق التميمي (خليل الرحمن)، سليم عبد الرحمن (طولكرم)، حسين الزعبي (الناصرة)، عبد الفتاح

الزعبي (عكا)، الشيخ ابراهيم العكي (عكا)، الحج أمين الحسيني (القدس)، عارف العارف (القدس)، يوسف العيسى (يافا)، معين الماضي (حيفا)، رشيد الحج ابراهيم (حيفا)، الشيخ سعيد مراد (غزة)، رشاد الشوا (غزة).

■ لجنة الاستفتاء

ذكرنا أن مجلس الأربعة وهو مجلس مؤتمر الصلح الممثل بأربع دول هي: أميركا وانكلترا وفرنسا وايطاليا قرر في ٢٠ آذار ١٩١٩ إرسال لجنة استفتاء دولية مختلطة أميركية انكليزية فرنسية لاستفتاء سكان فلسطين ولبنان وسوريا حول رغائبهم في اختيار الدولة التي تكون منتدبة عليهم وفقاً للمادة ٢٢ من دستور عصبة الأمم. فكان هذا القرار ضربة لمعاهدة سايكس ـ بيكو التي قررت سلفاً تقسيم هذه البلاد إلى مناطق نفوذ بين حكومتي انكلترا وفرنسا وقد كانتا تعلمان مقدماً أن نتيجة الاستفتاء لن تكون في صالحهما، فعدلا عن إرسال ممثليهما في تلك اللجنة فاضطر الرئيس ولسن إلى إرسال لجنة أميركية فقط طالما كان القصد منها الوقوف على رغائب السكان.

وفي يوم ١٠ حزيران ١٩١٩ وصلت اللجنة إلى يافا وبدأت عملها الرسمي بإذاعة البيان الآتي:

«ان الشعب الأميركي ليس له مطامع سياسية في أوروبا أو الشرق الأدنى بل يفضل على قدر الإمكان تجنب كل علاقة بالمشاكل الأوروبية والآسيوية والأفريقية ويرغب بإخلاص أن يسود السلام الدائم وأنه بهذه الروح يدنو من مشاكل الشرق الأدنى. لقد عيّن مجلس الأربعة لجنة دولية لدرس الحالة في المملكة التركية لعلاقاتها بالوصايات فغاية القسم الأميركي الموجود الآن هي الوقوف جهد المستطاع على أحوال السكان

والطبقات وعلاقاتهم ليكون الرئيس ولسن والشعب الأميركي على بينة من الحقائق في كل سياسة يدعى إلى السير عليها فيما يتعلق بمشاكل الشرق الأدنى، سواء كان ذلك في مؤتمر الصلح أو في جمعية الأمم. وفيما يلي أسماء أعضاء اللجنة:

المستر تشارلس كراين والمستر هنري كنغ	مندوبان
المستر البرت يساد	مستشار فني
المستر جورج منتغمري	مستشار فني
الكابتن وليم يابى	ملحق
المستر لورنس مور	مدير أعمال

وانضم إلى اللجنة في يافا الكولونيل ويلسن السكرتير العسكري للورد اللنبي كما قدمت الحكومة الانكليزية للجنة كل المساعدات وجاملوها كل المجاملة وسهلوا مهمتها. وكان من المقرر أن لا يدلي الفلسطينيون بآرائهم إلى اللجنة في فلسطين، بل يحيلوها إلى ممثليهم في المؤتمر السوري في دمشق. وقد أبلغ الموظفون الانكليز اللجنة بأن نسبة السكان المسلمين في فلسطين ٨٠٪ من مجموع السكان والجميع يطلبون الاستقلال والوحدة السورية رافضين الوصاية الفرنسية. أما المسيحيون فيشكلون ١٠٪ من مجموع السكان جميعهم يطلبون الاستقلال التام والوحدة السورية ما عدا أقلية ضئيلة جداً من الموارنة يطلبون الحماية الفرنسية. أما اليهود فهم ١٠٪ من سكان فلسطين ويطلبون وطناً قومياً لليهود في فلسطين والسماح بالهجرة وأن تكون اللغة العبرية رسمية والحماية البريطانية. وبعد أن مكثت اللجنة في فلسطين عشرة أيام غادرتها إلى لبنان. فزارت صور ومرجعيون والبترون خلال يومين ثم قصدت بيروت.

ولقد سبب وصول اللجنة نشاطاً واهتماماً شملا البلاد السورية

المبينة لرغبات سكان البلاد، الذين انتدبونـا ورفعها إلى الـوفد الأميركي المحترم من اللجنة الدولية:

١ ـ اننا نطلب الاستقلال السياسي التام الناجز للبلاد السورية التي تحدها شمالاً جبال طوروس، جنوباً رفح فالخط المار من جنوب الجوف إلى جنوب العقبة الشامية والعقبة الحجازية، وشرقاً نهر الفرات والخابور والخط الممتد شرقي أبي كمال إلى شرق الجوف وغرباً البحر المتوسط دون حماية ولا وصاية.

٢ ـ اننا نطلب أن تكون حكومة البلاد السورية ملكية مدنية نيابية تدار مقاطعاتها على طريقة اللامركزية الواسعة وتحفظ حقوق الأقليات، على أن يكون ملك هذه البلاد الأمير فيصل الذي جاهد في سبيل تحرير هذه الأمة جهاداً استحق به أن نضع تمام الثقة بشخصه وأن نجاهر بالاعتماد التام على سموه.

٣ ـ حيث ان الشعب العربي الساكن في البلاد السورية شعب لا يقل رقياً من حيث الفطرة عن سائر الشعوب الراقية. وليس هو في حالة أحط من حالات شعوب البلغار والصرب واليونان ورومانيا في بدء استقلالها فإننا نحتج على المادة ٢٢ الواردة في عهد جمعية الأمم والقاضية بإدخال بلادنا في عداد الأمم المتوسطة التي تحتاج إلى دولة منتدبة.

٤ ـ إذا لم يقبل مؤتمر الصلح هذا الاحتجاج العادل لاعتبارات لا نعلم كنهها فإننا بعد ما أعلن الرئيس ولسن أن القصد من دخوله في الحرب هو القضاء على فكرة الفتح والاستعمار، نعتبر مسألة الانتداب الواردة في عهد جمعية الأمم عبارة عن مساعدة فنية واقتصادية لا تمس استقلالنا السياسي التام. وحيث أننا لا نريد أن تقع

بمجموعها شمالها وجنوبها، داخلها وساحلها، ونشطت الدعايات ووزعت المناشير وقد أخذ الفرنسيين الجزع فحاولوا أن يفوزوا ولو بالقليل من عطف الشعب السوري في المنطقة الشرقية فأخفقوا رغم ما بذلوه من نشاط وما أنفقوه من مال. وأما في المنطقة الغربية التي كانت تحت احتلالهم فكان توفيقهم جزئياً بالرغم من كثرة إمكاناتهم ووسائلهم فيها وبعثاتهم التبشيرية التي ما زالت تدعو لهم منذ عشرات السنين. فكانت نتيجة الاستفتاء في المنطقة الغربية كالتالي: طالب قسم بلبنان كبير مستقل استقلالاً ادارياً ضمن الوحدة السورية دون حماية أو وصاية، وقسم طلب لبناناً كبيراً دون حماية فرنسية. وأما الموارنة فطلبوا لبناناً كبيراً تحت حماية فرنسا. أما الدروز فطلبوا الاستقلال مع المساعدة البريطانية وقالوا إذا كان لبنان سيكون تحت المساعدة الفرنسية فإنهم يطلبون الانفصال عنه، وقد صوت الروم والأرثوذكس والبروتستانت ضد وصاية فرنسا.

■ قرار المؤتمر المقدم إلى اللجنة

وصلت اللجنة إلى دمشق واستقبلت استقبالاً حافلاً، وفي ٣ تموز ١٩١٩ قابل رئيس المؤتمر السوري ومعه أحد عشر عضواً من مناطق سوريا المختلفة انتخبهم المؤتمر ليشتركوا معه في تلك المقابلة وسلموا اللجنة قرار المؤتمر وهذا نصه:

نحن الموقعين أدناه بإمضاءاتنا وأسمائنا أعضاء المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق والمؤلف من مندوبي جميع المناطق الثلاث الجنوبية والشرقية والغربية، الحائزين على اعتمادات سكان مقاطعاتنا وتفويضاتهم من مسلمين ومسيحيين وموسويين قد قررنا في جلستنا المنعقدة في نهار الأربعاء المصادف تاريخ ٢ تموز ١٩١٩ وضع هذه اللائحة

بلادنا في أخطار الاستعمار. وحيث اننا نعتقد أن الشعب الأميركي هو أبعد الشعوب عن فكرة الاستعمار، وأنه ليس له مطامع سياسية في بلادنا فإننا نطلب هذه المساعدة الفنية والاقتصادية من الولايات المتحدة الأميركية على أن لا تمس هذه المساعدة استقلال البلاد السياسي التام ووحدتها، وعلى أن لا يزيد أمد هذه المساعدة عن عشرين سنة.

٥ ـ إن لم تتمكن الولايات المتحدة من قبول طلبنا هذه المساعدة منها فإننا نطلب أن تكون هذه المساعدة من دولة بريطانية العظمى على أن لا تمس استقلال بلادنا السياسي التام ووحدتها وعلى أن لا يزيد أمدها عن المدة المذكورة في المادة الرابعة.

٦ ـ اننا لا نعترف بأي حق تدعيه الدولة الفرنسية في أي بقعة كانت من بلادنا السورية، ونرفض أن يكون لها مساعدة ويد في بلادنا بأي حال من الأحوال.

٧ ـ اننا نرفض مطالب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبي من البلاد السورية أي فلسطين وطناً قومياً للإسرائيليين ونرفض هجرتهم إلى أي قسم من بلادنا، لأنه ليس لهم فيها أدنى حق. ولأنهم خطر شديد جداً على شعبنا من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسي. أما سكان البلاد الأصليون من اخواننا الموسويين فلهم ما لنا وعليهم ما علينا.

٨ ـ اننا نطلب عدم فصل القسم الجنوبي من سوريا المعروف بفلسطين والمنطقة الغربية الساحلية التي من جملتها لبنان عن القطر السوري ونطلب أن تكون وحدة البلاد مصونة لا تقبل التجزئة بأي حال كان.

٩ ـ اننا نطلب الاستقلال التام للقطر العراقي المحرر ونطلب عدم ايجاد حواجز اقتصادية بين القطرين.

١٠ ـ ان القاعدة الأساسية من قواعد الرئيس ولسن التي تقضي بإلغاء المعاهدات السرية، تجعلنا نحتج على كل معاهدة تقضي بتجزئة بلادنا السورية أو كل وعد خصوصي يرمي إلى تمكين الصهيونيين في القسم الجنوبي من بلادنا. ونطلب أن تلغى تلك المعاهدات والوعود بأي حال كان.

هذا وان المبادىء الشريفة التي خرج بها الرئيس ولسن لتجعلنا واثقين كل الثقة في أن رغباتنا هذه الصادرة من أعماق القلوب ستكون هي الحكم القطعي في تقرير مصيرنا، وأن الرئيس ولسن والشعب الأميركي الحر سيكونان لنا عوناً على تحقيقها فيثبتون للملأ صدق مبادئهم السامية وغايتهم الشريفة نحو البشرية بنوع عام ونحو شعبنا العربي بنوع خاص، وأن لنا الثقة الكبرى في أن مؤتمر السلام يلاحظ أننا لم نثر على الدولة التركية التي كنا وإياها شركاء في جميع الحقوق التمثيلية والمدنية والسياسية، إلا لأنها تحاملت على حقوقنا القومية التي تحقق لنا رغائبنا بتمامها فلا تكون حقوقنا قبل الحرب أقل منها بعد الحرب بعد ما أرقناه في سبيل الحرية والاستقلال، ونطلب السماح لنا بإرسال وفد يمثلنا في مؤتمر السلام للدفاع عن حقوقنا الثابتة تحقيقاً لرغبتنا هذه والسلام».

وبعد أن أتمت اللجنة عملها في جميع أقسام سوريا توجهت من حلب إلى أضنه فاستانبول فوصلت باريس في أواسط أيلول ١٩١٩ لتقديم تقريرها، فوجدت أن الأحوال متبدلة فواصلت سفرها إلى واشنطن حيث قدمت تقريرها إلى وزارة الخارجية، وقد كان الشعب الأميركي قد خذل الرئيس ولسن كما مرّ ذكره.

■ تقرير اللجنة بعد عودتها

قضت اللجنة في أقسام سوريا الثلاثة ٤٢ يوماً وزارت ٣٦ بلداً وتلقت ١٨٣٦ عريضة، وتقدر اللجنة أن نفوس سوريا ٣,٣٤٧,٥٠٠ نسمة منهم ٢,٣٦٥,٠٠٠ مسلمون و٥٨٥,٥٠٠ مسيحيون و١٤٠ ألف دروز ١١٠ آلاف يهود و٤٥ ألف طوائف أخرى. وتقترح اللجنة في تقريرها بعد شرحها المطول للعرائض التي تلقتها وماهيتها وأحوال البلاد وآمال سكانها الخ، تقترح أن تكون غاية الدولة الوصية خدمة الشعب وأن تكون مدتها محدودة وتكفيها لتدريبها على ممارسة الحكم وإذكاء روح الوطنية وتجنبها تراكم الديون والانغماس في مشاكل الدولة الوصية وعدم استخدام سلطتها لتأييد مشاريع احتكارية وتشير بالمحافظة على وحدة سوريا حسب رغائب السواد الأعظم من أبنائها، وتقر اللجنة أن سوريا في مجموعها بلاد عربية في لغتها ومدنيتها وتقاليدها وعاداتها. ولا ترى اللجنة مسوغاً لانضمام كليكيا لسوريا لأنها بأكثريتها تركية وتقترح إعطاء لبنان الأصلي حكماً ذاتياً ضمن الوحدة السورية وأن تكون الوصاية لسوريا بأجمعها لدولة واحدة وتقول أن الأكثرية تطلب وصاية أميركا، وإذا لم تكن فانكلترا وترفض وصاية فرنسا وأنها تقترح أن تعطى الوصاية على جميع سوريا للانكليز إذا رفضت أميركا ذلك. وتقول اللجنة إنه يستحيل عليها الإشارة أن تكون سوريا كلها تحت الوصاية الفرنسية وترى أن إكراه سوريا على ذلك سيؤدي إلى حرب. إلى أن تقول: انه إذا بقيت فرنسا مصرة على التشبث بما تدعيه من حقوق في سوريا فإنه من الممكن أن تعطى لها وصاية على لبنان غير الكبير بالانفراد عن سوريا. وتقر اللجنة كذلك طلب الأكثرية الساحقة من البلاد. أن يكون فيصل ملكاً عليها وتعدد أسباب ومنافع ملكيته كما تشير بلزوم تنقيح البرامج

الصهيونية لاسيما ما يتعلق بالهجرة.

بعد أن أودع هذا التقرير وزارة الخارجية الأميركية سكت عنه وأهمل أمره وبقي مكتوماً حتى سنة ١٩٢٤ حيث نشرته صحيفة نيويورك تايمز وقدمته بمقدمة قالت فيها: «ان السر في اقناع وزارة الخارجية لعدم نشره هو ما اشتمل عليه، ولو نشر في حينه لغير مجرى الحوادث في تركيا ولربما أنقذ مليوناً من الأشخاص الذين هدرت دماؤهم ظلماً بعد الحرب. وأزاح هذا التقرير الغطاء عن مطامع الحلفاء وبين مساوىء المعاهدات السرية. وأوضح التناقض بين العهود التي قطعتها أوروبا لشعوب الشرق والخطة الاستعمارية التي سارت عليها وتنبأ مقدماً بمخططات الحركة الصهيونية وصور الاتحاد المكين بين المسلمين والمسيحيين للحصول على الاستقلال وأثبت بطلان دعاوى أوروبا».

لقد روّع الفرنسيون من نتيجة الاستفتاء وأيقنوا بوجود المصاعب دون تطبيق خططهم فدبروا حملة صحفية على انكلترا ملحين بتنفيذ العهود التي بينهم بشأن سوريا فعمل الانكليز على إرضائهم بأن أبلغوا مؤتمر الصلح أنهم لا يقبلون الانتداب على سوريا وبذلك لم يبق أمام المؤتمر من ينتدبه على سوريا سوى الفرنسيين بعد أن قرر الأميركان العودة إلى عزلتهم. وفي الوقت نفسه كان الفرنسيون في لبنان يبثون الدعايات ويمهدون الأمور لتكبير لبنان على حساب باقي الأراضي السورية لتكون البقعة اللبنانية التي يأملون أن تدخل في حمياتهم على أكثر ما يمكن أن تكون من الوسعة. وحملوا مجلس ادارة لبنان على اتخاذ قرار بالمطالبة بتوسيع حدود لبنان وقد أبلغ رسمياً إلى مؤتمر الصلح كما حمل الفرنسيون بطريك الموارنة الياس الحويك على السفر إلى باريس للمطالبة بإنشاء لبنان الكبير تحت الحماية الفرنسية.

وفي ٩ أيلول ١٩١٩ وارضاءً للفـرنسيين أيضـاً أرسلت القيادة العليا البريطانية في الشرق الأوسط الكولونيـل (ماين هـيرزاكن) ومعـه (الكابتن الفـرنسي كولـوندر) لإبـلاغ الأمير فيصـل بأن بريطانيا تعلن رفضها الانتداب على سوريا وأن الجنرال اللنبي عازم على إعادة الأمن إلى نصابه إذا حدثت قلاقل واضطرابات في المنطقـة. فأجـاب الأمير بـأنه لا يـوافق عـلى تقسيم البـلاد واستعمـارها وأن هـذه الاضطرابـات ما هي إلا بسبب خـوف الشعب عـلى مستقبله وحـريته فكـان جواب الكـولـونيـل بـأن المـارشال اللنبي سيعـاقب كل محـاولة مشروعـة كانت أو غـير مشروعـة تخل بـالأمن. وبعدمـا وصلت حالـة التوتـر إلى هـذه الـدرجة أبـرق رئيس الحكومـة البريطـانية إلى الأمـير يدعـوه للحضور إلى انكلترا لتدبير الأمـور حسب الاتجاه الجـديد عـلى أن لا يتأخر وصوله عن ١٦ أيلول ١٩١٩.

١١

فيصل في أوروبا ثانية

برقية المستر لويد جورج وصلت إلى الأمير فيصل في ساعة متأخرة من ليلة ١١ أيلول ١٩١٩، ومع ذلك فإن الأمير أسرع وتهيأ للسفر وتحرك في صباح يوم ١٢ منه بقطار خاص إلى حيفا ومنها ركب نسافة بريطانية قاصداً مرسيليا وكان في رفقته هذه المرة وفد كبير تعمد أن يكون فيه عدد كبير من رجالات لبنان المعروفين، وهذه أسماء أعضاء الوفد: المقدم محمد اسماعيل (خبير عسكري سوري)، الشاعر الشيخ فؤاد الخطيب سكرتيره للشؤون الخارجية (لبنان)، حداد باشا مدير الأمن العام (لبناني)، الدكتور أحمد قدري طبيبه الخاص (سوري)، الخوري يوسف اصطفان وهو الخطيب الماروني الذي التحق بوطنيي دمشق وكان خطيبهم المفوّه وأشهر خطباء الشرق (لبناني)، توفيق الناطور (لبناني)، جميل الألشي مرافقه العسكري (سوري)، تحسين قدري (مرافقه الخاص) (سوري)، الأمير أمين ارسلان (لبناني)، الأمير فايز الشهابي (لبناني)، والدكتور سامح الفاخوري (لبناني).

وبينما كان الأمير في طريقه كان رئيسا حكومتي انكلترا وفرنسا يتفاوضان للوصول إلى اتفاق يفاجئون به الأمير ولذلك أوعزا

إلى النسـافة التي كـانت تقله بـأن تتلكأ في الـوصول، وهكـذا تأخرت في مـالطه بعض الـوقت بحجة اصـلاحات طـارئة حيث وصلت إلى مـرسيليا في ١٨ منـه ومنها سـافر إلى بـاريس عـلى الفور. وعند وصـوله علم أن الانكليـز والفرنسيـين اتفقوا عـلى جـلاء الجيش الانكليزي عن المنطقتـين الشرقية والغـربية وعن كليكية وأن تحل مكانهم الجيوش الفرنسية أي أن تحتل فرنسا البـلاد التي اختصت بهـا في معـاهـدة سـايكس ـ بيكـو. ومن جملتها الأقضية الأربعة التي كانت تابعة للمنطقة الشرقية وهي بعلبك والبقاع وراشيا وحاصبيـا، أي أن يستثنى من الاحتلال الفـرنسي المدن الأربـع وهي: حلب، حماه، حمص ودمشق وأن تبقى ولاية الموصل تابعة للعراق. وأعلن ذلك ببلاغ رسمي نشر قبل وصول الأمير بيوم واحد وأبلغ مؤتمر الصلح بذلك على أنه تدبير مؤقت.

لقـد نالت انكلتـرا من فرنسـا مقابـل جلاء جنـودها عن هـذه التخـوم: اعطاء المـوصل للعـراق وسلخها عن سـوريـا وعـدم منازعتها في تقرير مصير فلسطين وتركها لانكلتـرا بعد أن كـان مقرراً أن تكون دولية وعدم الاعتـراض أن يكون العـراق تحت الانتداب البريطـاني وسلخ مقـاطعة شرقي الأردن عن المنطقـة الشرقية وابقائها تحت الاحتلال البريطاني.

وبارح الأمير بـاريس متوجهـاً إلى لندن فـوصلها في ١٩ أيلـول فاستقبل استقبـالاً رسمياً ضخمـاً وأنزل ضيفـاً على الحكـومة البريطانية. وفي اليوم نفسـه قابـل اللورد اللنبي وذهبـا سويـة لمقابلة رئيس الـوزراء. فاحتـج الأمير عـلى ما وقـع ولكن لويـد جورج أفهمه بصراحة أن يتفاهم مع كليمنصو. وبقي الأمـير في لنـدن حتى ٢٢ تشرين أول اتصل خـلالهـا بـأولي الشـأن من الانكليـز وطالب بـإلحاح تطبيق وعـود الانكليـز للحسـين دون جدوى فظهر جلياً أنهم تخلوا عن العرب وعن جميع مـا أعطوه

لهم من وعود مقابل الموصل وبترولها وفلسطين وشرقي الأردن، ولما تأكد فيصل من موقفهم هذا أوعز إلى مندوبي العرب في مؤتمر الصلح بمراجعة الوفد الأميركي بطلب تدخلهم لعدم قبول الاتفاق ولكن الأميركان لم يفعلوا شيئاً. وطلب الأمير تشكيل الحكومة السورية الداخلية بما فيها الموصل وهذا لا يتعارض مع معاهدة سايكس ـ بيكو ولكن هذا أيضاً لم يفد لأن القوم تجاوزوا هذه المعاهدة فجعلوا البلاد العربية سلعة بين أيديهم يتبادلونها وفق مصلحتهم دون أن يعيروا الأمة العربية أي اعتبار.

■ اتفاقية كليمنصو

ولم يبق أمام فيصل سوى محاولة الاتفاق على شيء مع الفرنسيين أنفسهم فغادر لندن في ٢٢ تشرين أول ١٩١٩ إلى باريس. وفي اليوم الثاني من وصوله قابل رئيس وزرائها كليمنصو مقابلة ودية لم ينتج عنها أي شيء واستمرت محادثات الأمير مدة طويلة والفرنسيون لا يحيدون عن موقفهم، وأثناء ذلك عينوا الجنرال غورو (وهو من كبار قادتهم) مندوباً سامياً وقائداً عاماً للجيش الفرنسي في الشرق. وقد صرح قبل سفره إلى بيروت أن مهمته إبدال الجنود البريطانيين بفرنسيين. وكان همّ فيصل في مفاوضاته مع كليمنصو الحيلولة دون احتلال القوة الفرنسية لداخلية سوريا. وأخيراً توصلوا لعقد اتفاق عسكري موقت من ثلاثة بنود:

١ ـ تأليف لجنة ثلاثية من فرنسي وعربي وانكليزي لحل ما يمكن أن يقع من خلافات.

٢ ـ انسحاب الجنود العرب من البقاع وإن كانت في الأصل تابعة للمنطقة الشرقية.

٣ ـ يشرف على أعمال الشرطة والدرك الموجودين في البقاع حالياً هيئة مختلطة من الضباط الفرنسيين والعرب.

وأثناء ذلك كانت الجيوش الفرنسية تتدفق على السواحل السورية. وكان الجنرال غورو بالرغم من الاتفاق العسكري المذكور يحاول احتلال البقاع. فأرسل ضابطاً مع عدة جنود لبعلبك فطردهم الأهالي فعادوا في اليوم الثاني مع جيش اشتبك مع الأهالي في معركة دامت يوماً كاملاً دخل بنهايتها الجيش الفرنسي إلى بعلبك. فاحتج فيصل على ذلك إلى كليمنصو لمخالفته للاتفاق الأخير. وفي أثناء ذلك كانت تصل الأمير أخبار مقلقة من سوريا عن اضطراب حبل الأمن في كثير من النواحي كالحولة وتل كلخ وجبل العلويين وحاصبيا وراشيا إلخ.

ومن أهم الأخبار التي أقلقت الأمير هي اعتقال الانكليز لياسين الهاشمي الذي كان رئيساً لديوان الشورى الحربي (وزير دفاع) بأن دعاه القائد الانكليزي في معسكر المزة إلى شرب الشاي وهناك اعتقل وأرسل بسيارة عسكرية إلى الرملة. وما كاد هذا الإجراء يعرف حتى قامت البلاد بأجمعها بمظاهرات محتجة تطلب إرجاع الهاشمي. وهذه المظاهرة هي أول مظاهرة أشهدها. لقد خرجت دمشق بأجمعها تنادي باسم الهاشمي. وكانت المظاهرات تخرج على طريقة ما يسمى بالعراضات فكانوا يتشكلون من جماعات كل حي أو حارة جماعة يركب أحدهم على كتف واحد آخر وبيده عصى فينشد شيئاً يناسب الموقف فيرد عليه الباقون. وهكذا يسيرون ويتجولون في الشوارع وكانت أكثرية الناس في ذلك الوقت ترتدي القنابيز والشراويل. كنت واقفاً في المرجة أتفرج على هذه الجموع فسمعت أحدهم يصيح على الجماهير: ماذا تريدون فيردون عليه: الهاشمي فالتفت أحد هؤلاء يسألني: أخي منوهاذا الهاشمي؟ أجبته وزير الدفاع اعتقله الانكليز.

ان ٩٥٪ من هذه الجموع ما كانت تعرف من هو الهاشمي ومع ذلك بقوا طيلة ذلك اليوم يصيحون حتى بحّت أصواتهم. هذا هو الشعب: يسير للخير كما يمكن أن يسير في بعض الأحيان للشر والعبرة بمن يسيّره.

كان الفرنسيون يصرون في مفاوضاتهم أن يكون لفرنسا في الحكومة السورية مستشارون ذوو سلطة لوزارات الداخلية والحربية والمالية والمعارف والعدلية والأشغال العامة، بمعنى أن تكون ادارة البلاد في أيديهم وأصر الأمير أن يكون المستشارون موظفين لدى الحكومة، وطلب الفرنسيون سلخ الأقضية الأربعة وهي: بعلبك، البقاع، حاصبيا وراشيا عن سوريا وإلحاقها بلبنان، وكذلك ضم بيروت وصيدا وصور ومرجعيون وطرابلس إلى لبنان، كما رفض استفتاء البلاد. لقد كان جميع من كانوا مع الأمير من أعضاء الوفد يشجعونه على المضي بالاتفاق مع كليمنصو عدا الدكتور أحمد قدري الذي كان يقول بعدم جواز أي تساهل معهم، وكتب بذلك إلى زملائه أعضاء الهيئة الادارية لحزب الفتاة بغية مقاومة فكرة الاتفاق. وبدأت الاجتماعات في داخلية سوريا وتوقيع المواثيق برفض كل اتفاق يحد من سيادة الأمة. ونشطت العصابات وروح المقاومة واشترك بهذا الحماس أعضاء المؤتمر السوري فطلب إلى الحكومة تقرير الخدمة الإلزامية وقدم الحاكم العسكري العام رضا الركابي استقالته لاعتقاده بعدم جدوى هذا الحماس (الذي يصعب الوقوف أمامه) بالنسبة للبون الشاسع بين قوى الطرفين، ورضا الركابي كما هو معلوم الرجل العسكري الاداري القوي. وزاد في حماس الناس انسحاب الجيش البريطاني عن دمشق في ٢٥ تشرين ثاني ١٩١٩ فطلبوا تشكيل حكومة وطنية برلمانية. فعين الأمير زيد عوضاً عن الركابي (حاكم عسكري عام) مصطفى نعمت وعيّن عوضاً عن الهاشمي

العقيد يوسف العظمة. وفي ٢١ كانون أول ١٩١٩ أقر قانون الخدمة الإلزامية لمدة ستة أشهر من سن العشرين إلى سن الأربعين كما ذكرنا ذلك.

وفي تلك الأثناء كانت مفاوضات فيصل في باريس مستمرة وأخيراً توصلوا إلى مشروع الاتفاقية التي عرفت بـ : مشروع اتفاق فيصل ـ كليمنصو وكان مما قاله كليمنصو لفيصل أثناء المفاوضات: أرجوك أن تسرع بعقد المعاهدة لأن سواي لن يتساهل معك بقدر ما أفعل. ويقصد بتساهله هو قبوله أن يدخل نص في المعاهدة يقول بالاتفاق في المستقبل على الصورة التي يمكن معها المستشارون الستة من القيام بواجباتهم عوضاً عن التصريح بها، وأننا ندرج هذه الاتفاقية هنا لما لها من الأهمية التاريخية.

■ مشروع اتفاقية كليمنصو ـ فيصل

عطفاً على التصريح الفرنسي الانكليزي في ٩ تشرين الثاني ١٩١٨ من جهة، واستناداً على المبادىء العامة لتحرير الشعوب والمعاونة الودية المعلنة من قبل مؤتمر الصلح من جهة أخرى، تؤكد حكومة الجمهورية الفرنسية اعترافها بحق الأهالي الناطقين باللغة العربية والقاطنين في الأراضي السورية من سائر المذاهب أن يتحدوا ليحكموا أنفسهم بأنفسهم بصفتهم أمة مستقلة.

يعترف صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بأن مصلحة الأهلين في سوريا الكبرى نظراً لاختلاف الكيان الاداري الناشىء عن الاضطهاد التركي والخسائر اللاحقة بالبلاد أثناء الحرب، تتطلب تحقيق وحدتهم وتنظيم كيان الأمة الاداري بالالتجاء إلى

النصائح والمعونة التي ستسجل في جمعية الأمم عندما تتـألف هذه الجمعية.

تتعهد الحكومة الفرنسية أن تمنح معونتها لسـوريا وأن تضمن استقلالها ضد كل تجاوز ضمن الحدود التي سيعترف لها بهـا مؤتمـر الصلـح. وفي تعيـين هـذه الحـدود ستبـذل الحكـومـة الفـرنسية جهـدها لنيـل جميع التعـديلات الحق من الـوجهـة الجنسية واللغوية والجغرافية.

يتعهد صاحب السمو الملكي الأمير فيصل أن يطلب من حكومة الجمهورية الفرنسية ومن هـذه الحكومـة وحدهـا المستشارين والمدربين والموظفين الفنيـين اللازمـين لتنظيم الإدارتين المـدنية والعسكرية. وسيوضع هؤلاء المستشارون والفنيون تحت امـرة الحكومة السورية التي منها يتقبلون تعيينهم وقواهم التنفيذيـة التي ستحدد باتفاق مشترك بين الحكومتين بموجب عقـد ينص على مدة مهمتهم والضمانات المتعلقة بها.

ان الحكومة الجمهـورية وصـاحب السمو الملكي الأمـير فيصل متفقـان على تطبيق نظـام دستوري في سـوريا ضـامن لحقـوق الأهلين السياسيـة ومثبت للحريـات المكتسبة سـابقاً ومطـابق لأمانيهم المتضمنة إنشاء حكومة مسؤولة أمام البرلمان وتوصلاً للتنظيم المـالي الذي هـو القـاعـدة الأسـاسيـة لإدارة الـدولـة الجـديدة يشتـرك المستشار المـالي في إعداد ميـزانية النفقـات والـواردات ويبلغ اجبـارياً جميـع التعهدات والنفقـات لمختلف الدوائر ويـراقب حصة سـوريا من الـديون العـامة العثمـانية ويكلف بـالمسائـل المتعلقة بتطبيق الشروط المـاليـة في معـاهـدة الصلح مع تركيا وسوريا.

أما مستشار الأشغال العامـة فتكون الخطـوط الحديـدية تحت اشرافه ويحترم النظام الخاص المتعلق بسكة حديد الحجاز وله

تصرف بأن يغير السير الحر الاقتصادي للخطوط الموصلة إلى دمشق لمصلحة شخص ثالث يعد لاغياً وكأنه لم يكن.

وعقب انعقاد الاتفاق الحاضر تمنح الحكومة الفرنسية معونتها لأجل تنظيم الدرك والشرطة والجيش. يعترف صاحب السمو الملكي الأمير فيصل للحكومة الفرنسية بحق الأولوية التامة بالتعهدات والقروض اللازمة لخير البلاد ما لم يتقدم وطنيون يطلبون هذه المشروعات لحسابهم على أن لا تكون أسماؤهم معارة إلى رأسماليين أجانب.

ستمثل الدولة السورية في باريس لدى الحكومة الفرنسية بمندوب سياسي مكلف بملاحظة المسائل الخارجية التي تهم الأمة السورية. وتعهد الدولة المذكورة أيضاً إلى ممثلي فرنسا السياسيين وقناصلها في الخارج بتمثيل مصالح سوريا الخارجية.

يعترف صاحب السمو الملكي الأمير فيصل باستقلال وسلامة لبنان تحت الانتداب الفرنسي. وستعين الحدود في مؤتمر الصلح ويأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار لإتمام حقوق ومصالح وأماني الأهلين.

اللغة العربية معترف بها كلغة رسمية لإدارة المدارس. أما اللغة الفرنسية فتدرس بصورة اجبارية وممتازة.

تكون دمشق العاصمة ومحل اقامة رئيس الدولة. ويختار المفوض السامي له مقراً عادياً في حلب ليكون على مقربة من كليكية وهي منطقة الحدود وتعد النقطة الطبيعية لجيوش الدفاع المتجمعة. وإذا احتاج الأمر إلى دعوة هذه الجيوش للداخل فلا يكون ذلك إلا بطلب رئيس الدولة السورية وبالاتفاق مع المفوض السامي.

يبقى هذا الاتفاق الذي يعين المبادىء العامة مكتوماً بين الفريقين حتى توقيع الاتفاق النهائي ويوضع عند رجوع صاحب السمو الملكي إلى فرنسا ويعرض في الوقت الموافق على مؤتمر الصلح.

نظم هذا الاتفاق على نسختين يوم ٦ كانون الثاني ١٩٢٠.

ولهذا الاتفاق ثلاثة ملاحق: الأول خاص بالأقليات في لبنان وقد تضمن (أن الأقليات تستفتى عند تحديد الحدود) والثاني عن حوران (جبل الدروز) ويتضمن أنه يطبق فيه نظام استقلال نوعي في داخل الدولة السورية. والثالث عن بيروت واسكندرون وقد تقرر أن تكونا مدينتين حرتين.

وكان من المتفق عليه توقيع الاتفاقية أثناء حفلة الغذاء التي ستقيمها وزارة الخارجية الفرنسية للأمير في ١٩٢٠/١/٥ ولكن أثناء ذلك وصل الدكتور ثابت نعمان طبيب الملك حسين ومعه أمر إلى الأمير فيصل يأمره فيه والده بعدم توقيع أي اتفاق يتنافى مع العهود المعطاة له من الحكومة البريطانية. وكان من تأثير هذا الكتاب ومن إلحاح الدكتور أحمد قدري أن الأمير لم يوقع الاتفاق بل اكتفى بوضع الأحرف الأولى من أسميهما مع تأجيل التوقيع لحين استشارة الشعب السوري به.

■ مجلس إدارة لبنان

لقد كان للبنان منذ العهد العثماني مجلس ادارة بمثابة (مجلس نيابي) لإدارة شؤونه، ومنذ احتلال الفرنسيين استهانوا بهذا المجلس وعاملوا أعضاءه معاملة غير لائقة، فشرع بعضهم بالإشتراك مع سعيد البستاني قائد الدرك اللبناني السابق، الذي استقال من منصبه لعدم إمكانه تحمل

غطرسة الفرنسيين، بالمفاوضات مع المعتمد العربي جميل الألشي (وقد تبين فيما بعد أنه كان عميلاً للفرنسيين خلال وجوده معتمداً عربياً في لبنان) وتم الاتفاق بينهم على المواد الآتية:

١ ـ استقلال لبنان التام.
٢ ـ حياده.
٣ ـ اعادة المسلوخ عنه من المناطق بموجب اتفاق يتم بينه وبين سوريا.
٤ ـ تنظيم العلاقات الاقتصادية بموجب اتفاقية تجرى بين سوريا ولبنان.
٥ ـ تعاون الفريقين في السعي لدى الدول لتصديق هذه البنود.

ولأجل تأمين حرية العمل بعيداً عن الضغوط قررت أكثرية المجلس الممثل الشرعي للبنان توقيع مضبطة بتاريخ ١٠ تموز سنة ١٩٢٠ والتوجه بالذات إلى ديار الغرب لملاحقة تطبيق بنودها وإبلاغ هذا القرار إلى المراجع الرسمية. وكان المجلس مشكلاً من ١٣ عضواً (أحدهم خالي) فوقع المضبطة سبعة أعضاء منهم وهم: فؤاد عبد الملك، محمود جنبلاط، سليمان كنعان، خليل عقل، سعد الله الحويك، محمد الحاج حسن والياس الشويري. وقرر هؤلاء السفر إلى باريس خلسة لرفع مطالبهم كما قرروا السفر عن طريق دمشق فحيفا ثم بحراً إلى مرسيليا ولكن السلطة كانت تعلم بأمرهم من ـ أحد جواسيسها (والمرجح أن يكون المعتمد العربي نفسه (وقد كافأه غورو فيما بعد بأن جعله رئيساً للحكومة السورية) فألقت القبض عليهم أثناء سفرهم وسجنتهم وحكمت عليهم بالنفي والغرامات.

١٢

عودة الأمير وإعلان الاستقلال

غادر الأمير وحاشيته باريس في ٦ كانون الثاني ١٩٢٠ في سفينة فرنسية ووصل إلى بيروت في ١٣ منه واستقبل وفود المهنئين في دار المعتمد العربي فحادثهم بما ينم عن رغبته في تنفيذ ما اتفق عليه مع كليمنصو وزاد أن بين رغبته باستشارة الأمة في ذلك واستصوب الجميع رأيه عدا أعضاء حزب الفتاة والعاملين معها.

ووصل الأمير بعد ذلك إلى دمشق فاستقبلته المدينة استقبالاً منقطع النظير وبأعظم مما استقبل به في المرة الأولى، وكان الأمير في مقابلته للوفود والهيئات المختلفة يدافع عن وجهة نظره بما يختص بقبول الاتفاقية. وكان الدكتور أحمد قدري (العضو الاداري في حزب الفتاة من جهة وعضو الوفد من جهة ثانية) يعارض فكرة قبول الاتفاقية ويفند أسباب معارضته للصحافيين وغيرهم، وقد تبنت جمعية الفتاة وواجهتها حزب الاستقلال معارضة الاتفاقية.

وأقام النادي العربي حفلة كبرى دعا إليها الأمير وكانت الخطابات جميعها تعارض فكرة الأمير واتفاقيته بلباقة وتطلب الاستقلال التام الناجز دون حماية أو وصاية أو انتداب، وبالدفاع عن استقلال البلاد.

واجتمع رضا الركابي بالأمير وبين له بكتاب خطي سبب استقالته التي قدمها لأخيه خلال غيابه وأنها من جراء مداخلة حزب الفتاة في شؤون الدولة وصيرورته كحكومة غير مسؤولة تأمر الحكومة المسؤولة وأن ذلك سيسبب الفوضى وضياع البلاد كما جرى مع الاتحاديين. وتشكل في هذه الآونة حزب من الطبقة الأرستقراطية في دمشق سمي (الحزب الوطني السوري) مستفيداً من البرود الذي وقع بين حزب الفتاة والأمير ليتقربوا منه دعماً لمكانتهم وكانوا فعلاً يشكلون طبقة الوجهاء والشخصيات المعروفة بمماشاة كل سلطة في سبيل تأمين نفوذهم ومصالحهم.

وفي ٢٨ كانون الثاني سافر الأمير إلى حلب للاتصال بالأهلين وكان برفقته هذه المرة الكولونيل الفرنسي تولا وقد أصبح مستشاراً له. وفي هذه الأثناء سقطت حكومة كليمنصو الذي كان يرغب بالوصول إلى اتفاق مع فيصل وجاء بعده ملران، ورغب الأمير إلى الجنرال غورو أن يساعده في تهدئة الخواطر بإظهاره عفواً عن الثوار كمقدمة لإنشاء حكومة وطنية في بيروت وتفاهم الجنرال مع الأهلين ولكنه رفض أن يعده بذلك.

وحاول الأمير لتهدئة الحالة العامة التي نجح فيها نوعاً ما أن يتفاهم مع جماعة الفتاة التي هو بالأصل منهم ولكنهم بقوا على موقفهم من اتفاقية كليمنصو فهم يعتقدون أنها صك استعماري مغلف يجب أن لا ترتبط الأمة به والخير أن يدافعوا عن استقلالهم ولو لم ينفع الدفاع من أن يسلموا بحريتهم وكرامتهم طواعية بأيديهم. علماً أن الأمير لم يتنكر لرأي الوطنيين واتفق مع الحكومة على تعزيز موقف الدفاع والتشديد في أمر التجنيد. وبعد أن مر شهر شباط بهدوء نسبي عادت الاضطرابات ضد الفرنسيين في الكثير من المناطق المتاخمة لسوريا.

ولما يئس الوطنيون السوريـون من تحقيق استقلالهم بـواسطة الحلفاء وأميركـا التي نفضت يدهـا من المشاكـل قرروا وضـع مؤتمـر الصلح أمـام الأمر الـواقع بـإعـلان استقـلال البـلاد والمناداة بفيصل ملكاً عليها وكلف الأمـير بالعـدول عن السفر إلى أوروبـا والاكتفاء بمسـاعي مندوبيـه فيها، ودعـوة المؤتمـر السوري للاجتماع ليقول كلمته في هذا الاقتراح. ومما يذكر أن الجنرال غورو حبذ هذه الفكرة مما سهـل على فيصـل قبولهـا. وكانت غايـة الفرنسيـين من هذا القبـول هي أن هذا الاعـلان يضـع حداً للتمسـك بالاتفـاقات السـابقة مـع الحسـين. أمـا الانكليز فلم يكونوا راضين عن هذا الاجراء. وفي نهـاية شبـاط تقرر صرف النظر عن سفر الأمير لأوروبا وأن تتخذ الاجـراءات بـدعوة المؤتمـر السوري والمنـاداة باستقـلال البلاد ووحـدتها وبملكية الأمير فيصل.

■ المؤتمر السوري وإعلان الاستقلال

واجتمع المؤتمر السوري بعد ظهر ٦ آذار سنة ١٩٢٠ وافتتـح الأمير المؤتمر بخطاب ألقاه سكرتيره الخاص عوني عبد الهادي وجاء فيه أنه دعا المؤتمر الذي تتمثل فيه البلاد ليقرر مصـيرها حسب وعـد مؤتمر السلم الـذي عني بتقريـر رغبـة الشعـوب بمستقبلها وذكر ما قالـه الرئيس ولسن بهـذا المعنى كما ذكـر تـأكيد فـرنسا وانكلتـرا في منشورهمـا في ٨ تشرين الثاني عن استقلال البلاد العربية، ثم ذكر بقتال العرب إلى جانب الحلفاء من أجل استقلالهم مما جعلهم أصحاب حق به. ثم قال اننا لا نطلب من أوروبـا أن تمنحنا مـا ليس لنـا، بـل نطلب منهـا أن تصدق على حقنا لنعيش مع سائر الأمم بولاء مبني على المنـافع المتقابلة. إلى أن قال إن مهمتكم خطيرة كبيرة وأوروبا تنظر الينا لتحكم علينا. إن دولتنا الجديدة التي قام أساسهـا على وطنيـة أبنائها هي في حاجة اليوم إلى تقرير شكلها ووضـع دستورهـا.

ثم قال: وأريد أن أذكركم بإخوانكم العراقيين الذين جاهدوا معكم في سبيل الوطن والواجب.

وفي اليوم التالي في ٧ آذار ١٩٢٠ عقد المؤتمر جلسته الثانية ووضع قرار اعلان استقلال سوريا بحدودها الطبيعية وأن يكون الأمير فيصل بن الحسين ملكاً عليها كما قرر أن يكون علمها العلم العربي المربع الألوان مضافاً إليه نجمة بيضاء في مثلثه الأحمر. وبقي العلم العربي الذي دون نجمة علماً للمملكة الحجازية، وفيما يلي نص القرار بعد حذف مقدمته وأسبابه الموجبة:

«نحن أعضاء هذا المؤتمر بصفتنا ممثلين للأمة السورية في جميع أنحاء القطر السوري تمثيلاً صحيحاً نتكلم بلسانها ونجهر بإرادتها رأينا وجوب الخروج من هذا الموقف الحرج. واستناداً على حقنا الطبيعي الشرعي في الحياة الحرة وعلى دماء شهدائنا المراقة، وجهادنا المرير في هذا السبيل المقدس، وعلى العهود والوعود والمبادىء السامية السالفة الذكر، وعلى ما شاهدناه كل يوم من عزم الأمة الثابت الأكيد على المطالبة بحقها ووحدتها والوصول إلى ذلك بكل الوسائل فقد أعلنا بإجماع الرأي استقلال بلادنا السورية بحدودها الطبيعية، ومنها فلسطين، استقلالاً تاماً لا شائبة فيه على الأساس النيابي، على أن تراعى أماني اللبنانيين الوطنية في كيفية ادارة مقاطعتهم لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب، بشرط أن يكون بمعزل عن كل تأثير أجنبي ورفض مزاعم الصهيونية في جعل فلسطين وطن هجرة لهم. وقد اخترنا سمو الأمير فيصل بن جلالة الملك حسين الذي واصل جهاده في سبيل تحرير البلاد وجعل الأمة ترى فيه رجلها العظيم ملكاً دستورياً على سوريا بلقب صاحب الجلالة الملك فيصل الأول. وأعلنا انتهاء الحكومة الاحتلالية العسكرية الحاضرة في المناطق الثلاث، على أن يقوم مقامها حكومة ملكية نيابية مسؤولة تجاه هذا المجلس في كل ما يتعلق بأساس استقلال البلاد التام إلى أن تتمكن الحكومة من جمع مجلسها النيابي. على أن تدار هذه البلاد على طريقة اللامركزية. ثم يذكر القرار طلبه لاستقلال القطر العراقي على أن

يكون بينهم اتحاد سياسي وفي نهايته يتمنى من الحلفاء الاعتراف بهذا القرار وسحب جنودهم من باقي المناطق السورية إلى أن يطلب من الحكومة التي ستتألف بموجب هذا القرار تنفيذه».

وفي اليوم التالي، زار الأمير وفد انتخبه المؤتمر وأبلغه القرار فشكرهم وشكر المؤتمر. وفي الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم اجتمع المؤتمر وأعضاء بلدية دمشق في دار البلدية لمبايعة الأمير. وفي الساعة الثالثة حضر الأمير وجرت مراسم المبايعة. ثم شكر الأمير الحضور بخطاب وعدهم فيه أن يقوم بكل ما يكفل استقلال البلاد وبدأ البيعة الأمير زيد فبطريرك الروم ورجال الدين وأعضاء المؤتمر فوجهاء البلاد.

يلاحظ أن ممثل بريطانيا لم يحضر هذه المراسم لأن حكومته كانت مخالفة لهذا الاجراء ووجهة نظرها أن اعلان الاستقلال يخرج الأمير عن كونه قائداً من قادة الحلفاء يحتل قسماً من بلاد العدو التي لم يكن قد عقد الصلح معها وهذا الاعلان يجعله ملكاً دون موافقة الحلفاء وغير معترف به، وهذا مما يسهل على فرنسا انتحال الحجج ليصبح لها حرية العمل العسكري. ولهذه الأسباب غضت فرنسا الطرف عن هذا الاجراء، وقد أثبتت الوقائع صحة ما كان يرمي إليه الفرنسيون، أن يتخذوه حجة للعدوان.

■ الحكم الجديد

بعد أن تم إعلان الاستقلال ومراسم البيعة عهد الملك إلى رضا الركابي بتشكيل الحكومة، وفي ٩ آذار رفع الى جلالته قائمة بأسماء وزارته، وهذه أسماء أعضائها:

رضا الركابي	للرئاسة
رضا الصلح (بيروت)	للداخلية
علاء الدين الدروبي	رئيساً لمجلس الشورى

أمير اللواء عبد الحميد القلطقجي	وكيلاً للدفاع
فارس الخوري	وكيلاً للمالية
ساطع الحصري	وكيلاً للمعارف
السيد جلال الدين	وكيلاً للعادلية
يوسف الحكيم	وكيلاً للتجارة والزراعة
سعيد الحسيني (فلسطين)	وزيراً للخارجية

وافق الملك على تشكيلها وانصرف كل منهم لتدبير شؤون وزارته. وتقدمت الوزارة في بيانها إلى المجلس وكان أهم ما فيه لهجة الاعتدال مماشاة للانكليز والفرنسيين قصد الوصول إلى غايات البلاد بهدوء. وبهذا الشكل الجديد أصبح الملك غير مسؤول، فحددت اتصالاته وأصبحت الوزارة هي المسؤولة أمام المؤتمر. وهكذا بدأت الوزارة بإحلال الهدوء وتسكين الأمور . وأبرقت للندن وباريس بالوضع الجديد راجية الاعتراف بما كان، كما أرسلت مذكرات ايضاحية إلى دول الحلفاء تبلغها قرار المؤتمر وإعلان الاستقلال ورغبتها بإنشاء صلات ودية مع الحلفاء، كما أرسل الملك فيصل رسالة إلى الرئيس ولسن بهذا المعنى.

وفي ١٨ آذار ١٩٢٠ أعلن رئيس الوزراء البريطاني في مجلس العموم البريطاني أن انكلترا وفرنسا لا تعترفان بما جاء في قرار المؤتمر السوري وخصوصاً فيما يتعلق بفلسطين والعراق. فأبرق فيصل بالرد عليه. وأما الرد الفرنسي فكان ببلاغ اذاعه، قلم المطبوعات الفرنسي في بيروت، ينفي أن يكون هذا القرار كان بموافقة فرنسا. وأرسل الملك نوري السعيد إلى لندن وباريس لكونه ممن اشتركوا في الحرب وأصبح معروفاً بلباقته وحسن تصرفه ويجيد القيام بمثل هذه المهمات السياسية وزوده بكتابين إلى كل من رئيسي انكلترا وفرنسا مبرراً فيهما الخطة التي سلكت في سوريا.

■ القرارات المتخالفة

في ٢٦ نيسان قرر مؤتمر سان ريمو أمر الانتداب على سوريا والعراق. وفي ١٠ أيار أرسل قائد جيوش الحلفاء الجنرال اللنبي برقية إلى الملك فيصل يبلغه فيها قرار المؤتمر بانتداب فرنسا على سوريا وانكلترا على العراق وفلسطين وأنه بذلك قد تم الاعتراف بسوريا والعراق دولتين مستقلتين بشرط أن تنالا المساعدة وأن الوقت قد أزف للوصول إلى خطة تأتلف مع مطالب وأماني الشعب السوري وأن بريطانيا مستعدة للاعتراف بسموكم رئيساً للحكومة السورية على أن أمر الملكية والبت فيها يعود لمؤتمر الصلح ثم يلح بدعوته للحضور إلى باريس لحضور دورة المؤتمر وبسط القضية أمامه إلخ...

وفيّ ١٣ أيار أرسل رئيس وزراء فرنسا المسيو ملران إلى فيصل بلاغاً جاء فيه:

ما كان من قرار المؤتمر بحق الأهالي الناطقين بالعربية في سوريا أن يحكموا أنفسهم بصفتهم شعوباً مستقلة وبأنه عهد إلى فرنسا بالانتداب على سوريا، وترى من واجباتها قبوله لإعطاء هؤلاء الشعوب مشورتها. فرد عليه فيصل باستياء السوريين لما ورد في بلاغه عن تقسيمهم إلى شعوب وأنهم لشعب واحد و ينزع نزعةً واحدة.

ان توتر الوضع أيقظ الأفكار في الحكومة الناشئة وجعل الوطنيين العاملين في الحقل السياسي يتحسبون من سوء نية الحلفاء وأخذوا يطالبون الحكومة السير بسياسة الحزم وإعداد البلاد لدفع العوادي. ومما زاد في توتر الحالة أن الفرنسيين اعترضوا على رفع العلم السوري الجديد على مبنى المعتمد العربي في بيروت لكونه علم حكومة لا يعترفون بها، كما أنهم اعترضوا أئمة الجوامع في الدعاء لفيصل على المنابر فأثر ذلك

في أفكار الشعب وألهب فيهم الحماس وخرجت المظاهرات احتجاجاً مطالبة بتجنيد الامكانات الدفاعية كافة، وكانت الحكومة تعمل لتهدئة الأعصاب وتعالج الأمور بتؤدة وتأنٍ، بينما كان الشباب وأكثرية العاملين مندفعين في حماسهم وعلى رأسهم الشيخ كامل القصاب الذي أصبح يتحكم بالشارع والشباب المتحمس وقد راجع الوطنيون الملك راجين منه تأييد فكرتهم وتشكيل حكومة يكون عملها الأول تأمين وسائل الدفاع.

■ حكومة الدفاع الوطني

وحدث أثناء ذلك قرار مؤتمر سان ريمو بتوزيع الانتدابات فزاد في هياج الأفكار وتوترت الأعصاب فانحاز الملك إلى المتحمسين فطلب إلى الركابي الاستقالة فقدمها وكلف هاشم الأتاسي بتشكيل الحكومة التي سميت بحكومة الدفاع الوطني. فتألفت في ٣ مايس ١٩٢٠ على الوجه التالي:

هاشم الأتاسي	للرئاسة
ساطع الحصري	للمعارف
رضا الصلح	لرئاسة مجلس الشورى
الدكتور عبد الرحمن شهبندر	للخارجية
يوسف العظمة	للحربية
فارس الخوري	للمالية
جلال الدين	للعدلية
يوسف الحكيم	للتجارة والزراعة
علاء الدين الدروبي	للداخلية
جورج رزق الله	للنافعة

وذكرت الحكومة في بيانها الذي تقدمت به للمؤتمر بتأييدها الاستقلال التام الناجز بما فيه التمثيل الخارجي والمطالبة

بوحدة سوريا بحدودها الطبيعية ورد طلب الصهاينة ورفض كل مداخلة أجنبية تمس السلطان القومي. ونالت الثقة.

لقد كان الوضع الدولي بالنسبة للعرب سيئاً جداً. فأميركا التي كانت الوحيدة في الوقوف إلى جانب قضية العرب دون أن يكون لها مآرب قد انسحبت من الميدان وأصيب رئيسها ولسن بالشلل وضعف أمام حلفائه بالأمس وسقطت وزارة كليمنصو الذي كان إلى حد ما يريد التساهل مع فيصل. وكان اعلان استقلال سوريا على الشكل الذي ذكرناه قد جعل جميع الدول المعنية تقف ضده، فالانكليز اعتبروه خطراً على مصالحهم في العراق وفلسطين ومقدمة للقضاء على مصالحهم ونفوذهم في جميع الجزيرة العربية. والفرنسيون اعتبروه ضربة ستؤدي إلى زوال نفوذهم من الشرق الأوسط وعدم إمكان استقرارهم في لبنان وضياع ما كانوا يسعون إليه منذ مئات السنين، وسيكون له أثره السيىء على مستعمراتهم العربية في شمال أفريقيا، واليهودية العالمية كانت الأكثر انزعاجاً، واعتبرت ما حصل خطراً على حلمها بتأسيس دولة في «أرض الميعاد» التي وعدوا بها. والأتراك وقد كانوا بالكاد قد استفاقوا من تأثير الضربة التي أصابتهم في الحرب فوجئوا بهذا القرار الذي يدخل في حدود سوريا جميع الأراضي التي في شمال حلب حتى جبال طوروس. وكان على رأس الحركة الانقاذية فيها مصطفى كمال باشا آخر قائد عسكري بارح سوريا على رأس فلول الجيش التركي المنهزم وهو يجرجر الخيبة والذل، وقد بقيت كراهية العرب تشتعل في قلبه حتى مماته. وجاء هذا القرار ليؤجج ضرام هذا الحقد بتقريره عروبة أراض يعتقد الأتراك أنها من صميم بلادهم. أما باقي الدول العالمية الأخرى فإنها كانت لا تزال تحت تأثير ويلات الحرب لا يهمها غير نفسها وإرضاء المنتصرين الذين كان بيدهم تقرير مقدرات العالم.

وهكذا وجدت سوريا نفسها بهذا القرار أمام عداء دولي عالمي يحيط بها من كل جانب. لقد كانت سوريا في هذا الموقف الخطير الذي تعجز عنه أعظم الدول فكيف وهي في مسيس الحاجة إلى الوسائل المادية والمعنوية للوقوف في وجه هذا العداء أو الاهمال الدوليين. هذا هو الموقف عندما تقرر اعلان الاستقلال السوري الذي كان يعتبر في حقيقته تحدياً لبريطانيا وفرنسا وتركيا واليهودية العالمية تحديداً.

ولكن هل كان بإمكان الحكومة بوضعها وموقفها المذكور أن تفعل غير ما فعلته؟ وهل كان بإمكان فيصل ومن معه من الرجال اتباع طريق آخر؟ فالقضية العربية التي نشأت وترعرعت في سوريا كانت من بدايتها وفي غاياتها وأهدافها عربية غير اقليمية وأن من عملوا لها واشتركوا في ثورتها كانوا من مختلف الأقطار العربية. وثورتها التي أعلنها الحسين قامت باسم العرب وليس باسم الحجاز وكان جيشها الذي قاتل في الأراضي الحجازية والسورية يضم العراقي والحجازي واليماني والسوري بمن فيهم الفلسطيني واللبناني، مسلمين ومسيحيين، وقد كان الجميع يعملون لاستقلال البلاد العربية والحكم الذي تشكل بعد انسحاب الأتراك كان حكماً عربياً وليس سورياً، فرئيس الدولة فيصل حجازي ووزير الداخلية لبناني ومدير الشرطة والأمن العام لبناني. وكان عدد كبير من رجالات الأقطار العربية الأخرى في الوظائف الكبيرة مدنية وعسكرية فكان الحاكم العسكري في حلب جعفر العسكري عراقي وكذلك حاكم دير الزور مولود مخلص ومرافق الأمير ومستشاره العسكري نوري السعيد عراقيين ومستشاراه السياسيان رستم حيدر وعوني عبد الهادي أولهما لبناني والثاني فلسطيني إلخ. فمن البديهي في مثل هذه الحالة أن لا تتحول سوريا عن خطتها وتبقي سائره في طريقها العربي غير

الإقليمي، ولم يكن في إمكانها إهمال مصالح الأقطار العربية الأخرى بعدما أصبحت المسؤولة والمركز الذي يتجمع فيه كل العاملين لتحرير أقطارهم من رجالات الأقطار العربية الأخرى.

■ الحركات في كليكيا

عقب اعلان الاستقلال من قبل المؤتمر السوري بمدة قصيرة بدأ الأتراك حركاتهم في كليكيا وسوريا الشمالية بقصد تحريرها من الاحتلال الفرنسي، فنشطت العصابات الأهلية التركية المنظمة بقيادة الضباط ومن ورائها الجيش النظامي الذي نظمه مصطفى كمال فاستولوا على الكثير من المواقع والقرى وتمكنوا من وضع الحصار على مدينتي كلس وعنتاب اللتين جمع الفرنسيون منهما الكثير من الأرمن الذين كانوا مشتتين. فاهتم الفرنسيون بهذا الأمر وطلبوا إلى فيصل تسهيل أمر نقل جنودهم من بيروت إلى كليكيا على سكة حديد حلب. فاعتبرت الوزارة القائمة انها فرصة يجب انتهازها للمساومة فطلبت لقاء ذلك من الفرنسيين الاعتراف ـ باستقلالها على الوجه المعلن عنه بقرار المؤتمر السوري وأن تدفع لها ما كانت تمتنع عن دفعه من حصة سوريا من جمارك بيروت وهي ١٥٠ ألف جنيه شهرياً ومثلها من جمارك فلسطين والتي كان قد عيّنها الجنرال اللنبي. فرفض غورو ذلك، وكان الحلفاء وهم غير معترفين بشكل الحكم القائم في سوريا يقومون بمخابراتهم مع فيصل بصفته السابقة قبل اعلان الاستقلال وعندما جاءه من الجنرال غورو طلب السماح بإمرار جيوشه استشار بذلك الركابي الذي كان حينذاك رئيساً للوزراء فأشار عليه بالقبول وأن ينتهز الفرصة للانضمام للفرنسيين في الدفاع عن شمال البلاد «التي نحن أولى بالدفاع عنها وربما يؤدي ذلك لتقوية حالة الصداقة والمودة بيننا وبين الفرنسيين فنستفيد من ذلك

لحل ما بيننا من مشاكل»، ولكن الملك عاد فتأثر بالآراء التي أعطيت له من قبل بعض رجالات السياسة فاشترط على غورو ما اشترط واضطر غورو لنقل جنوده عن طريق البحر إلى شمال الاسكندرون ومنها براً فطال الطريق وضاع الوقت وكانت حركات الأتراك عنيفة وشديدة، فاضطر الفرنسيون لحل الخلاف معهم سلمياً فأرسلت الحكومة الفرنسية معتمديها إلى أنقره فاتفقت مع حكومتها وتخلت فرنسا لها عن كليكيا وبعض مدن شمال سوريا. وقبل ذلك كان وزير الدفاع السوري يوسف العظمة قد سافر إلى الشمال واتصل بقادة الأتراك بغية التعاون معهم في مقاومة الاحتلال الفرنسي وكان هذا أحد الأسباب التي عجلت باتفاق الفرنسيين معهم. وهكذا تخلت فرنسا عن كليكيا وانسحبت منها بعد أن تركت فيها كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر. وهكذا أمنت لنفسها حرية العمل الكامل في سوريا.

وبعد أن سحبت فرنسا جيوشها من كليكيا بموجب اتفاقها مع تركيا بدأت بحشد جيوشها على الحدود السورية الداخلية وكان عدد جيشها قد بلغ نحو المئة ألف جندي.

وفي هذه البرهة عاد نوري السعيد من أوروبا وهو مقتنع أن سفر الملك إلى أوروبا أصبح ضرورة ملحة وأنها أكبر خدمة يؤديها للبلاد وذلك لإمكان تثبيت الوضع الراهن ولعدم الافساح في المجال ليصبح الانتداب استعماراً.

وتحت تأثير الحماس الشعبي بالدفاع والتهيؤ للحرب رأت الوزارة أن ترسل إلى أوروبا وفداً وزارياً عوضاً عن ذهاب الملك تلبية للدعوة المتكررة التي كانت توجه إليه.

١٣

الانذار الفرنسي

كانت الأحداث تتلاحق والموقف يتحرج والعلاقات بين فرنسا وسوريا تسوء يوماً بعد يوم وتجاه كل ذلك اضطر الملك لاظهار رغبته في السفر إلى أوروبا تلبية لإلحاح الانكليز عساه يتمكن من حل المشكلة وتسوية الأمور وكانت رغبته هذه رغم مخالفة الحكومة ومستشاريه ونصيحة أعضاء المؤتمر السوري. فأرسل معتمده نوري السعيد بصحبة الكولونيل تولا ليبحث مع الجنرال غورو ما ينبغي اتخاذه من عدة السفر فلم يقبل غورو طلب الملك وأعلم نوري السعيد أنه أعد انذاراً رسمياً سيرسله بعد بضعة أيام وأنه لا يسمح للملك بالسفر إلى أوروبا ما لم يقبل الشروط التي يتضمنها الانذار. وقد ذكر الجنرال لنوري السعيد أهم الشروط التي سيطلبها في هذا الانذار وهي:

١ ـ وضع سكة حديد رياق ـ حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي.

٢ ـ قبول الانتداب الفرنسي.

٣ ـ الغاء التجنيد الاجباري وتسريح المجندين.

٤ ـ قبول الأوراق النقدية التي أصدرها البنك السوري.

٥ ـ معاقبة المجرمين الذين استرسلوا بمعاداة فرنسا.

لقد كان الموقف الذي يجب أن تقفه الحكومة العربية تجاه هذا الإنذار معروفاً ومقرراً سلفاً بالنسبة للحماس العام الذي كان يملأ قلوب الناس وما يقوم به الشباب من التشويق وزرع مشاعر الاعتزاز بالحرية والاستقلال. لقد كانت الأفكار العامة ملتهبة وجارفة ولم يكن من السهل الوقوف أمامها بعد شحذها واذكائها طيلة السنتين الماضيتين دون أن تكون مركزة على أسس متينة ومهيأ لها الإمكانات العملية.

لقد أثار خبر هذا الانذار وهذه الطلبات هياجاً وقلقاً عظيمين في جميع المحافل الحكومية والشعبية. والمفروض أن الحكومة التي تشكلت على أساس الدفاع وتهيأت له كانت مستعدة لمواجهة هذا الموقف بالصلابة والحزم. وعدل الملك عن السفر وعاد نوري السعيد إلى غورو ليطلب إليه العدول عن إرسال الانذار والموافقة على تشكيل لجنة دولية تقوم بحسم الخلافات، فأبى الجنرال ذلك وقبل ارسال الانذار بيوم احتل الفرنسيون محطة سكة حديد رياق كما تقدمت مفرزة من طرابلس وعسكرت على نهر الساحور فاحتج فيصل لغورو على هذه الأعمال كما أرسل سكرتيره للعميد القنصلي بمذكرة يشرح فيها الموقف. كما أرسل برقية إلى رستم حيدر مندوب العرب في مؤتمر الصلح عن الحالة ليبلغ الأمر للمؤتمر.

■ نص الانذار

وفي ظهر يوم ١٤ تموز ١٩٢٠ حضر الكولونيل نيجر والكولونيل كوس إلى القصر الملكي وسلما الملك الانذار الفرنسي المنتظر وهذا نصه:

أتشرف باسم الحكومة الفرنسية أن أبسط لسموكم للمرة

الأخيرة الموقف الذي وضعتنا به حكومة دمشق. فمنذ ابتداء السنة الحالية سادت السكينة في سوريا ابان الاحتلال الانكليزي ولم يعكر صفو الأمن، ولم تبدأ فيها الاضطرابات إلاّ حين حل جنودنا محل الجنود البريطانيين وأخذت هذه الاضطرابات تزداد منذ ذلك الحين، على أن هذه الاضطرابات أثرت في رقي سوريا ونظامها السياسي والاداري والاقتصادي أكثر من تأثيرها على سلامة جنودها والاحتلال الفرنسي للمنطقة الغربية.

فحكومة دمشق تتحمل كل التبعة إزاء سكان سوريا الذين عهد مؤتمر الصلح إلى فرنسا أن تمتعهم بحسنات ادارة مؤسسة على الاستقلال والنظام والتساهل والثروة.

إن أماني الولاء والتعاون التي أظهرتها فرنسا لسموكم بتأييدها حقوق السكان الذين يتكلمون اللغة العربية ويقطنون في القطر السوري بحكم أنفسهم كأمة مستقلة قد أجاب عليها سموكم معترفاً بأن لسكان سوريا مصلحة كبيرة في طلب المشورة والمساعدة من دولة كبيرة لتحقيق وحدتهم وتنظيم شؤون الأمة نظراً للتضعضع الذي أصاب البلاد من الارهاق التركي والأضرار التي نتجت عن الحرب وتلك المشورة والمساعدة ستسجلها جامعة الأمم عندما تحقق بالفعل، وقد دعي سموكم الملكي إلى فرنسا للقيام بهذه المهمة باسم الأمة السورية وعندما كنتم تفاوضون الحكومة الفرنسية في شهر كانون الثاني كانت العصابات الخارجة من دمشق تجتاح المنطقة الغربية فأرسل إليّ المسيو كلمنصو البرقية الآتية:

«عندما بلغني هجوم البدو في شمال سوريا وجنوبها، قلت للأمير فيصل انني اتفقت معه مؤقتاً على بعض المبادىء وأنني أحافظ على كلامي لكن يجب أن يقابل خطتي هذه بمثل ما فيها من

اخلاص وأن يجعل سلطته محترمة من مريديه وإذا لم ينفذ هذان الشرطان تنفيذاً دقيقاً فالحكومة الفرنسية ستستأنف حريتها في العمل وتستعمل القوة لتأييد النظام واحترام الحقوق التي لها من المؤتمر».

على أن البيان الآتي يوضح جلياً كيف أن حكومة دمشق لم تنقطع عن انتهاج خطة معادية مخالفة تمام المخالفة لسياسة التعاون التي رمى إليها رئيس الوزراء وتعهدتم بتطبيقها.

١ ـ ان اصرار حكومة دمشق على رفض السماح للسلطة الفرنسية باستعمال سكة حديد رياق ـ حلب استعمالاً حراً هو عمل عدائي بحت. فالحكومة لا تجهل أن تلك السكة لا بد منها لإعاشة احدى فرقنا الفرنسية في الشمال وتمكينها من القتال. وهذه الفرقة تقاتل قوات معادية تابعة لتركيا التي انتزع الحلفاء الظافرون سوريا الجديدة منها والتي يجب أن تربطنا بها روابط المصلحة وعرفان الجميل.

ان حكومة دمشق هي التي وضعت مبدأ تنظيم العصابات واستخدامها ضد جنودنا. وهذا المبدأ قد أعلنه قائد الفرقة الثالثة في حلب صراحة يوم ١٣ نيسان بالقول الآتي:

لما كنا لا نستطيع أن نعلن الحرب رسمياً على الفرنسيين، فيجب علينا أن نحكم البلاد بالعصابات التي تجهز عليهم تدريجياً، وسيقود هذه العصابات ضباط إذا استشهد أحدهم تعيل الحكومة عائلته.

ويكفي تعداد الأدلة الآتية على دقة تنفيذ هذه الخطة.

في ١٣ كانون الأول ١٩١٩ ذبح محمود الفاعور الذي

قلتم لي يا صاحب السمو انه صديقكم الشخصي (بدر) من مسيحيي مرجعيون وهجم على جنودنا في ٤ كانون الثاني رافعاً العلم الشريفي.

في ٥ كانون ثاني تحقق وجود الجنود الشريفية بين الذين هاجموا جنودنا تحت قيادة ثريا بك في فرق خان تم في الحمام.

في حزيران ثبت وجود زعيم ورئيس وستة ملازمين و٣١٧ رجلاً من الجيش الشريفي بين العصابات التي كانت تعمل في جبهة مرجعيون. وثبت استعمال معدات مأخوذة من الجيش نفسه وهي ٤ رشاشات ثقيلة و٣ خفيفة و٥٠ صندوق ذخيرة وظهر أيضاً اشتراك محرضي المنطقة الشرقية في الاضطرابات التي امتازت بمذابح عين ابل وفتنة فرق الشيعة.

ثم ان منظمي العصابات محترمون كل الاحترام لاسيما صبحي بركات الذي لا يجهل أحد مساوئه إلينا. وعندما لم تكن العصابات ترسل من المنطقة الشرقية كانت الفتنة تثار في المنطقة الفرنسية نفسها.

وبهذه الأعمال وقعت اعتداءات عديدة على المسيحيين ولا سيما في جسر القرعون في ٢٩ كانون أول حيث تقع التبعة على الضابطين الشريفين أحمد بك وتحسين بك.

وقد أساء الشيخ صالح العلي، بطل الفوضى والبغضاء لنا، إساءة مؤثرة ومستمرة في جبال النصيرية ومن الممكن تعداد كثير من هذه الأمثلة وقد عرضناها على سموكم الملكي في حينها.

٢ ـ رأى سموكم الملكي إدخال أشخاص مشهورين بعدائهم

لفرنسا في حكومته وكان تأثير المحيط شديداً عليكم حتى أنكم لم تتمكنوا من السفر في الوقت المناسب تلبية لدعوة مؤتمر الصلح. وقد انتخبت الوزارة من أناس من تلك الفئة التي لا تقتصر خطتها على إهانة فرنسا ورفض مساعداتها بل تتناول المجلس الأعلى الذي منح فرنسا الانتداب على سوريا. ان رفض انتداب فرنسا رفضاً باتاً في ١٨ أيار الماضي هو خطة عمياء قد تجر نتائجها المصائب على سوريا.

٣ ـ ان التمنع الاقتصادي في رفض ورق النقد السوري الجديد الذي أصدره البنك السوري لحساب فرنسا ومنع جميع المعاملات التجارية والمالية مع فرع بنك سوريا في المنطقة الشرقية هو دليل جديد على عداء مضر بمصلحة البلاد أيضاً وكذلك منع نقل الحبوب إلى المنطقة الفرنسية مبتدئاً من حماه فدمشق فحلب.
ثم ان السلطة الادارية الشريفية اجتازت حدود المنطقة الشرقية وتقدمت تدريجاً داخل حدود المنطقة الغربية لتظهر انها قد توسعت توسعاً تقصد منه إحراجنا. ففي شهر آذار وضع مخفر شريفي في الخالصة ثم رفع العلم الشريفي على القدموس بعد ذلك بقليل. وفي نيسان جعلت حكومة حلب القصير قضاءً شريفياً ثم نصبت قائممقاماً شريفياً في جسر الشغور.

٤ ـ ان من كان صديقاً لفرنسا أو موالياً لها في المنطقة الشرقية يكون مشتبهاً فيه من السلطة ويعامل معاملة سيئة للغاية في أغلب الأحيان. ومن الأدلة الظاهرة على ذلك فارس غنطوس ونسيب غبريل اللذان ضمنت حكومة دمشق رسمياً رجوعهما إلى راشيا أسيئت معاملتهما ووضعا في السجن بعد رجوعهما.

وفي ٢٢ كانون ثـاني هوجم وفـد من دروز حوران جـاء للسلام علي أثناء عـودتي في وادي القرن وقتـل عدد من رجـاله ولـدينا أمثلة كثيرة على ذلك ولا سيمـا في حلب. أما من كـان عدواً لنـا فإنه يخدم في المنطقة الشرقيـة ويحمى من كل شيء ويحـل على الرحب والسعة. فقد احتفل بالدنادشة احتفـالاً كبيراً في دمشق ولم يمس أمـين مجو الـذي نسف مستودع العتـاد الحربي في بيروت، ثم ان سموكم الملكي سعى مؤخراً لرجوع كامل الأسعد الثائر المشهور إلى المنطقة الغربية. وهو قد نفي بسبب فتن بلاد الشيعـة وقسم كبير من تبعيتهـا. أما سكـان المنطقة الغـربيـة الذين أكسبهم عداؤهم لنا عطف الحكومة عليهم فعددهم عظيم أيضاً.

ان بث الدعاية ضد فرنسا في المنطقة الغربية قد ألبسته حكومة دمشق أشكالاً خبيثة أرادت السلطة الفرنسية أن تغمض عينها عنها لأنها قررت اتباع خطة التساهـل إلى النهايـة. وآخر هـذه الأعمال وأظهرها شراء القسم الأعظم من أعضاء مجلس ادارة لبنان باثنـين وأربعين ألف جنيـه مصري. وقد ألقت مخـافرنـا القبض على هؤلاء الأعضاء في ١٠ تموز بينما كانوا ذاهبـين إلى دمشق لبيع بلادهم منكرين الأماني التي أعرب عنها مواطنوهم بالاجماع تقريباً منذ عهد بعيد.

إن صحافة دمشق التي تفرط الحكومـة في شد أزرهـا تواصـل دائماً حملاتها على كل ما هو فرنسي وتقبـح السلطة المحتلـة في المنطقة الغربية وترد كل مساعـدة تعرضهـا فرنسـا وتسيء إلى مقاصدها الحسنة نحو سوريا.

بمقتضى هذه الحقوق يجب على قائد جيش الحجاز المحتل قطراً سـورياً لا بـد أن يظل عثمـانياً إلى أن يقضي تنفيـذ المعـاهـدة بتغـيره، ألا يعمل بغـير هذه الصفـة وأن يحافظ عـلى الحـالـة

الراهنة التي هو حارس عليها. ولكنه تصرف عكس ذلك متخذاً صفة السيادة العليا. وقد قرر التجنيد الاجباري ونفذه منذ شهر كانون الأول ١٩١٩ مع أن البلاد لا تزال بلاداً أجنبية، وهذا العبء الثقيل الذي لا يجدي نفعاً قد أكره الشعب عليه حتى في المناطق التي لها شكل خاص كالبقاع، ونفذ في أناس مستائين منه كاللبنانيين والمغاربة المقيمين في المنطقة الشرقية وأن مقاومة هذا التجنيد مقاومة عنيفة أدت في بعض الأحيان إلى إراقة الدماء.

ثم ان المجلس الملقب بالمؤتمر السوري الذي تألف واجتمع بصورة غير قانونية لسن القوانين وتشكيل دولة لم يعترف بوجودها، وفضلاً عن ذلك فقد قدم المنصب الملكي لسموكم الملكي دون حق ولا وكالة مما وضعكم كما عبرتم عن ذلك في موقف التمرد على مؤتمر الصلح. ولم تحترم الامتيازات الأجنبية فإن أحد رعايانا الأمير مختار الذي يمثل أسرة كبيرة اشتهرت منذ القدم باتصالها بفرنسا قد أوقف ايقافاً معيباً في حلب.

وليست الاتفاقات السياسية محترمة أيضاً فإن لواءً من الجيش الشريفي أرسل إلى مجدل عنجر رغم الاتفاق الذي تم في كانون أول الماضي مع المسيو كلمنصو والذي يقول بألّا تحل في البقاع قوة شريفية أو فرنسية.

٥ ـ لم تستطع السلطة الفرنسية حتى الآن أن تنظم البلاد التنظيم الذي تنتظره منها إذ اضطرت إلى صرف قواها وجهودها إلى قمع الفتن المتوالية ومواصلة المفاوضات السياسية العقيمة مع حكومة دمشق، فهي والحالة هذه غير مسؤولة عن هذا التأخر بل تتحمل العبء العسكري والمالي الذي تقضي به الحالة التي أوجدتها حكومة

دمشق، ولا يمكن إلاّ أن تؤثر التكاليف في الميزانية السورية سواء بفقد الداخل الذي ينشأ عن استمرار الفوضى أو بالاشتراك في نفقات السيادة التي تلحق بها في المستقبل. على أن حالة الفوضى التي أوجدها مثيرو الفتن في البلاد وقد بلغت حداً كبيراً دعت إلى استحضار قوات كبيرة أعظم عدداً مما يدعو إليه استبدال الجنود الانكليز إبان السكينة. فهذه الأسباب تدل دلالة كافية على أنه لا يمكن بعد الآن أن نعتمد على حكومة جاهرت فرنسا العداء كل المجاهرة وأخطأت نحو بلادها خطأً عظيماً بظهورها عاجزة عن تنظيمها وادارتها لذلك ترى فرنسا أنها مضطرة لأخذ الضمانات التي تكفل سلامة جنودها وسلامة السكان في البلاد التي نالت من مؤتمر السلام مهمة الوكالة عليها. لذلك أتشرف بأن أبلغ سموكم الملكي أن هذه الضمانات هي:

١ ـ التصرف بسكة حديد رياق ـ حلب الحديدية لإجراء جميع النقليات التي تأمر بها السلطة الفرنسية ويؤمن هذا التصرف أن يراقب مفوضون عسكريون فرنسيون جميع ما ينقل في محطات رياق بعلبك وحمص وحماه وحلب، قوة مسلحة مخصصة للمحافظة على المحطة واحتلال مدينة حلب التي هي نقطة مواصلات هامة لا يسعنا أن نتركها تسقط في يد الترك.

٢ ـ إلغاء التجنيد الاجباري، إذ يجب أن يقف التجنيد تماماً وأن تسرح القوى حتى يبلغ الجيش الشريفي العدد الذي كان عليه بتاريخ ١ كانون أول المنصرم.

٣ ـ قبول الانتداب الفرنسي لأن هذا الانتداب يحترم استقلال أهل سوريا ولا يناقض مبدأ الحكم بسلطة سوريا تستمد

قوتها من إرادة الشعب ولا ينطوي إلّا على معاونة بشكل مساعدة وتعاون من الدولة المنتدبة دون أن يتخذ شكل استعمار أو إلحاق أو إدارة تنفذ رأساً.

٤ ـ قبول الورق السوري لتصبح هذه العملة وطنية في المنطقة الشرقية فتلغى جميع الأحكام المتعلقة بالبنك السوري في المنطقة الشرقية.

٥ ـ تأديب المجرمين الذين كانوا أشد أعداء فرنسا.

إن هذه الشروط تقدم جملة ويجب قبولها جملة أيضاً بلا أدنى فرق خلال أربعة أيام تبدأ من منتصف ليل ١٥ تموز وتنتهي في ١٨ منه في الساعة ١٢.

فإذا جاءني علم من سموكم قبل انتهاء هذا الموعد بقبول هذه الشروط فيجب أن تكون قد صدرت أوامركم في الوقت نفسه إلى المراجع اللازمة لكي لا تعارض جنودي الزاحفة لاحتلال المواقع المعينة.

ثم ان قبول الشرط الثاني والثالث والرابع والخامس يجب أن يؤيد رسمياً قبل ١٨ تموز. أما تنفيذه بالتمام فيكون قبل ٣١ تموز الساعة ١٢ (نصف الليل) وإذا كان سموكم الملكي لم يشعرني في الوقت اللازم بقبول هذه الشروط فأتشرف أن أبلغه أن الحكومة الفرنسية تكون مطلقة اليد في العمل. وفي هذه الحالة لا أستطيع أن أؤكد أن الحكومة الفرنسية تكتفي بهذه الضمانات المعتدلة ولا تقع على فرنسا تبعة المصائب التي تحل بالبلاد، فهي قد برهنت على تساهلها زمناً طويلاً. فحكومة دمشق هي التي تتحمل جميع أعباء مسؤولية فصل الخطاب الذي لا أنظر إليه إلّا آسفاً ولكنني مستعد له بمتانة لا تتزعزع. وألحق بالانذار طلب اقالة حكومة الأتاسي.

وكان لهذا الانذار أعظم الأثر في جميع الأوساط السورية إذ

أنهم وإن كانوا لا يجهلون نوايا فرنسا إنما لم يكونوا يتـوقعون تقديمها مثل هذه المطالب المخالفة لجميع الاتفاقات التي كـانت قـائمة. ولبيـان ناحيـة من الموقف والفكَـرة العامـة التي كانت سائدة لدى الفئة الواعية ننقل فيما يـلي النص الحرفي لمـا كتبه المـرحوم الـدكتور أحمـد قدري وقـد كان طبيب الملـك الخاص وأحد الأعضاء المهمين في هيئة جمعيـة الفتاة ومن أكثـر الناس تحمساً واندفاعاً قال:

«... وهـذا مع العلم أنه لم يكن بين الوطنيين المثقفين وكنت في مقدمة هؤلاء، إذا استثنينا الشيخ كامل القصاب ومن يتبعه من البسطاء، من يعتقد بإمكان التغلب على جيش فرنسا الكبير سيما والتدخل بالسياسة كان يعمل عمله الضار بين ضباط الجيش السوري الناشيء ولم يعد كالجيش الفاتح المتحد الكلمة والمستميت في سبيل مثله العليا فقط. ذلك الذي حرر سوريا بقيادة فيصل، ولكن المقصود كان المقاومة المستميتة مدة طويلة عسى ذلك يؤثر في ضمير العالم المتمدن الخارج من مجزرة الحرب العظمى وحكوماته القائلة بأن الحق يعلوا ولا يعلى عليه، أو الاستماتة في سبيل الدفاع، فتسجل سوريا والعرب صفحة مشرقة في سبيل الدفاع عن كيانها وكرامتها، ولتفعل القوة ما تشاء لأن النتيجة واحدة مهما كانت الظروف التي تسمح لفرنسا بأن تعسكر جنودها بأية بقعة من بقاع وطننا العزيز وليتم ذلك رغم رغائب الشعب وبعد تقويض أركان حكومته الوطنية».

١٤

الأيام الحائرة

في ١٣ تموز ١٩٢٠ ألقى وزير الحربية يوسف العظمة في المؤتمر السوري بحضور وزير الخارجية ورئيس الوزراء بيان الحكومة عن الموقف بيّن فيه حقيقة انذار غورو كما بيّن أن الحكومة تريد السلام والمحافظة على استقلال البلاد التام وأنها تريد المحافظة على الصِلات الحسنة مع الحلفاء وأنها مستعدة للدخول في المفاوضات كما أنها مستعدة ومصممة على الدفاع عن شرف وحقوق البلاد.

وأعلنت الأحكام العرفية واتصل الملك بالمركيز بانير قنصل ايطاليا العام وعميد القناصل في دمشق (وكان يظهر العطف على سوريا) وسلمه برقية الاحتجاج على انذار غورو ومنعه من السفر لأوروبا للاتصال بمؤتمر السلم كما كلفه بتبليغ برقيته الاحتجاجية لحكومته لتعذر إرسالها بسرعة بغير واسطته.

وطلبت الوزارة إلى الملك أن يعين الأمير زيد قائداً لجبهة مجدل عنجر وان يعين ياسين الهاشمي رئيساً لأركان حربه للاستفادة من نفوذ الأمير وخبرة الهاشمي ولأن جبهة مجدل عنجر ستكون الجبهة الرئيسية لزحف الجيش الفرنسي على العاصمة دمشق. فتم ذلك وعيّن يحيى حياتي لقيادة منطقة حمص وحماه

وكان محمد اسماعيل قائداً لفرقة حلب وكانت فرقة درعا بقيادة اسماعيل الصفار.

اعتذر الهاشمي عن قبول ما كلف به بحجة أن الجيش أضعف من أن يصمد للمقاومة والدفاع، خصوصاً وأن مستودعات السلاح تكاد تكون خالية من العتاد، فأخبر الأمير زيد الملك فيصل بالأمر فاستولى عليه الهلع والألم حيث لم يكن يتوقع أن يكون وضع الجيش سيئاً لهذا الحد، والهاشمي عندما كان مسؤولاً عن الجيش كان يقول بخلاف ذلك وأن الجيش بإمكانه الصمود في وجه الفرنسيين. ولقد ذكر الأستاذ ساطع الحصري بكتابه (يوم ميسلون) أنه قبل ذلك وعندما كان ياسين الهاشمي في مجلس المديرين خلال أزمة تبديل الجيوش سأله الحصري: (هل تعتقد أن القوى العسكرية التي تملكها الآن تكفي للمقاومة والدفاع؟ فأجاب على هذا السؤال دون تردد: أنا لا أشك في ذلك أبداً.

ودعا الملك مجلس الوزراء وبحث معهم هذا الأمر الخطير فنفى يوسف العظمة صحة ما قاله الهاشمي للأمير زيد بشدة وأصر على المقاومة وتحمل تبعة ذلك بصفته الوزير المسؤول عن الدفاع.

وناقش فيصل وزير الدفاع على انفراد وطلب إليه أن يجمع مؤتمراً عسكرياً من قادة الجيش لدراسة الموقف وأراد الوزير الحيلولة دون جمع المؤتمر ولكن المؤتمر اجتمع برئاسة الملك دون أن يحضره الوزير، الذي انتظر خارج مكان الاجتماع لأنه اعتقد أن جمع مثل هذا المجلس يعتبر تجاوزاً لصلاحيته. وممن حضر هذا المؤتمر من القادة العسكريين ياسين الهاشمي، أحمد اللحام، مصطفى وصفي، شريف الحجار، مصطفى نعمت، حسن يحيى الصبان وعارف التوام. وقرر

المؤتمر بإجماع الآراء أنه باستطاعة الجيش أن يقاوم عدة أسابيع إذا اشتركت معه بقية القوة التي في البلاد، والتي تتألف من متطوعة الحوارنة والبدو وأهالي المدن على أن يجري التصرف بالأسلحة التي في يد الأهالي من بدو وحضر. وإذا لم يتح ذلك للحكومة فجيشها لوحده يعجز عن أن يقاوم ساعة واحدة، ولما سأل وزير المعارف ساطع الحصري فيما بعد صديقه وزير الدفاع بعد أن علم بأجوبة الهاشمي والمؤتمر العسكري فلم يكتم عنه الحقيقة وأضاف قائلاً: أنه كان «يبلف» الفرنسيين.

قنع جميع الوزراء وقنع الملك أن الجيش لا يتمكن من الدفاع وأن رفض الانذار سيؤدي إلى الحرب والحرب ستؤدي إلى الانكسار السريع وبذلك ستخسر سوريا كل شيء دون أن تكسب شرف الاستماتة في سبيل الدفاع وستدخل تحت ادارة فرنسا مباشرة، ولذلك كان من الأفضل قبول الانذار ثم السعي إلى تخفيف وطأته بالمفاوضات. وكان الانذار يقضي بتبديل الوزارة فكلف الملك الهاشمي بتأليفها فاعتذر.

واتصل الملك بالجنرال غورو وطلب إليه تمديد مدة الانذار فمدده إلى نهاية يوم العشرين من الشهر وقررت الوزارة قبول شروط الانذار بصورة نهائية. وفي عصر يوم العشرين صدرت الأوامر بتسريح الجيش.

لقد أثار هذا القرار هياجاً عظيماً فخرجت المظاهرات الصاخبة تنادي بسقوط الوزارة وتحث الناس على الدفاع وكان البعض ينادي بين المتظاهرين بخيانة فيصل وسقوطه مع الوزارة.

■ كيف سرح الجيش

ذكرنا سابقاً أن قوات الخيالة التي كانت على شكل عصابات تهاجم المراكز الفرنسية في منطقة البقاع كانت تعمل بتوجيهات

الأمير زيد. وكان سموه قبل الانذار قد أرسل قائد هذه القوة فؤاد سليم برفقة معاون مدير الأمن العام صبحي الخضرة إلى جبهات بعلبك للاتصال برئيس عصابات تلك النواحي (ملحم قاسم) وعمل الترتيبات اللازمة معه للمساهمة في الحرب المنتظر وقوعها مع الفرنسيين. وهكذا بقيت القوة بإمرتي.

وكانت الأحداث تتلاحق بسرعة، فقد فشلت المفاوضات واستمر الجيش الفرنسي بزحفه نحو دمشق وقررت الحكومة الحرب وتعيين الأمير زيد قائداً للجبهة فأمرني بالتوجه إلى ميسلون مع الخيالة التي بإمرتي انتظر هناك مجيئه. وبينما كنا على وشك الحركة عاد وأرسل بطلبي وأمرني أن أرسل القوة مع أحد الضباط إلى ميسلون وأن أبقى في دمشق قريباً منه لأتلقى أوامره، فأرسلتها بقيادة الملازم الأول عبد الهادي العرب وأمرتهم بانتظاري في قرية (الديماس) القريبة من ميسلون وأبقيت معي الملازم الأول سعيد عمون.

ولما قبلت الحكومة بتنفيذ شروط الانذار وبتسريح الجيش كنت في دمشق أشاهد تلك المآسي التي وقعت في ذلك اليوم الذي نشط خلاله أولئك الذين كانت فرنسا قد اشترتهم وهيأتهم للقيام بالدور المطلوب منهم. وقد كانوا وراء تلك الأحداث التي نتج عنها ازهاق أرواح المئات من الشباب، والتي كادت أن تتحول إلى حرب أهلية.

ان تسريح الجيش قبل التأكد من امكانية ايقاف زحف الجيش الفرنسي، كانت الخطيئة الرئيسية التي نتج عنها كل ما مُنينا به من فشل في موقعة ميسلون، أما الطريقة التي جرى فيها التسريح فقد كانت نكبة أعظم، وقد أتاحت الفرصة للخونة والعملاء بالظهور والعمل بكل حرية.

عندما صدر أمر تسريح الجنود الذين في ثكنة الحميدية (الجامعة اليوم) قال لهم بعض هؤلاء العملاء ان الحكومة

والملك باعونا لفرنسا ولذلك سرحونا ليسلموا البلاد إليها، فاهتاج الجنود وثاروا وخرجوا من الثكنة بأسلحتهم ساخطين يصيحون بسقوط الحكومة والملك وكانوا أثناء ذلك يعتدون على الضباط وغير الضباط وقد شاهدت قسماً منهم أمام دار التوليد الحالي وقد قذفوا بأحد الضباط في النهر من فوق الحاجز الذي على الطريق فوقفت أنا وسعيد عمون واضعين أيدينا على مسدساتنا فلم يجرؤا على مسنا بأذى وأخبرني صديقي الشهيد شوكت العائدي الذي كان معاوناً لقيادة المركز التي كانت في شارع النصر وكان بداخلها عدد كبير من المجندين برسم السوق إلى القطعات قال: حينما وصل أمر التسريح إلى قائد المركز (ويظهر أنه كان من جملة من اشتراهم الفرنسيون) لم يتلطف بتبليغهم أمر التسريح حسبما يقتضيه الموقف بل جاء إلى الباب الذي كان مغلقاً ففتحه وخاطب الجنود قائلاً: (يالله كل منكم يروح بحال سبيله (فختوا الطبل وبطلوا الغناء وباعونا للفرنسيين وقبضوا حقكم وحق البلاد). فخرج الجنود ثائرين يصيحون بسقوط الملك والحكومة واختلطوا بالجنود الذين كانوا آتين من ثكنة الحميدية واختلطت معهم جموع من الرعاع واندس بينهم العملاء والجواسيس يحرضونهم على مهاجمة القلعة لأخذ السلاح وهكذا توجهت هذه الجموع نحو القلعة.

وكنا سعيد عمون وأنا نشاهد هذه المناظر ونحن أمام مدخل سوق الحميدية بعد أن عدلنا عن الذهاب للثكنة. واقتحمت هذه الجموع الثائرة باب القلعة ودخلوها دون مقاومة فأخرجوا المساجين وبدأوا النهب وأصبح الموقف يوحي أن الحالة ستنقلب إلى حرب أهلية يذهب ضحيتها الألوف لأن البلد كانت مليئة بالسلاح.

وفي هذه الأثناء حضر الأمير زيد بسيارته من جهة السنجقدار

ودخل سوق الخوجه من جهة السروجية ومعه الملازم الأول بهاء الدين نوري يحمل رشاشه وبدأ يـرمي هؤلاء الثائـرين فبدأوا يفرون بما حصلوا عليه من أسلحـة وغيرهـا لا يلوون عـلى شيء وقد كان رصيد هذه المجزرة ما لا يقل عن مائتي شاب.

ولولا هذه الحركة الجريئة التي قام بها الأمـير زيد ومغـامرتـه بنفسه لكانت الفوضى قد تـوسعت حتى شملت دمشق بأسرهـا، ولتعذر إمكان ايقـافها إلّا بـدخول الجيش الفـرنسي إلى دمشق ليطفئها كما أشعلها بواسطة عملائه، عندما وصل لـلأمير زيـد علم ثورة الجنود هذه في ثكنة الحميدية سـأل عني ليصطحبني معه ولما لم يجدني ركب سيارته وتوجه إلى الثكنة المذكورة وكان الجنود قد بارحوهـا وهناك صـادف الملازم بهـاء الدين نـوري فأمره أن يأخذ رشاشه ويركب معه، وتوجه إلى المـرجة وهنـاك علم بما وقع بالقلعة من نهب وتسريح المساجين فتوجه إليها كما مرّ ذكر ذلك. أما طـريقة التسريـح في الجبهة فـإن اللواء الأول من الفرقة الأولى بقيادة المقدم حسن الهندي كان يشغل منطقة المصنع (مركز الجمرك اللبناني الحالي) لمواجهة التقدم الفرنسي من سهل البقاع. وفي يوم ٢٠ تموز ١٩٢٠ تبلغ آمر اللـواء من قيادة الفرقة أمراً تليفونياً هذا نصه: (المسألة حلّت صلحـاً مع الفرنسيين: غداً صباحاً تحركوا إلى دمشق. وبينما كـان اللواء متهيأ للحركة على جـانبي الطريق جـاء قائـد الفرقـة (تحسين الفقير) ووقف أمام الجنود والمتطوعـين وأبلغهم بوقـوع الصلح وأن الجنود حين يصلون إلى دمشق ويسلمون أسلحتهم فسوف يسرحـون وتابـع سيره إلى دمشق. وتحـرك اللواء نحـو دمشق ولكن النظام والضبط بدأا يضيعان وصار الجنود يسيرون دون نظام وبعضهم يطلق الرصاص والبعض يتمرد على ضباطـه[١].

---

(١) من مذكرات قائد اللواء الأول المقدم حسن الهندي.

وحين خرجوا من وادي القرن وجد قائد اللواء قائد نقطة ميسلون ينتظره في مخرج الوادي ليبلغه أن الفرنسيين حنثوا باتفاقهم وأنهم يزحفون خلفه ويبلغه أمر وزارة الحربية بالوقوف والدفاع في ميسلون، وكان من جراء تبليغ أمر التسريح على تلك الصورة التي ذكرناها واختلال النظام أن فقد هذا الإلغاء تأثيره فبدأ الجنود وبعض الضباط يتركون قطعاتهم متوجهين إلى دمشق. وعلى هذه الصورة جرت عمليات التسريح في سائر قطعات الجيش.

■ قوة الجيش العربي وتوزيعه

ويبدو أن تسريح الجيش لم يقنع غورو بالعدول عن قراره باحتلال دمشق والقضاء على الحكم العربي الفيصلي في داخل سوريا، فكان يبحث عن المبررات ليجدها تارة في التأخر بالإجابة على قبول الانذار في المدة المحددة وتارة أخرى في عدم إمكان ايقاف زحف الجيش بعد أن باشر به أو بعدم صلاح المواقع التي وصل إليها الجيش لتأمين إعاشته. وهكذا استمر الجيش الفرنسي بالزخف على دمشق.

كنا ذكرنا بأن الأحوال بين فرنسا والحكومة العربية قد بدأت بالتوتر منذ أوائل شهر مارس ١٩٢٠ عندما أبلغ رئيس وزراء فرنسا المسيو ملران الملك فيصل أن مجلس الحلفاء قد قرر وضع سوريا تحت الانتداب الفرنسي. مما سبب قيام مظاهرات عنيفة تنادي بسقوط الانتداب وبالحرب، وتستقيل وزارة الركابي وتشكل وزارة باسم وزارة دفاع برئاسة هاشم الأتاسي وتشكل لجان شعبية باسم (لجنة الدفاع) في جميع المدن لجمع الأسلحة والمتطوعين والأموال من أجل الدفاع، ويقرر التجنيد الإلزامي. وأثناء هذه الأحوال المتوترة والصيحات المنادية بالحرب وعدم الاستسلام لمطالب الفرنسيين

كانت وزارة الدفاع تتخذ الترتيبات وتهيىء الخطط التي تراها ملائمة للدفاع. وكان الجيش العربي يتشكل من ثلاث فرق كل فرقة من لواء خيالة يضم ثلاث سرايا فرسان وسرية رشاش ومن ثلاثة ألوية مشاة ولواء مدفعية وسرية هندسة وسرية مخابرة (اشارة) وسرية نقل وسرية مقر، ولواء المشاة يضم ثلاثة أفواج ويضم الفوج ثلاث سرايا مشاة وسرية رشاش وفصيلي مخابرة ونقل، وتشكل كل سرية من ثلاثة فصائل مشاة ومقر، ويتشكل الفصيل من ثلاث جماعات كل جماعة من ثمانية جنود وضابط صف يقودهم ضابط برتبة ملازم. أما لواء المدفعية فيضم كتيبتين كل كتيبة تتألف من بطاريتين ما عدا كتيبتي الفرقة الأولى فكانت تتألف الواحدة منها من ثلاث بطاريات، والبطارية تتألف من مدفعين من عيار ٧,٥ أو ١٠,٥ مم.

وكانت القيادة العامة للجيش ممثلة قبل إعلان الاستقلال (برئيس ديوان الشورى الحربي) وبعد ذلك وعندما تشكلت هيئة الحكومة باسم وزراء أصبح القائد العام هو وزير الحربية، تعاونه هيئة أركان يرأسها العقيد أحمد اللحام تتألف من شعب: الحركات (العمليات)، الاستخبارات (المخابرات)، التسليح، التموين والادارة.

وكان الجيش موزعاً على ثلاث مناطق على الوجه الآتي:

■ الفرقة الأولى

مقرها دمشق تتبعها من الشمال حمص وتنتشر جنوباً حتى شيخ مسكين. ويرأس هذه الفرقة العقيد تحسين الفقير.

■ الفرقة الثانية

وهي الفرقة التي تشكلت من بقايا جيش الثورة العربية الذي

جرى إلغاؤه. مقرها درعاً وتشمل حدودها من شيخ مسكين شمالاً حتى معان جنوباً وغرباً فلسطين قائدها العقيد اسماعيل الصفار (عراقي).

■ الفرقة الثالثة

مقرها حلب وقد تشكلت عقب دخول جيش الثورة العربي إلى حلب في أعقاب الجيش التركي المنسحب، تشكلت في حينها من بعض أفواج مشاة مضافة إلى لواء الهجانة من جيش الثورة الذي تحول إلى لواء خيالة باسم لواء الفتح وتشمل حدودها شرقاً العراق وشمالاً طرابلس وغرباً الأراضي الساحلية التي تحت الاحتلال الفرنسي ومن الجنوب حماه. وكانت بقيادة العقيد محمد اسماعيل الطباخ.

إذا حسبنا موجود هذه الفرق الثلاث حسب الملاك الذي مرّ ذكره فيجب أن لا يقل تعدادها عن ٢٥ ألف جندي. بينما لم يكن موجوداً في الجيش برمته أكثر عن ٨٠٠ ضابط و٦٨٩ ضابط صف و٤٧٣٤ جندياً. ونلاحظ أن هذا العدد الضئيل الذي كان معبأً بثوب واسع فضفاض كان موزعاً في منطقة واسعة جداً لا تتناسب أبداً مع عدده، من دير الزور حتى معان.

ولما أصبحت الحرب بحكم الواقعة قامت وزارة الدفاع ببعض الترتيبات فجعلت من حمص وحماه قيادة خاصة أسندتها إلى المقدم يحيى حياتي، وجلبت من الفرقة الثانية بواقي لواء الخيالة (٦٠ خيالاً) وبطارية من أربعة مدافع ووضعتهم بإمرة قائد الفرقة الأولى، كما شكلت مراكز في المواقع الآتية:

يحفوفة: للدفاع عن وادي بردى إذا ما أراد الفرنسيون اجتيازه، والتعاون عند اللزوم مع قوة مجدل عنجر.

حاصبياً: قوتها فوج من اللواء الثالث مع مدفعين لستر الجناح الأيسر للقوة المدافعة في مجدل عنجر وتأمين قطناً.

القنيطرة: قوتها فوج من اللواء الثالث مع مدفعين لتنسيق قوة المتطوعين في هذه المنطقة وإعدادها للنجدة.

وبهذه الترتيبات مزقت قوات الفرقة الأولى التي كان منوطاً بها أمر الدفاع عن العاصمة مخالفين بذلك أهم قاعدتين من قواعد الحرب في كل خطة حربية وهما: التجمع والاقتصاد بالقوة.

■ القوات العربية التي اشتركت في المعركة

ذكرنا الملاك النظري لقوات الجيش العربي ثم ذكرنا العدد الحقيقي كما كان عليه في تموز أي قبل المعركة وهو (٦٢٢٣) ضابطاً وجندياً ولكن هذا العدد المأخوذ من وثيقة رسمية عرضها المقدم الركن شريف الحجار (رئيس شعب الادارة) لم يكن العدد الحقيقي الذي اشترك في الموقعة فهذا العدد كان موزعاً كما ذكرنا من دير الزور (وكان فيها سرية خيالة من فرقة حلب) حتى معان.

وكانت قطعات الفرقة الأولى في دمشق موزعة على مواقع: يحفوفة، الزبداني، القنيطرة، وحاصبيا. ولم يبق من هذه الفرقة لمواجهة القوة الفرنسية المتقدمة سوى فوجين من اللواء الأول. ولما صدر أمر التسريح ذاب هذان الفوجان، ولم يبق منهما سوى ٥٣ جندياً. وهكذا لم يبق في ميسلون للوقوف بوجه العدو الزاحف سوى القوات الآتية:

خيالة العصابات التي كانت بإمرتي، المسماة بفوج الدرك الاحتياطي ١٥٠ خيالاً.

بواقي لواء الخيالة التابع للفرقة الأولى وبواقي لواء الهاشمي

الخيال التابع للفرقة الثانية بقيادة النقيب عزت الساطي.
نحو ١٠٠ خيال ورشاشين.

لواء الهجانة الحجازي وهو الحرس الخاص للملك فيصل بقيادة الشيخ مرزوق التخيمي (مقدم فخري) ٣٠٠ هجان.

سرية الحرس الملكي النظامية بقيادة النقيب محمد علي العجلوني ٦٠ جندياً.

بواقي الفوجين الأول والثالث من اللواء الأول بقيادة المقدم حسن الهندي. كل فوج تتبعه سرية رشاش من ستة رشاشات مجموعهم ١٦ ضابطاً ١٣٧ جندياً ٢٣٩ متطوعاً منهم ١٥ دون سلاح(٢).

الباقي من الفوج الأول من اللواء الثاني الذي ألحق باللواء الأول وأرسل إلى الزبداني للتعرض لجناح العدو الأيسر ١٦ ضابطاً ١٦٠ جندياً، ٢٦٠ متطوعاً منهم ١٥٠ دون سلاح.

سرية الهندسة بقيادة النقيب تحسين العنبري.

مدفعية الفرقة بقيادة العقيد أحمد صدقي الكيلاني:

بطارية صحراء ٤ مدافع.

بطارية ونصف مدافع جبلية عيار ٧,٥ سم، ٦ مدافع.

بطارية صحراء التحقت من فرقة درعا ٤ مدافع.

نصف بطارية أوبوس مدفعين.

وكان من الصعب معرفة حقيقة موجود القطعات بعد صدور

(٢) من مذكرات آمر اللواء حسن الهندي.

أوامر التسريح وبعد أن ترك عدد كبير من الضباط والجنود قطعاتهم وتوجهوا إلى دمشق بالرغم من الأمر اللاحق الذي صدر بالدفاع عن ميسلون. ولولا جدولان وجدناهما في مذكرات قائد اللواء الأول حسن الهندي يذكر فيهما موجود لوائه والفوج الأول من اللواء الثاني الذي ألحق به مع من التحق فيهم من المتطوعين، لولا ذلك لما أمكن الحصول على مصدر يطمئن إليه في معرفة عدد المحاربين في يوم ٢٤ تموز. أما عن قوة الخيالة والهجانة التي كانت تقاتل في الجناح الأيسر فإنها كانت معروفة. فالهجانة والخيالة الذين كانوا بقيادتي والذين لم يشملهم التسريح فإنني كنت متأكداً من عددهم. أما الخيالة النظاميون من كلا اللوائين الأول والهاشمي مع رشاشين فقد تأكدت من عددهم من النقيب عزت الساطي الذي كان يقودهم ومن الملازم عبدالله عطفة (وزير دفاع فيما بعد)، أما الخيالة الأهلية المتطوعة من دمشق وحواليها فإن تعدادها غير معروف على الضبط، وقد ألحقوا به قبل المعركة بالقرب من خان ميسلون فقدرتهم بمئة خيال بعضهم يركب خيلاً وبعضهم يركب الكدش والبعض يركب البغال.

■ قوة الجيش الفرنسي وتوزيعه[٣]

كانت الجيوش الفرنسية مشتبكة بقتال شديد على ثلاث جبهات: مع الأتراك في كليكيا ومع صالح العلي في جبل العلويين ومع ثورة هنانو التي كانت في بدايتها؛ فقررت أولاً في سبيل الاحتفاظ بسوريا التنازل عن كليكيا للأتراك وقامت ثانياً بالتظاهر باستعدادها لإعطاء صالح العلي جميع مطالبه والتوصل عن طريق ذلك إلى هدنة تتيح الاستفادة من قوتهم

(٣) الكتاب الذهبي الذي أصدره الجيش الفرنسي.

هناك. وكان الجيش الفرنسي في سوريا قد أصبح مع القطعات التي سحبت من كليكيا والتي أرسلت من فرنسا ثلاث فرق، فبدأ الجنرال غورو بحشد قواته حسب الخطة التي وضعها في باريس قبل مجيئه سوريا وهي أن يزحف على داخل سوريا بثلاثة أرتال في آنٍ واحد على الوجه الآتي:

■ الرتل الأول

فرقة المشاة الثانية (ستة أفواج) ينطلق هذا الرتل من مركز تجمعه في موقع قطمه في الوقت المحدد للاستيلاء على مدينة حلب.

■ الرتل الثاني

فرقة المشاة الرابعة (سبعة أفواج) ينطلق هذا الرتل من مكان تجمعه في طرابلس الشام وتل كلخ في الوقت المحدّد للاستيلاء على مدينة حمص.

■ الرتل الثالث

فرقة المشاة الثالثة بإمرة الجنرال غوابيه تضم (اثني عشر فوجاً) وست كواكب خيالة وسبع بطاريات مدفعية (٤٢ مدفعاً) وسرية دبابات وأربعة أسراب طيران. يستولي ببعض قواته على موقعي المعلقة ومحطة رياق كخطوة أولى ثم يزحف في الوقت المحدد نحو العاصمة دمشق للاستيلاء عليها.

ولأن هذه الفرقة (الثالثة) هي التي قامت بالزحف على دمشق وقامت بمعركة ميسلون فإننا نبين تفصيل عدد قواتها كما يلي:

١ ـ اللواء السنغالي بإمرة الجنرال (بوردو) يتشكل من كتيبتين كل كتيبة من فوجين.

٢ ـ اللواء الثاني بإمرة الكولونيل (سوسلبيه) يتشكل من كتيبتين كل كتيبة من فوجين.

٣ ـ الكتيبة الصباحية الأولى بقيادة الليوتنان كلونيل (ماسيه) تضم ٤ كوكبات (سرايا) خيالة وسرية رشاش.

٤ ـ كتيبة الخيالة المختلطة تضم الكوكبتين الأولى والثانية.

٥ ـ المدفعية بقيادة الكولونيل (ديكرين) وتضم:
بطارية ثقيلة عيار ١٥٥ مم ٦ مدافع.
أربع بطاريات عيار ٧٥ مم ٢٤ مدفعاً.
بطاريتان ونصف عيار ٦٥ مم ١٤ مدفعاً.

٦ ـ سرية دبابات: ١٥ دبابة.

٧ ـ رعيل رشاش محمل على سيارات ٤ رشاشات.

٨ ـ سرية هندسة.

٩ ـ ٤ أسراب طائرات. (٣) أسراب قصف وسرب استطلاع مجموعها (١٨) طائرة.

١٠ ـ كتيبة سيارات نقل تتشكل من مائة سيارة.

وعدد هذه الفرقة لا يقل عن خمسة عشر ألفاً.

■ خطة الجيش الفرنسي وحركاته

كانت الخطة العامة للجيش الفرنسي كما ذكرنا مقررة منذ شهر حزيران ١٩٢٠ واتفاقهم مع الانكليز على انسحابهم من داخل سوريا وحلول الجيش الفرنسي مكانهم. وما المفاوضات التي أجراها الجنرال غورو سوى مناورات سياسية لكسب الوقت وإكمال الوسائل. بدليل أن التحشيدات ـ والتمارين على الحروب الجبلية التي ستجري على الأراضي المزمع إجراء

الحركات عليها كانت تجرى منذ أوائل شهر تموز وأن حشد الأرتال الثلاثة التي ذكرنا أمر حشدها في قطمه وطرابلس وتل كلخ قد جرى قبل ذلك التاريخ.

وحديثنا الآن يقتصر على خطة الرتل الثالث (الفرقة الثالثة) الموكل إليه الاستيلاء على العاصمة دمشق والتي اشتكبت مع الجيش العربي في موقع ميسلون.

لقد كان أمام قائد الفرقة الجنرال غوابيه طريقان للاستيلاء على هدفه مدينة دمشق، الأول الذي يواكب الخط الحديدي من محطة رياق إلى دمشق والثاني الطريق العام الذي يربط بيروت بدمشق. فالأول يساعده على سهولة تأمين احتياجات قطعاته ولكنه أطول ويمر في مناطق جبلية وعرة غير صالحة لعمل الدبابات ولا لتأثير الطائرات وإمكانات المناورة. بينما تفسح في المجال أمام الخصم للقيام بمناوراته في كلا الجناحين ويبقى له مجال العمل على طريق دمشق ـ شتورة.

أما الطريق الثاني فبالرغم من مروره بأربعة مضايق جبلية على جانب كبير من الخطورة وهي مضايق وادي الحرير، وادي القرن، وادي ميسلون ووادي بردى، فإنه يصلح لمناورات جبهوية وجانبية من قبل الخيالة كما أنه يصلح في بعض أقسامه لسير الدبابات وصالح لمسير سيارات النقل ذهاباً وإياباً في جميع أقسامه كما أنه يسيطر على الطريق الأول اعتباراً من نقطة اقترابه من محطة التكية حتى دمشق. وحينما يصل إلى مدخل سهل الديماس لا يعود هناك كبير أهمية لوادي بردى ولا ضرورة لاجتيازه لدخول دمشق، حيث يصبح من السهل الاستيلاء على هضاب المزة المشرفة على دمشق التي تصبح حتى قبل الاستيلاء على تلك الهضاب تحت متناول المدفعية. مع ذلك فإن الجنرال غوابيه ما كان بإمكانه الاعتماد على قوته في اجتياز هذه المواقع القوية لو لم يكن يعتمد على ما كانوا قد

هيأوه من عملاء ومخربين في المؤخرة وعلى المناورات السياسية التي تسهل له اجتياز المضيقين، وادي الحرير ووادي القرن سلماً دون قتال (كما وقع فعلاً). ولذلك قرر السير على الطريق الثاني.

وبدأ الجيش الفرنسي تمهيداته للزحف على دمشق، ففي ١٢ تموز احتل المعلقة ومحطة رياق وقد أصبح القسم الأكبر من قطعاته في المريجات ومقدمته في شتورة واحتياطه في صوفر؛ وفي ١٤ تموز أرسل الجنرال غورو انذاره إلى الملك فيصل. وفي الساعة الأولى من يوم ٢١ تموز شرع الجيش باجتياز سهل البقاع واحتل موقع مجدل عنجر. كل ذلك وقع بسلام ودون أن يطلق رصاصة واحدة، لأن الحكومة العربية كانت قد قررت قبول شروط الانذار وسرحت الجيش وأمرت القطعات بالانسحاب إلى دمشق. ولم يجد الجيش الفرنسي أثناء زحفه سوى قطعة صغيرة، من الجنود في مجدل عنجر تحمي أثقال ومهمات القطعات المنسحبة إلى أن ترسل وسائط لنقلها، فجرّدتها من سلاحها وتركتها طليقة، وكانت الطائرات على اتصال مستمر بقائد الفرقة تخبره عن انسحاب الجيش العربي واخلائه للمواقع، وصلت مقدمة الجيش إلى عين الجديدة بعد أن اجتازت وادي الحرير كما وصلت الخيالة إلى منطقة ينطه المشرفة على ميسلون من الغرب وفي الساعة الخامسة من بعد الظهر ١٩٢٠/٧/٢١ وصلت الفرقة بكاملها إلى المرتفعات التي تحد سهل الجديدة من الشرق وتسيطر على وادي القرن ووادي الزرزور، وبذلك وصلت الفرقة إلى هدفها الأول، فعسكر القسم الأكبر منها في عين الجديدة بعد أن اجتازت مقدمتها وادي القرن وأشغلت المرتفعات المطلة على وادي الزرزور وعقبة الطين وأشغلت ميمنتها مرتفعات ينطه المطلة على عقبة الطين ووادي ميسلون.

وفي الساعة السادسة مساءً حاول رعيل الدبابات المرافق للمقدمة الخروج من وادي القرن والدخول في وادي الزرزور فقابلتها المدفعية العربية وأجبرتها على العودة بعد أن أصيب بعضها. وفي تلك الليلة وصل إلى مقر الفرقة وفد عربي يتمثل بوزير المعارف ساطع الحصري يرافقه المعتمد الفرنسي في دمشق الكولونيل نولا بطريقه إلى الجنرال غورو. وتمكن من إقناع الجنرال غوابيه بتوقيف الزحف لمدة ٢٤ ساعة بشرط أن تمنح الحكومة العربية الحق للقوات الفرنسية باستعمال الخط الحديدي بين محطتي رياق والتكية من أجل التموين فوافق المندوب العربي على ذلك واستمر بطريقه نحو بيروت.

■ موقف الجيش العربي وحركاته

كانت القوات العربية المشكلة من ثلاث فرق على الشكل الذي بيناه آنفاً ترابط كل فرقة منها في منطقتها. فالفرقة الأولى في دمشق والثانية في درعا والثالثة في حلب، ولم يشترك منها في معركة ميسلون سوى الفرقة الأولى علاوة على بطارية من أربعة مدافع ونحو ستين خيالاً نظامياً ألحقوا بها من الفرقة الثانية. ولذلك سيكون كلامنا عن حركات القطعات التي اشتركت في معركة ميسلون من هذه الفرقة.

لم يكن للجيش العربي خطة عسكرية مسبقة لمقابلة الجيش الفرنسي سوى الترتيبات المتخذة في بعض المواقع التي مر ذكرها. ولأن موقف الجيش العربي من الفرنسيين كان في الأصل موقفاً دفاعياً وبما أن المُدافع يقوم عادة بتنظيم خططه بالنسبة لخطط خصمه المهاجم فإنه لم يكن كما ذكرنا للجيش العربي خطة، ولذلك كان قائد اللواء يحاول تبديل أوضاعه بالنسبة لحركات الفرنسيين ضمن فكرة دفاعية ضيقة.

في شهر حزيران وعندما أصبح الموقف متوتراً مع الفرنسيين

أمرت وزارة الدفاع بإرسال الفوج الأول من اللواء الأول إلى منطقة بعلبك وسهل البقاع. وفي أوائل تموز تلقى آمر اللواء الأول المقدم حسن الهندي[4] أمراً من قيادة الفرقة بأن يشغل بالفوج الثالث موقع مجدل عنجر (منطقة الجمرك اللبناني اليوم) ليؤسس خطاً دفاعياً في مدخل وادي الحرير المشرف على سهل البقاع، وخيم الفوج المذكور في تلك المنطقة وبدأ بإنشاء خط دفاعي في مدخل وادي الحرير.

بعد ظهر يوم ٢٠ تموز ١٩٢٠ تلقى آمر اللواء المذكور من قيادة الفرقة البرقية التلفونية الآتية:

««المسألة حلت صلحاً مع الفرنسيين غداً صباحاً تحركوا إلى دمشق».

وحين وصول اللواء إلى جديدة يابوس مرت من فوقهم طائرات فرنسية متجهة نحو الشرق تقوم باستطلاع الطريق نحو دمشق ولما وصل الرتل إلى نهاية وادي القرن وصل آمر نقطة ميسلون وبلغ آمر اللواء أمراً وصله من وزارة الحربية مضمونه:

---

(٤) المقدم محمد حسن الهندي هو قائد اللواء الذي قاتل في ميسلون وهو القائد الفعلي الذي انتخب موضع الدفاع وعبأ القطعات وحصّن المواضع، وكانت بإمرته جميع القطعات التي تركزت في موقع عقبة الطين غربي عين ميسلون من مدفعية ومشاة ومتطوعين. وقد بقي هذا القائد صامداً في المواضع حتى لم يبق معه أحد من الضباط سوى جندي وقد شهد له بذلك وبما أبداه من شجاعة وإخلاص مرافقه الذي بقي معه إلى النهاية وهو الملازم جميل البرهاني (العميد فيما بعد) صاحب المذكرات المخطوطة عن موقعة ميسلون. والمقدم الهندي كتب مذكراته عن هذه الموقعة ولكنه لم يطلع عليها أحداً كي لا يسيء إلى سمعة الكثيرين، ولكن ابنه الأستاذ فاروق تكرم علينا بها. والمرحوم الهندي الذي توفي في سنة ١٩٦٠ قد كان مقدماً مرموقاً في الجيش التركي وهو من الضباط العرب الذين كانوا يشعرون بقوميتهم ويجاهرون بحقوق العرب ووضعهم السيىء مع الأتراك وكان من المنتسبين إلى حزب العهد العسكري الذي أسسه العقيد عزيز علي المصري وهو من جملة الضباط الذين أوقفهم جمال باشا وأحالهم إلى ديوان الحرب العرفي في عاليه وشنق منهم العقيدين سليم الجزائري ولطفي الحافظ وقدر له الخلاص من الإعدام وأبعد.

««ان الفرنسيين حنثوا بوعدهم وأن قواتهم تزحف خلفهم وأنه يجب وقف القطعات لتمنع تقدم الجيش الفرنسي».

وبكل سرعة قام قائد اللواء باستطلاع الأراضي من أعلى قمة تشرف على عقبة الطين وقرر الدفاع في الهضاب الشرقية المشرفة على الوادي وعلى مدخل وادي القرن. وأصدر أمراً أولياً مستعجلاً بلّغه إلى القطعات وهذا نصه:

إلى قواد القطعات العائدة إلى دمشق

«١ ـ على القطعات المتوجهة نحو دمشق ان تتوقف في عقبة الطين (غربي خان ميسلون)[٥] وتدخل تحت قيادتي.

٢ ـ لا يجوز لأحد قطعاً تجاوز خان ميسلون لجهة دمشق ومن يتخطى ذلك يطلق عليه الرصاص.

٣ ـ تنظيم القطعات حالاً وانتظار الأوامر».

قائد اللواء الأول
حسن الهندي

وبعد ذلك ذهب لاستطلاع الأرض تفصيلاً مستصحباً معه أمراء الوحدات. وعبأ اللواء بأن جعل الفوج الأول يشغل المرتفعات المشرفة على مدخل واديي القرن والزرزور وجعل الفوج الثالث مع سرية الاستحكام في الاحتياط.

وفي الساعة ١,٥ وصل من دمشق لواء المدفعية فوضع بطارية منه في وضع تمكن منه من رمي وادي القرن وباقي البطاريات في مواضع مستورة ومناسبة خلف الخط الأول.

(٥) يوجد التباس لم ينتبه له أكثر الناس وهو عدم التفريق بين موقعي خان ميسلون وعين ميسلون، فعين ميسلون هو الموقع الذي فيه منبع الماء في جانب المخفر ومقابل المشتل الحالي القريب من مقبرة شهداء ميسلون. أما خان ميسلون فهو الخان الموجود في الوقت الحاضر في الأرض المكشوفة التي ترى على يسار الذاهب إلى بيروت بعد أن يجتاز مسافة نحو مائتي متر من المخفر.

■ خطة انطلاق الجيش الفرنسي

وضع قائد الفرقة الثالثة الجنرال غوابيه المكلف بالاستيلاء على دمشق خطته على أساس المعلومات المتيسرة لديه عن وضع الجيش العربي المرابط في سهل البقاع. وحشد قطعاته في المواقع التي نوهنا عنها منتظراً من القائد العام الجنرال غورو أمر الانطلاق وكانت خطته كما يلي:

■ الغاية

الاستيلاء على دمشق والقضاء على الحكومة العربية وذلك بالقضاء على مقاومة الجيش العربي.

■ الخطة

أ - التقدم على طريق شتورة - مجدل عنجر - جديدة يابوس - ميسلون - دمشق. وطرد القوات العربية من المواقع التي تدافع عنها.

ب - الالتفاف على جناح العدو الأيسر.

■ التقدم

يجري التقدم من الجبهة برتلين، رتل أيمن ورتل أيسر:

«١ - الرتل الأيسر: بقيادة الجنرال بورو يتألف من:
- فوجي مشاة مغاربة.
- فوجي مشاة سنغال.
- نصف كوكبة فرسان.
- فصيل دبابات.
- بطاريتين عيار ٧٥ مم وبطارية عيار ٦٥ مم المجموع ١٨ مدفعاً.

يتقـدم هذا الـرتل بقسمـين على يمـين ويسار طـريق شتورة ـ دمشق.

القسم الأول

يســار الطريق: بــإمرة الكـولونيـل أزراق يتقـدم من شتـورة ـ برالياس ـ دير سمعان ـ كفريابوس ـ ويفرز قطعـة أماميـة إلى مرتفعات قرمة البطرون.

القسم الثاني

يمين الطريق: يتقدم من المرج ـ مجدل عنجر ـ جديدة يـابوس ويفرز وحدة أمامية إلى مرتفعات قرية حلوة.

«٢ ـ الرتل الأيمن: بقيادة الكولونيل تيري ويتألف من:

- فوج مشاة مغاربة.
- فوج مشاة فرنسي.
- نصف بطارية ٧,٥ مم.

يتقدم هذا الرتل من: الخبارة ـ روكسي ـ مرتفعات أدوات ويفرز وحدة أمامية إلى مرتفعات الكنيسة.

«٣ ـ حركة الالتفاف: بقيادة الكولونيل ماسيب وتتألف من اللواء الخيال السباهي المراكشي، يتحرك من منخفضات بر الياس باتجاه جب جنين يحمي الجناح الأيمن للأرتال المتقدمة ويبقى على اتصال برتل الكولونيل تيري، يتسلق مرتفعات يحفا ويراقب منها جب جنين وراشيا وميسلون.

٤ ـ رتل البقاع: بقيادة الكولونيل ربوكرو ويتألف من:

- فوج مشاة سنغال.
- نصف بطارية مدافع.
- فصيل مصفحات.
- رعيل خيالة.

مهمته: مراقبة خطي: رياق ـ حلب ورياق ـ دمشق.

٥ ـ الاحتياط: يحتفظ قائد الفرقة بقوة احتياطية تحت إمرته مباشرة تتألف من:

- فوج مشاة فرنسي.
- ٣ رعايل فرسان.
- نصف سرية هندسة.
- فصيل دبابات.
- بطارية مدفعية ثقيلة عيار ١٥٥ مم.
- الطيران.

٦ ـ كما وضع سرية مشاة واحدة في كل من محطات: عين صوفر، المريجات، سعد نايل ورياق.

■ الحركات

في صباح يوم ٢١ تموز ١٩٢٠ تلقت القطعات أمر الانطلاق والمباشرة بالحركة حسب الأوامر المسبقة التي صدرت إليهم. ولما وصلت المقدمة إلى جسر الليطاني أخبرت القائد انها وجدته سليماً وعلى ضفته قطعة صغيرة من الجيش العربي لم تقاومهم فأسروها واجتازوه. وهكذا استمر التقدم وكانت باقي الجسور سليمة أيضاً. وبعد اجتياز مقر الفرقة لجسر الليطاني وصلت من القطعات الأمامية تقارير تفيد أن الجيش العربي المرابط في منطقة مجدل عنجر ينسحب نحو دمشق دون أن يطلق طلقة واحدة وأنه لا توجد علائم تدل على المقاومة.

وعندما وصلت القطعات إلى موقع مجدل عنجر وجدت به أثقال الجيش العربي وعليها مفرزة صغيرة لحراستها فجردتها من السلاح وتركت أفرادها طلقاء. وهكذا أصبح أول وأهم مانع أمام خط تقدم الجيش الفرنسي وهو وادي الحرير مفتوحاً وأميناً دون صعوبة ودون أية مقاومة. فاجتمعت قطعات الجيش

التي كانت منتشرة أفقاً وعمقاً بنظام المسير واستمرت بتقـدمها على الطريق العـام ولم يبق منها منتشـراً سوى الخيـالة ورتـل الكولونيل تيري حيث حافظت على تقـدمها منتشرة حتى وصلت إلى الأهداف المعينة لها يوم ٢١ تموز وتكامـل وصول القطعـات إلى موقع جديدة يابوس وأرسلت قطعـات حمايـة لوادي القـرن الذي اجتازته قطعات الجيش العربي وأصبح هذا المانع الثاني المهم جداً أيضاً مفتوحاً ومأموناً أمام زحف الجيش الفرنسي.

وفي المسـاء وصل إلى مقـر الفرقـة المعتمـد الفـرنسي في دمشق الكـولونيـل كوسي وبلـغ الجنرال غـوابيه قبـول فيصـل لشروط الانذار وأنه أبرق بالقبول إلى الجنرال غـورو وأنه لم يبق سبب لتقدم الجيش الفرنسي. فـأجابـه الجنرال انـه أمر بـالمسير إلى دمشق وسيتـابع سـيره وله أن يتـابع سـيره إلى بيروت لمقـابلة الجنرال غورو.

وبعد عصر هذا اليوم وصل إلى مقر الفرقـة في جديـدة يابـوس ضـابط عربي مـرسل من قبـل قـائـد اللـواء الأول المـرابط في ميسلـون (هو المـلازم جميل البـرهاني) لابـلاغ الجنرال عـزم الجيش العربي على الدفاع فيما إذا تقدم الجيش الفـرنسي من جديد نحو دمشق. فلم يقبل الجنرال مقابلتـه وبلّغه أنـه سوف يستمر في التقدم بصورة سلمية وإذا مونع فسيستمر في تقدمـه بالقوة.

ويعود الكولونيل كوسي الذي كان قد وعد الملك بالذهاب لمقابلـة قائد الجيش من أجل توقيف زحفـه، يعود ليخبـره بعدم قبـوله ويقترح عليه إرسال أحد رجـال الحكومـة للتفاهم مـع غورو في هذا الأمر فيجمـع مجلس الوزراء الـذي كان منعقـداً برئـاسة الملـك على إيفـاد وزير المعـارف ساطـع الحصري للقيام بهـذه المهمة ويوافق الملك على هذا الاقتراح ويتوجه سـاطع الحصري

مستصحباً معه مرافق الملك المقدم جميل الألشي يرافقهم المعتمد الفرنسي الكولونيل تولا. وأثناء ذلك يخبره وزير الدفاع يوسف العظمة أنه ذاهب إلى الجبهة ويرجوه أن يسعى لاكتسابه أكثر ما يمكن من الوقت من أجل إكمال تنظيم الجبهة. ويصل الحصري إلى جديدة يابوس ويواجه قائد الفرقة الجنرال غوابيه، وكان معه رئيس أركان غورو الكولونيل بتلا وطلب إليه إيقاف الجيش إلى أن يتيسر له مقابلة الجنرال غورو فأجابه أنهم جنود لا يعلمون شيئاً من أمر السياسة، وقد تلقوا أمراً بالزحف فزحفوا ولا يسعهم أن يتوقفوا عن مواصلة الزحف إلى أن قال: ومع هذا إذ كنا مسؤولين عن الحركات فإنه بوسعنا أن نعقد معكم هدنة لمدة أربع وعشرين ساعة على أساس قبول بعض الشروط:

أولاً - أن يعتبر الوادي الذي يمر من تحت سفوح ميسلون حداً فاصلاً بين الجيشين تنسحب الجيوش العربية إلى ما وراء هذا الوادي وتكتسب القطعات الفرنسية حرية الحركة في هذه الجبهة.

ثانياً - تنقل المؤن التي تحتاج إليها الجيوش الفرنسية بواسطة سكة حديد رياق التكية.

فقبل الحصري ذلك وعاد إلى ميسلون ليجد فيها الأمير زيد ويوسف العظمة وأبلغهما ما اتفق عليه فسرا لذلك سروراً كثيراً. وعاد الحصري إلى الجديدة ومنها واصل سيره نحو عاليه التي بلغها في ٢١ تموز وقابل الجنرال غورو في مكتبه، وبعد أخذ ورد وإصرار غورو على استمرار زحف الجيش قبل بهدنة الأربع والعشرين ساعة التي أعطاها الجنرال غوابيه ولكنه تقدم بشروط جديدة قاسية مدعياً أنها توضيح لشروط الانذار ولكن الحصري لم ير لنفسه صلاحية قبولها وطلب مهلة جديدة تتيح

له ايصالها إلى الملك وحصل على مهلة ٢٤ ساعة أخرى تنتهي في منتصف ليل ٢٣ تموز ١٩٢٠. وعاد الحصري إلى دمشق بعد تأخير متعمد من قبل الفرنسيين وعرض على الملك جو المفاوضة التي أجراها مع غورو بحضور مجلس الوزراء وبيّن لهم انطباعاته عن أن غورو مقرر دخول دمشق وأنه يتحرى الحجج والوسائل التي تمكنه من ذلك وأن قبول شروطه الجديدة سوف لا يمنعه من ايجاد حجة جديدة. وأثناء ذلك وصل من غورو إلى الكولونيل كوسي برقية يطلب منه فيها إعلام الملك أن وضع الجيش الفرنسي يتطلب منهم تعديل شروط الهدنة الأولى بالسماح للجيش الفرنسي بالانتقال من معسكره في الجديدة إلى خان ميسلون نفسه لإمكان تأمين حاجاته من المياه التي فيها ومن الأرزاق عن طريق ميسلون ـ التكية وكانت هذه البرقية نهاية التردد الذي كان يسود المسؤولين ملكاً ووزراء فقرروا بالإجماع عدم القبول بالشروط الجديدة وبذلك قرروا الحرب وعمم ذلك على قطعات الجيش وعلى الشعب كما تقرر أن تكتب برقيات استغاثة جديدة إلى جميع الدول وأن يدعى جميع قناصل الدول إلى اجتماع بغية إطلاعهم على تفاصيل الوضع. وعند الأصيل جاء المعتمد الفرنسي إلى كوسي يطلب الاجابة على الشروط، فسلم له الجواب الذي جاء فيه ما يلي:

«اننا نأبى الحرب، ولكن قبول الشروط الواردة في مذكرتكم الأخيرة يعرضنا لا محالة إلى حرب أهلية اننا مستعدون لتنفيذ الانذار المؤرخ في ١٤ تموز بحذافيره. وقد نفذنا إلى الآن أربعة من شروطه، اننا نتعهد بشرفنا بتنفيذه باخلاص، على أن ينسحب الجيش الفرنسي من الأماكن التي احتلها مؤخراً».

١٥

خطة المعركة

في مساء يوم ٢٠ تموز ١٩٢٠ كان القسم الأكبر من الجيش الفرنسي الزاحف خلف قطعات الجيش العربي قد اجتاز وادي الحرير ووصل إلى موقع جديدة يابوس وعسكر فيها، كما وصلت قطعاته الراكبة إلى مرتفعات ينطه ومقدمته اجتازت وادي القرن ورابطت في مدخله الشرقي بعد أن اصطدمت دباباتها بقطعات الجيش العربي التي منعتها من الخروج منه. ومرت ليلة ٢٠ ـ ٢١ بمفاوضات سياسية تذهب وتعود خلالها الوفود بين الطريقين حيث تمكنت أثناء ذلك من الحصول على هدنة ٢٤ ساعة يتوقف خلالها الجيش الفرنسي عن الزحف. وفي يوم ٢٢ منه تمددت هذه الهدنة لأربعة وعشرين ساعة أخرى بحيث تنتهي في منتصف ليل ٢٣ منه كما مرّ ذكره، وكانت القطعات العربية خلال ذلك مستمرة في حفر الخنادق وقد جاءها قطار مملوء بالمتطوعين المدنيين من أهالي دمشق وأطرافها ومعهم سرية الحرس الملكي بقيادة النقيب محمد علي العجلوني وبرفقتهم بعض الجنود النظاميين الذين جرى تسريحهم ثم جمع بعضهم وجرى سوقهم إلى قطعاتهم، كما جرى من جهة ثانية تسلل بعض الضباط والجنود وانسحابهم متوجهين إلى دمشق.

وفي ٢٣ منه أصبح الموقف واضحاً لكلا الطرفين فالحكومة العربية رفضت شروط الفرنسيين الأخيرة وقررت الدفاع والفرنسيون مقررون الزحف، إذا لم تقبل شروطهم، وهدنة الأربع والعشرين ساعة الأخيرة ستنتهي في منتصف هذه الليلة، إذاً فالمعركة ستنشب في صباح الغد الموافق ٢٤ تموز. وكان كل طرف واقفاً على وضع الطرف الآخر،فالفرنسيون على علم بالخطوط التي يعمل الجيش العربي على تحكيمها في غربي عين ميسلون والعرب على علم بالمواقع التي وصل إليها الجيش الفرنسي بقسمه الأكبر وقطعاته المتقدمة. ولذلك قام كل فريق منهما بتقرير خطته التي سيقابل بها خصمه في صباح يوم ٢٤ منه.

■ الخطة الفرنسية[١]

١ ـ الاستيلاء على الخط الدفاعي الذي أقامه الجيش العربي على المرتفعات الغربية لعين ميسلون كهدف أول وبفتح الطريق. أمام الجيش الفرنسي الزاحف نحو دمشق.

٢ ـ الهجوم على خط الدفاع في مرتفعات عقبة الطين المشرفة على وادي الزرزور ومخرج وادي القرن.

٣ ـ الالتفاف على جناح العدو الأيسر بقوسين الأول بواسطة المشاة المعززة بالمدفعية والثاني بواسطة الخيالة.

■ الواجبات

١ ـ سريتا مشاة وفصيل دبابات ونصف سرية هندسة يمين الطريق (مخرج وادي القرن ـ ميسلون).

(١) مأخوذة من مذكرات مقرر الخطة قائد الفرقة الفرنسية الثالثة الجنرال غوابيه.

٢ ـ فوج مشاة مغاربة مع بطارية ٧٥. على يسار الطريق المذكور، على المرتقع يسار وادي الزرزور.

٣ ـ فوج سنغال مع نصف بطارية ٦٥ على مرتفعات حلوة.

٤ ـ فوج مشاة مع بطارية يمين ويسار الطريق في مخرج الوادي.

٥ ـ فوج مشاة مع نصف بطارية ٦٥ على مرتفعات الكنيسة.

٦ ـ بطارية ٧٥ على شرق مخرج وادي القرن.

٧ ـ بطارية ١٥٥ غربي وادي القرن (أي في مدخله من جهة الجديدة).

٨ ـ لواء الخيالة المُراكشي في منطقة الكنيسة.

٩ ـ سرية مشاة وسرية رشاش على مرتفعات قرية بطرونه.

١٠ ـ فوج سنغال للمحافظة على الأثقال في الجديدة.

١١ ـ الاحتياط بقيادة الجنرال يورود من كوكبة فرسان، فوج مشاة فرنسي، فوج مشاة سنغالي، بطاريتين ٧٥ في عين جديدة.

١٢ ـ مركز القيادة المتقدم على مرتفعات البطرونة.

■ الطيران

١ ـ يقوم باستكشاف عمليات الدفاع وحركات الجيش العربي.

٢ ـ يدعم المدفعية في مهماتها ويساعدها على تحري الأهداف غير المرئية لها.

٣ ـ قصف تجمعات العدو.

وبموجب ذلك توزعت الأهداف والواجبات.

■ الانطلاق

تقررت ساعة الانطلاق في الساعة الخامسة من صباح يوم ٢٤ تموز ١٩٢٠.

■ خطة الجيش العربي

خطة الجيش العربي لم تقرر بطريقتها الأصولية من قبل قائد القطعات المسؤول عن سير المعركة بعد أخذ رأي المختصين من أركان قيادته وقادة قطعاته، بل جرى تقريرها بصورة مرتبكة وشبه ارتجالية وبعيدة عن اعتبارات مبادىء الحرب الأساسية التي يجب على كل قائد مراعاتها عند تقريره الخطة، أكانت المعركة كبيرة أو صغيرة.

فأول ما صدر من أوامر الدفاع عن ميسلون هو الأمر السريع الذي صدر إلى آمر اللواء الأول المقدم حسن الهندي أثناء خروجه من وادي القرن متجهاً إلى دمشق. بأن بلغه قائد نقطة ميسلون أمراً تلفونياً من وزارة الدفاع (وليس من قبل قائد فرقته الذي كان مفروضاً أن يكون في ميسلون لا بشوارع دمشق منهمكاً بتحميس الناس للحرب كما شاهدته بنفسي)، فعندما تلقى آمر اللواء أمر التوقف عن التوجه إلى دمشق والدفاع في ميسلون قام بواجبه على أحسن وجه، فاستطلع المنطقة وقرر خطوط الدفاع الأمامية والاحتياطية ومراكز المدفعية والترصد وكان موفقاً في قراره كل التوفيق بدليل أن تلك المواضع ساعدت على الصمود بعدد ضئيل جداً أمام قوات متفوقة تفوقاً كبيراً وبدليل تحبيذ هذا الخط من قبل وزير الدفاع وقائد الفرقة الذي كان برفقته. وهكذا وجد وزير الدفاع وقائد الفرقة عند وصولهما إلى الجبهة أن القسم الأساسي من خطة الدفاع قد قررها قائد اللواء ولم يبقَ ما يضاف إليها. وكانت في هذه الآونة تتوارد قوات أخرى من هندسة ومدفعية

إضافية ومتطوعة غير التي كانت بأمرة قائد اللواء فألحقت به أيضاً فتكاملت بذلك جبهة الدفاع. والتحق أيضاً بميسلون قطعات راكبة من خيالة نظامية وغير نظامية وهجانة اقتضى اشراكهم في خطة الدفاع، بما يتلاءم مع خواصها كقوات متحركة. وفي هذه الآونة أخبر قائممقام الزبداني بأن فيها ألوف المتطوعة المسلحين المتحمسين الذين يودون الاشتراك في المعركة، وأن هناك أيضاً ألوفاً أخرى من أهالي سرغاية وعصابات ملحم قاسم الذين يريدون الاشتراك في القتال. فتقرر إرسال فوج ومدفعين إلى الزبداني وفيها يتجمع أولئك المجاهدون ليشتركوا معه في المعركة من جهات مرتفعات الزبداني لمهاجمة الجناح الأيسر للقطعات الفرنسية المهاجمة. وهكذا نرى أن خطة الدفاع في ميسلون كانت مرتجلة أملتها الأحوال التي كانت تتلاحق، ولا بأس بالخطط الارتجالية السريعة. فمثل هذه الخطط كثيرة الوقوع ولكن يجب أن لا تكون متفككة وغير منسجمة ومرتبطة ببعضها، وأن تكون الواجبات موزعة توزيعاً منطقياً قابلاً للتطبيق. وأن تكون المسؤوليات واضحة ومركزة لا التباس فيها ولا تشويش. وسيتبين لنا مما سنشرحه من الخطة أن ذلك لم يحصل.

■ الخطة

١ ـ الوقوف بوجه تقدم الجيش الفرنسي الزاحف على دمشق. وذلك بالدفاع في المواضع التي أقيمت بسرعة في مرتفعات عقبة الطين غرب عين ميسلون والمتحكمة بمخرج وادي القرن ووادي الزرزور.

٢ ـ الالتفاف على الجناح الأيمن للقوات المهاجمة ومنع القوات الراكبة من اجراء التفاف على جناحنا الأيسر.

٣ ـ الحركة على جناح العدو الأيسر وتهديده في عين الجديدة ووادي القرن.

■ التوزيع

١ ـ اللواء الأول من الفرقة الأولى والقطعات الملحقة به يدافع في المواضع التي أقامها في عقبة الطين.

أ ـ الفوج الأول من اللواء الأول بقيادة محي الدين البغدادي يمين طريق وادي القرن ـ ميسلون.

ب ـ الفوج الثالث بقيادة الرائد أبو الخير الجابي في يسار الطريق المذكور.

جـ ـ في الجناح الأيمن الفوج الأول من اللواء الثاني مع مدفعين ٦٥ مع المتطوعين بقيادة المقدم توفيق العاقل يتحرك من الزبداني نحو جناح العدو الأيسر.

د ـ الهجانة والخيالة النظامية والمتطوعة تتحرك باستقامة ينطه لستر جناح الدفاع الأيسر.

هـ ـ المدفعية توزع بحيث تصب نيرانها على خطوط تقدم العدو ومدفعيته ولسد الطريق.

و ـ لم نعتمد فيما حققناه على أي واجب أعطي إلى سرية الحرس الملكي التي كانت تتشكل بمجموعها من اليمانيين وهي أتم تنظيماً وضبطاً من جميع القطعات التي كانت في ميسلون. وقد شاهدتها خلال انفراط عقد الدفاع وهي الجماعة الوحيدة التي كانت محافظة على نظام وتسير في المؤخرة بقيادة آمرها.

١٦

المعركة

في الجبهة

منذ الفجر الأول من صباح يوم ١٩٢٠/٧/٢٤ كان جميع من في جبهة ميسلون من قادة ومحاربين متيقظين ومتهيئين ينتظرون نشوب المعركة، وفي الساعة (٤,٣٠) أمر الوزير آمر اللواء الذي كان بالقرب منه أن يفتش الجبهة فذهب إلى الفوج الأول الذي على يمين الطريق وأرسل مرافقه إلى الفوج الثالث على الجناح الأيسر لتنبيه قائده عن قرب نشوب المعركة. ولما لاح ضوء النهار تبين أن الفرنسيين قد وضعوا منذ الليل بطارية مدفعية في فم وادي القرن. وفي هذه اللحظة مرت طائرة فرنسية من فوق الجبهة فرمتها المدفعية وبعض الرشاشات والمتطوعة، كما أطلقت المدفعية نيرانها على مدفعية العدو التي ذكرت أنها كانت في مخرج الوادي. وهكذا نشبت المعركة. بتراشق مدفعية الطرفين، وكانت قنابل المدفعية الفرنسية الثقيلة الموضوعة في الجديدة تصب بنيرانها على الخطوط الأمامية والخلفية. وفي الساعة السادسة اجتاز أحد أفواج المشاة الفرنسية وادي القرن وتخطى المواقع التي أقيمت على الطريق لعرقلة تقدم الدبابات وبدأت الخيالة الفرنسية تتقدم من جناحهم الأيمن

على مرتفعات وادي الزرزور الغربية. وفي الجناح الأيمن اجتاز فوجان من مشاتهم وادي الزرزور وبدأوا بتسلق منحدراته الشرقية بحماية كثيفة من المدفعية والرشاشات. ومن الوسط على جانبي الطريق المزفت كانت الدبابات مع سرية من المشاة قد اجتازت الوادي المذكور والجسر وأزالت الموانع الموضوعة على الطريق الواحد بعد الآخر. وكانت معنويات جنودنا مرتفعة وأملهم بالنصر يزداد كلما شاهدوا تباطؤ تقدم الفرنسيين بالرغم من نار مدفعيتهم ورشاشاتهم الكثيفة، وفي هذه الآونة أصابت الحصن الذي وضع فيه بأمر من الوزير رشاشين قنبلة مباشرة فهدمته على رؤوس الجنود فانسحبوا منه تاركين الرشاشات، ولكن الفرنسيين لم يجسروا على إشغاله حيث بقي نحو الساعة خالياً حتى أعيد اشغاله بعدد قليل من المتطوعين. وكانت الطائرات الفرنسية ناشطة تحوم فوق ميدان المعركة تلقي قنابلها وصليات رشاشاتها على ساحة المعركة والخطوط الخلفية، وكان ثقل المعركة موجهاً إلى الجناح الأيمن نحو الفوج الأول.

وفي الساعة (٨,٣٠) شوهد على الجناح الأيسر في مرتفعات قرية ينطه الاشتباك بين قطعاتنا الراكبة (خيالة وهجانة) والقوات الفرنسية فأمر قائد الفرقة بإرسال عدد من المتطوعة الموضوعين في خلف الفوج الثالث لاسنادهم. ولما اشتد قصف المدفعية والطائرات انسحب أكثر المتطوعة الذين لم يكن لهم سابق معرفة لا بالحرب ولا بالطائرات ولم يبق من المتطوعين الذين كانوا في احتياط الفوج الأول أكثر من ١٥٠، وقد حصل شيء من ذلك في الفوج الثالث أيضاً. هذا عدا من كان منسحباً من الضباط والجنود. ويؤكد جميل البرهاني مرافق قائد اللواء أن مجموع من كان باقياً من الجنود النظاميين في الجبهة عند نشوب المعركة لم يكن ليتجاوز ٢٥٠ محارباً.

■ استشهاد الوزير

في حوالى الساعة الثامنة والنصف وكانت المعركة على أشدها ووضع الجيش العربي لا يزال سليماً ومعنويات الباقين منه جيدة، كان الوزير في نقطة الترصد يراقب جريان المعركة وبالقرب منه قائد الفرقة وآمر اللواء ومرافقه ياسين الجابي ظهرت دبابات العدو وهي تتقدم صعداً على الطريق حتى اجتازت نصف المسافة التي بين أسفل الوادي ومركز الترصد، ولما أصبحت في زاوية غير مرئية لمدفعيتنا توقفت قليلاً ثم تقدمت الدبابة الأمامية وبدأت تصعد الطريق نحو مركز الترصد. وكان الوزير قد وضع كما ذكرنا مدفعاً في أعلى منعطف الطريق من خط دفاعنا يسيطر على جميع المنعطفات من أول الطريق حتى أسفل الوادي. فلما شاهد الوزير تقدم الدبابة والمدفع صامت التفت إلى آمر اللواء الذي كان بقربه وسأله غاضباً ما بال المدفع صامتاً لا يرمي الدبابة؟ أنا ذاهب إليه وأنت اذهب إلى اليمين وثبت الجنود[1]. ولما عاد آمر اللواء إلى محل الترصد وكان ينتظر أن يكون الوزير قد عاد قبله من موضع المدفع لم يجده. وفي هذه اللحظة سمع آمر اللواء من خلفه صوتاً ينادي يوسف بك قتل فالتفت ليرى ضابطاً برتبة وكيل من سرية الرشاش مكشوف الرأس يركب حصاناً أشهب وهو لا يزال يصيح يوسف بك قتل فأمره بالسكوت مهدداً إياه بالمسدس ثم أمر بحجزه في الخلف. وبعد قليل شوهدت دبابة تتقدم على بعد ٢٥٠ متراً فرمتها بعض الرشاشات والجنود فتراجعت مع من كان يحميها من مشاة وغابت عن الأنظار. واستمر ضغط العدو على الجناح الأيمن وكان الجناح الأيسر يتمتع بهدوء نسبي.

---

(١) من مذكرات المقدم حسن الهندي.

يقول جميل البرهاني الذي كان واقفاً قرب آمر اللواء في مذكراته انه بعد حادثة الضابط التي ذكرناها وصل مرافق الوزير النقيب ياسين الجابي وهو بحالة ارتباك وسرد لآمر اللواء كيفية استشهاد الوزير. عندما شاهد الوزير تقدم الفرنسيين داخل الوادي ورفعهم الحواجز وعدم انفجار الألغام وعدم رمي المدفع على الدبابات المتقدمة وسقوط حصن عقبة الطين وانسحاب حاميته واستمرار تقدم الدبابات على الطريق بحيث قاربت مقر القيادة أخذه الغضب وذهب (كما ذكرنا) إلى موضع المدفع وطلب إلى الرامي أن يرمي الدبابة المتقدمة، وفي هذه اللحظة رمته تلك الدبابة بطلقة من مدفعها عيار (٣٧) فأردته شهيداً.

يتبين مما ذكره البرهاني أن ياسين الجابي كان مع الوزير عندما ذهب إلى المدفع وشاهده وهو يستشهد ولكنه لم يكن بقربه بدليل أنه لم يستشهد معه بل تركه هو وعاد إلى مركز الترصد ليخبر امر اللواء.

وقد ذاع خبر استشهاد الوزير بين خطوط المقاتلين فبدأ تسربهم إلى الخلف ضباطاً وجنوداً ولم يبق (حسب قول البرهاني) من القادة سوى المقدم حسن الهندي يقوم بقيادة الجبهة، والأفواج الأمامية لم يبق منها سوى عدد ضئيل، منهم ثمانية جنود مع آمر اللواء يرابط بهم في مكانه. ونحو عشرة جنود من الفوج الثالث يستخدمون رشاشاتهم. أما المدفعية فبعد مقتل الوزير ونفاد ذخيرتها تمكنت من سحب ستة مدافع صحراوية ومدفعين أوبس بعد أن تركت في ميدان المعركة الباقي وعددها (١٩) مدفعاً، وأما قائد الفرقة فعقب استشهاد الوزير ادرك النتيجة فاستحضر ركوبة وقال لآمر اللواء انه ذاهب لتأسيس خط دفاع ثانٍ في مرتفعات الهامة وعاد إلى دمشق.

وفي نحو الساعة الحادية عشرة كان الفرنسيون قد استولوا على جميع الخطوط الأمامية ولم يبق أحد من الأفواج. كما لم يبق في نقطة الترصد مع آمر اللواء سوى مرافقه ومعهم سبعة جنود، ولم يعد أمامهم سوى الانسحاب، فأمر مرافقه بالانسحاب قبله مع نصف هؤلاء الجنود ليحمي هو والنصف الآخر انسحابهم وأن يحموا انسحابه بعد وصولهم إلى الهضبة التي خلفهم. وهكذا كان هذا آخر انسحاب من خطوط القتال في ميسلون.

تسجيلاً لبطولة هذا القائد وكنموذج للقيادة المخلصة انقل فيما يلي نص العبارات التي كتبها مرافقه جميل البرهاني في مذكراته عن هذه اللحظات الأخيرة من المعركة:

> «من ذكريات ميسلون: ما أعظم هذا القائد... لم يقبل أن يترك الجبهة قبلي... بل.... رجح أن يبقى لوحده منعزلاً في الفضاء مع ثلاثة جنود... أمرني أن أذهب قبله من مركز القيادة لأحمي تقهقره... ما أنبله... ما أنبل هذا البطل العظيم... عمل عظيم يجب أن يخلده التاريخ».

وعلى هذه الصورة انتهت موقعة ميسلون في الجبهة، وفي نحو الساعة الثانية عشرة كان يمر من عين ميسلون آخر المنسحبين.

■ الجناح الأيمن

في صباح يوم ١٩٢٠/٧/٢٢ توجه قائد اللواء الثاني المقدم توفيق العاقل من دمشق إلى جديدة يابوس لتلقي الأوامر من قائد الفرقة، وقد أمر قبل مبارحته دمشق أن يجتمع لواؤه في الفسحة التي مقابل التكية السليمانية. وكانت الأوامر التي تلقاها من قائد الفرقة تقضي أن يتوجه مع أحد أفواج لوائه مدفعين جبليين إلى مدينة الزبداني وهناك سيلتحق به متطوعة هذا القضاء وعصابات ملحم قاسم، وأخبره أن قائممقام

الزبداني السيد عز الدين الحلبي قدر عدد هؤلاء بـ ١٥٠٠ مقاتل بين فارس وراجل. وكان الواجب المعطى له يتلخص أن يتحرك مع القوة التي في عهدته مع من سيلتحق به من المتطوعة في ليلة ١٩٢٠/٧/٢٣ من الزبداني إلى قرية «كفر يابوس» ومنها يتسلقون الجروف المطلة على جديدة يابوس والطريق العام المتجه إلى وادي القرن فيهاجمون مقر القوة الفرنسية في الجديدة ويسيطرون على مرتفعات وادي القرن الشمالية فيقطعون خط الرجعة على القوات الفرنسية التي ستهاجم مواقعنا في مرتفعات عقبة الطين، وبذلك يصبح الجيش الفرنسي مطوقاً ومحصوراً في وادي الزرزور ووادي القرن.

وفي الساعة الخامسة من مساء ٢٣ بلغت هذه القوة الزبداني وكان موجودها كما يلي[٢]:

١٦ ضابطاً، ١٦٠ جندياً نظامياً، ٢٥٠ متطوعاً دمشقياً (منهم ١٥٠ دون سلاح)، ٦ رشاشات، مدفعين جبليين. ولما قابل قائد القوة قائممقام الزبداني للاستعلام عن المتطوعة علم منه أن رجال ملحم قاسم لم يصلوا وأن متطوعة الزبداني توجهوا للمرتفعات بانتظار قدوم القوة للالتحاق بها. عندئذ تحركت القوة دون دليل ومعهم القائممقام على الطريق الذي يمر من جنوب مدينة الزبداني إلى كفر يابوس ومنها بدأت تتسلق المرتفعات نحو الجروف التي تطل على الجديدة والطريق العام. قضت هذه القوة ليلتها تتعثر بين منحدرات ومرتفعات هذه الجبال ولم تبلغ التلال المطلة على طريق بيروت ـ دمشق إلا في صباح يوم ٢٤ وبخمسين جندياً فقط دون أن يلتحق بهم أحد من متطوعة الزبداني. وأما المدفعان فلم يتمكنوا من حملهما معهم وبقيا بين التلال. وأخذ هذا العدد القليل الذي وصل

(٢) من مذكرات المقدم حسن الهندي.

موضعاً على المنحدرات ينتظر وصول المدفعين. وفي هذه الآونة كانت المعركة محتدمة بين القوات الفرنسية والعربية في مرتفعات ميسلون. وفي الساعة الواحدة والنصف وصل أحد المدافع ووصل المدفع الآخر في الساعة الثانية والنصف وكان ذلك بعد انتهاء المعركة في ميسلون وانسحاب الجيش العربي منها.

وفي هذه الأثناء وردت من ضباط نقطة الزبداني رسالة إلى قائد اللواء تنبئه أن قوة فرنسية وصلت بالقطار إلى الزبداني وأن المتطوعة سوف لا يبارحون مدينتهم وأن مسلحين من قرية سرغاية هاجمت بعض الجنود وجردتهم من سلاحهم. وبقي هذا العدد القليل مع المدفعين متخفياً بين الصخور طيلة النهار لا يتمكن من أي عمل. فالفرنسيون من أمامه استولوا على ميسلون ومن خلفه اشغلوا الزبداني فلم يبق أمامه سوى الانسحاب ليلاً مستفيداً من الظلام. وما كاد الظلام يرخي سدوله حتى بدأ يظهر لهم من بين الصخور بعض رجال من عصابة الشماط محاولين اغتصاب أسلحة الجند المتفرقين بين الصخور، مما سبب الفوضى وبعض التشويش. وكان قد سبق ذلك أثناء النهار أن رئيس هذه العصابة «حسين الشماط» قد فاوض قائد المفرزة طالباً إليه اعطاءه الرشاشات فصرفه بالتي هي أحسن، وهكذا أتى هذا الوغد مع رجاله ليغتصب أو يسرق ما لم يتمكن من أخذه نهاراً. وشرعت القوة بانسحابها وطلع عليهم فجر ٢٥ تموز وهم في سهل مضايا فاستمروا بمسيرهم على طريق وادي حلبون دون أن يتمكنوا من استصحاب المدفعين، وقد كانت عصابة الشماط تتعقبهم وتقوم بمهاجمتهم طيلة الطريق.

وقبيل بزوغ ٢٦ تموز وصل قائد اللواء ومن تبقى معه من عدد قليل الى قرية معربة، حيث علموا بأن الفرنسيين دخلوا دمشق.

فأودعوا في هذه القرية ما لديهم من سلاح وعتاد وتفرقوا حيث ذهب كل منهم إلى بيته. وهكذا كانت الأعمال التي قام بها الجناح الأيمن والنتائج التي وصل إليها.

■ لواء الخيالة

وهي القوات الراكبة التي مر بنا ذكر تعدادها والتي تتشكل من بقايا لواء الخيالة الأول الذي وصل إلى ميسلون وما تبقى منهم بعد التسريح نحو ستين جندياً ورشاشين و(٣) ضباط (النقيب عزت الساطي والملازمان عبد الله عطفة... وعرب اوغلي) وبقايا لواء الهاشمي الخيال الذي لم يصل منه إلى ميسلون سوى قائده المقدم اسماعيل نامق وبعض الجنود فألحقت الجنود باللواء الأول والتحق قائده بمركز تموين ميسلون فأصبح موجود الخيالة النظامية نحو مئة خيال وضعوا بقيادة النقيب عزت الساطي.

ـ الخيالة المتطوعة وهم ممن اجتمع من أحياء دمشق ودوماً وغيرها وعدد الذين وصل منهم إلى ميسلون نحو (١٥٠) خيالاً. كانوا يسيرون ويترجلون ويستريحون بصورة متفرقة ودون نظام كل حي أو أقارب أو أصدقاء مع بعضهم. فلما وصلوا إلى نقطه ميسلون استقبلهم آمرها وطلب إليهم أن يتجمعوا بالقرب من خان ميسلون وينتظروا توجيهات القيادة.

ـ خيالة فوج الدرك الاحتياطي: (الذين بقيادتي) وعددهم (١٥٠) خيالاً هم العصابات التي مر ذكرها وكانت تعمل منذ أكثر من سنة بقيادة فؤاد سليم في المنطقة التي تمتد من بعلبك حتى الجولان وهي تتشكل في الأصل من رجال تسجلوا لهذه الغاية من دروز الشوف وشراكسة من القنيطرة وأكراد من الصالحية وعدد من بيروت وجبل عامل، وقد انتدبت من الجيش بأمر من الأمير زيد لأقوم بتدريبهم وتنظيم شؤونهم

الانضباطية يعاونني في ذلك أربعة ضباط ملازمين اخترتهم من الجيش ممن يصلحون لهذا الواجب، لأن باقي ضباط هذه القوة لم يكونوا ضباطاً، وكان رجالها نخبة من الرجال الأشداء الأقوياء. ولأجل تأمين احتياجات هذه القوة وضعت في ملاك الدرك وسميت بفوج الدرك ـ الاحتياطي وكانت تعمل تحت اشراف الأمير زيد وتوجيهاته. وعندما صدر قرار الحرب أرسل الأمير قائد هذه القوة فؤاد سليم إلى جهات بعلبك للاتصال بملحم قاسم، الذي كان يتعاون معنا من أجل اجراء الترتيبات معه حول ما يجب عليه القيام به في حالة وقوع الحرب. وهكذا بقيت القوة بقيادتي وكان الأمير يود أن نبقى قريبين منه إلى آخر لحظة ولما تقرر القتال نهائياً أمرني بالتوجه إلى ميسلون وترك لي حرية تقرير العمل الذي ارتئيه. وبعد ظهر يوم ٢٣/٧/ تحركت بالقطار من محطة البرامكة ومعي آمر احدى السرايا الملازم الأول سعيد عمون وكان القطار يعج بالمتطوعين الذاهبين إلى ميسلون وكانوا طيلة الطريق ينشدون الأناشيد الدينية والوطنية وكانوا من مختلف الأعمار فيهم الغلام والشاب والشيخ. وكانوا دون نظام لا رئيس ولا مرؤوس ولا قائد لا يعرف الواحد منهم إلى أية جهة هو ذاهب أو ماذا سيعمل وكل ما في علمه أنه ذاهب للجهاد في سبيل الله وأنه سيقاتل للدفاع عن بلاده.. وكان منظرهم يوحي للمرء الخشوع والاحترام المزوج بالاكبار. وكلما وصل القطار إلى احدى المحطات كانوا ينتشرون بجانبيه ليأكلوا ويشربوا ويدخنوا وينشدوا الأناشيد، وعندما يصلون إلى محطة الحسينية أو التكية كانوا يتركون القطار مستأنفين السير نحو ميسلون على الأقدام وكانوا يسيرون جماعات وأفراداً، كل أفراد حي أو أقرباء أو أصدقاء مع بعضهم منتشرين من المحطة حتى ميسلون. ونزلنا في محطة الحسينية وفيها وجدنا خيلنا بانتظارنا فركبناها وتوجهنا إلى الديماس حيث كان رجالنا وقد

أرسلتهم قبل يومين لانتظاري فيها. وبعد أن فتشت الخيل والجنود توجهنا إلى ميسلون وكانت الخطة التي قررت العمل بها هي أن أسير بعد الظلام إلى خلف القطعات الفرنسية. وعندما تبدأ المعركة نقوم بمهاجمة مؤخرتهم. وكان عليّ أن أخبر قائد الجبهة بخطتي هذه قبل الشروع بها ليكون على بينة وليضع لها حساباً في خطته. ولما وصلت إلى بناء (الدليل جنص) القديم الذي على يمين الطريق قبل الوصول إلى المقبرة بنحو مائتي متر، شاهدت هناك بعض الضباط فقدرت أنه مقر القيادة فأمرت الجنود بالاستمرار بمسيرهم إلى الخان لينتظروني وتقدمت من المقدم الركن الذي كان ينتظرني أمام البناء (شريف الحجار آمر نقطة ميسلون) فحييته وأعلمته بمقدار القوة التي معي وعن الخطة التي وضعتها، فشكرني وقال: نحن بحاجة أن تشترك مع القوة التي في ميسلون، وهناك مشكلة بيننا وبين قائد قوة الهجانة فبإمكانك أنت أن تحلها وهي أننا أردنا أن نعين لقيادتهم ضابطاً لأنهم كما تعلم بدو لا يحسنون القتال مع القوات النظامية فرفض ذلك وهم الآن متجمعون قرب الخان عساك تقنعه بذلك وأنت ذو معرفة بهم، وأنا سأحضر لعندكم بعد قليل لأبلغكم خطة العمل عسى أن نوفق باقناعه. ولما وصلت إلى قرب الخان شاهدت في الساحة التي تحيط به خيالة الأهلين والهجانة مبعثرين هنا وهناك، وشاهدت بجانب جدول الماء قائد الهجانة مرزوق التخيمي مع أمراء سراياه جالسين على سجادة وقربهم دلال القهوة، وبعد أن عينت المكان لنزول جنودي عدت إلى قائد الهجانة فرحب بي وبدأ يشكو من الاهانة التي وجهت إليه عندما أرادوا أن ينصبوا عليه قائداً.

وكانت تربطني بمرزوق التخيمي صداقة منذ أيام الثورة العربية وقد كان «مضايفي» للأمير فيصل (والمضايفي عند

أمراء الجزيرة العربية بمثابة قائد مقر ورئيس تشريفات ومدير أعمال).

بعد وصول الأمير لدمشق جمع كل من كان بمعية الاشراف من هجانة وأضافهم إلى من كان منهم بمعيته وجعلهم حرساً خاصاً له وكنت في وقتها مرافقاً للشريف ناصر على ملاك البلاط فكلفني الأمير زيد أن أعاون مرزوق الذي عين قائداً عليهم بعد أن أعطيت له رتبة مقدم فخري واعتبر من عداد المرافقين. أقول كلفت أن أساعده في تنظيم أمورهم العسكرية ببعض التمارين وبعض التنظيمات الداخلية فيما يتعلق بالضبط والواجبات وغيرها، وبقيت معهم إلى أن كلفت بالعمل مع العصابات التي مر ذكرها.

وبعد أن هدأ مرزوق قلت له إنه عليه القبول بكل شيء في مثل هذا الوقت الذي نحن فيه وإلا حمّلوه مغبة كل ضرر يحصل لأي سبب من الأسباب. وفي هذه الآونة شاهدنا القائد شريف الحجار آتياً فرحبنا به وما كاد يجلس حتى بدأ مرزوق بالكلام معاتباً ثم قال أتريدون أن تعينوا علينا ضابطاً يعلمنا القتال؟ أليس هذا ضابط؟ وأشار إليّ. فعينوه وأنا أقبل به فأجابه المقدم شريف حسناً أنا جئت من أجل ذلك. وهكذا انحلت هذه المشكلة على هذه الصورة وتقرر أن أبقى مع قوة الهجانة، وقال لي بأن خيالة المتطوعة ستكون مرتبطة بنا.

وبدأ المقدم الحجار بتبليغنا أمر الحركات الشفهي ليوم الغد الذي جاء فيه ما يلي:

١ ـ سيبدأ القتال مع الفرنسيين في صباح يوم الغد الباكر.

٢ ـ قوات العدو لواء خيالة ولواء مشاة ولواء مدفعية وسرية دبابات وسرب طائرات.

٣ ـ خيالته وصلت إلى مرتفعات الكنيسة ومقدمته في مخرج وادي القرن الشرقي.

٤ ـ قواتنا لواء مشاة من فوجين وسرية الحرس الملكي ونحو ألف متطوع سيدافعون في المواضع التي أقاموها في المرتفعات التي بغرب نبع ميسلون (عقبة الطين) للسيطرة على وادي الزرزور ومخرج وادي القرن الشرقي.

٥ ـ الفوج الأول من اللواء الثاني مع مدفعين جبليين سيتحركون هذه الليلة من الزبداني ويقوم في صباح الغد بحركة على جناح العدو الأيسر يقصف خلالها مقر قيادته في جديدة يابوس ويتقدم من المرتفعات الشمالية لوادي القرن للسيطرة عليه وقطع خط الرجعة على قطعاته المهاجمة.

٦ ـ ستقوم القوات الراكبة: خيالة الدرك والهجانة والخيالة المتطوعة المتجمعة بقرب الخان والخيالة النظامية المعسكرة بقرب النبع بحركة التفاف على جناح العدو الأيمن فتباغته في مرتفعات الكنيسة قبل حركته منها صباح الغد، لحماية جناحنا الأيسر ومنعه من الالتفاف عليه. يتحرك هذا الرتل في الساعة الثانية من صباح الغد للوصول إلى هدفه المذكور في الوقت المناسب.

وانتهى أمر الحركات على هذه الصورة، لم تكن لدينا خريطة لنستدل بها على الطريق ولما طلبنا من المقدم دليلاً أجابنا أنه ليس عنده أحد ممن يعرفون الطريق، كما أنه لم يذكر لنا شيئاً عن قوة الخيالة النظامية التي سترافقنا ولا عما إذا كانت مرتبطة بنا أم مستقلة عنا. وبعد مغادرته المكان أرسلت بطلب قائد أو كبير المتطوعة فلم نجد لهم قائداً أو زعيماً معيناً فكانوا كما ذكرنا جماعات متعددة. فجمعت بعض رؤسائهم وبلغتهم

موضوع الأمر الذي تلقيناه وطلبت منهم أن يكونوا في الوقت المعين متهيئين للحركة معنا. ووجدت من بين رجالنا اثنين يعرفون الطريق الذي يوصلنا إلى الهدف الذي سنقصده.

في الساعة الثانية تحركنا من مكاننا، خيالتنا في الأمام تليها خيالة المتطوعة ثم الهجانة، وكانت الخيالة النظامية مع الرشاشين قد التحقت بالرتل خلف الهجانة.

وأخرجت من خيالتنا ٢٥ خيالاً ومعهم الدليل كمقدمة. وكان مسيرنا في هذه الأراضي الجبلية الوعرة على هذا الطريق غير المعبد بطيئاً لم يحسب حسابه في توقيت ساعة الحركة، وطلع الفجر ونحن لا نزال بعيدين عن هدفنا وظهر أمامنا وادٍ نجهل طوله ولكن الطريق يمر منه فأمرت القسم الأكبر بالوقوف لانتظار اجتيازه من قبل المقدمة أولاً وما كادت تمر عشر دقائق حتى وصل من المقدمة جنديان يجران غلاماً في نحو العاشرة يقولان انه جاسوس والغلام يبكي ويقول والله ان العسكر السود يتسلقون مرتفعات الوادي من الجهة الثانية. فالتفت إلى مرزوق التخيمي الذي كان بجانبي وقلت له ان الأمر خطير ولا يقبل التردد والأخذ والرد فيجب على الهجانة أن تعقل هجنها وتتسلق جانبي الوادي قبل أن يصل اليه العسكر وإذا كان هذا الغلام غير صادق فلا ضرر من حركتنا. أما إذا كان صادقاً ولم نسبقهم إلى المرتفعات فسوف يقضون علينا جميعاً. ونادى مرزوق رجاله أن يعلقوا[٣] ابلهم ويتسلقوا، وبسرعة غريبة كانوا يقفزون نحو القمة كالأرانب. فالبدوي عندما يعقل ناقته من أجل الدخول في المعركة فإنه يترك فوقها عباءته ولربما كوفيته أيضاً، بحيث يبقى خفيفاً متحرراً من كل ما يعيق

---

(٣) عقل ناقته أي ربط بالعقال الصوف قائمة ناقته اليمنى وهي مطوية بحيث إذا وقفت الناقة تبقى هذه القائمة مطوية والناقة واقفة على ثلاث قوائم. وبهذه الحالة لا تتمكن من سرعة السير، فتبقى في محلها أو قريبة منه.

حركته أو يتعبه، بعكس الجندي الذي يحمل على ظهره حقيبته المملوءة بجميع لوازمه من بساط وغطاء ومعطف ولوازم الطعام والملابس وغيرها مما لا يقل عن ثلاثين كيلو. وما كادت خمس دقائق تمر على بداية تسلق الهجانة حتى وصل أسرعهم الذروة وبدأ الرمي لأنه بمجرد وصوله وجد أوائل جند السنغال قد وصلوا إلى عشرة أمتار من القمة، والطلقة من عشرة أمتار أو خمسين أو مائة متر من بندقية البدوي، لا يمكن أن تخطىء هدفها، فكان قتلى جنود السنغال يتدحرجون من أعلى المرتفعات التي وصلوا إليها إلى الأسفل كالحجارة. وكنت قبل ذلك قد أرسلت ٢٠ خيالاً إلى الميمنة ومثلهم إلى الميسرة. وفي هذه الآونة بدأنا نسمع دوي المدافع وأصوات الطلقات في جبهة ميسلون، وأثناء ذلك وصلني تقرير من الملازم ذهني الدهني الذي كان على الميسرة أنه شاهد رتلاً طويلاً من الخيالة يسير ملتفاً على جناحنا الأيسر، فذهبت سريعاً إلى الميسرة وصعدت بحصاني إلى تل صغير فشاهدت رتل العدو الخيال فطلبت إلى قائد الخيالة النظامية (عزت الساطي) الذي كان قد وصل مع رشاشين و٢٥ خيالاً أن يرمي برشاشاته الرتل فرماه وأجبره على الاختفاء بين المنخفضات وعلمت أن خيالة الأهلين قد فروا جميعهم منذ الطلقة الأولى ولم يبق منهم أحد. وعدت إلى المرتفعات التي تقاتل فيها الهجانة. وفي نحو الساعة الثامنة جاءني تقرير ثانٍ من الميسرة يعلمني أن خيالة العدو عادت للظهور مرة ثانية، ولكن على مسافة أبعد. فعدت إلى الميسرة لأرى أن قسماً من خيالة العدو متجه نحو استقامة قرية دير العشائر فقدرت أنهم يقصدون قطع خط الرجعة علينا وعلى قطعاتنا في ميسلون. ولعلمي أنه لم يكن في مدخل وادي ميسلون في جبهة دير العشائر قوة لحمايته، أمرت الملازم سعيد عمون أن يأخذ نصف عدد خيالتنا نحو (٧٥) ويعود إلى خان

ميسلون (في غرب النبع) ويشغل المرتفعات على مدخل ذلك الوادي. وفي هذه الآونة ازداد تأثير قنابل المدافع والطائرات الموجهة إلينا. وفي الساعة التاسعة والنصف وصلني تقرير من سعيد عمون أن القوات الراكبة تدعمها المشاة تقترب منهم من مرتفعات دير العشائر، فقدرت أن الخمسة والسبعين بندقية التي مع سعيد عمون سوف لا تتمكن من منعهم من قطع خط رجعتنا فاقترحت على مرزوق التخيمي أن ينسحب مع هجانته ليأخذ موضعاً على يسار المرتفعات التي يشغلها سعيد عمون ليسد عليهم الوادي، على أنني سألتحق بهم مع من تبقى معي بعد وصولهم إليها على أن يسحب في البداية نصف قوته وبعد نصف ساعة القسم الآخر. فأمر معاونه أن ينسحب مع ثلاثة سرايا (كل سرية ٧٥ هجاناً تقريباً) إلى الموضع الذي عينته على أن يبقى مرزوق مع القسم الثاني. ولكن الذي حصل انه ما كاد يصدر لهم الأمر بالانسحاب حتى قاموا جميعهم وانسحبوا مرة واحدة وفقدت السيطرة عليهم بسبب أن طائرتين كانتا قد اكتشفتا مكان الهجن فوجهت قنابلها عليهم فاختلطت ببعضها وعلا صراخ أصحابها وأصبح أمرهم فوضى وجرفوا معهم الخمسة وعشرين خيالاً نظامياً مع رشاشاتهم. وبقيت مع الخيالة الذين معي (٧٥ تقريباً) فأخذنا مواضع على تلول تبعد قليلاً عن مدخل الوادي الذي كانت عليه. وأثناء انسحاب الهجانة كنا نشاهد أهالي قرية حلوه وهم يرمون جنودنا المنسحبين من فوق التلال التي في أسفل قريتهم.

وفي هذا الموقف قدرت أن الهجانة قد خرجوا عن سيطرة قائدهم وهجنهم التي أصبحت تشكل هدفاً كبيراً للطائرات المستمرة بمطاردتها لا يمكن ضبطها وسوف يستمرون بالانسحاب وأنه لم يبق فائدة من بقائنا في هذا الموقع ومن الضروري أن ننسحب إلى الموقع الذي أرسلت إليه عمون

لمحاولة سد الوادي بوجه الفرنسيين. ولكن قرية حلوة المسيطرة على طريقنا أصبحت تشكل خطراً علينا فقررت معالجـة أمرهـا أولاً. وفي الساعة العـاشرة جمعت الجنود وتقـدمنا راكبـين من خلال منعرجات التلول ومخابئها حتى إذا أصبحنا على مسـافة قريبة من قرية حلوه ترجلنا بعد أن تـركنا خيلنـا مع مـاسكيها وتوجهنا إلى القرية المذكورة فقابلونـا بالـرصاص ولكننـا تغلبنا عليهم فـانهزمـوا ووصلنا القـرية فـاستقبلنا من كـان فيها من شيوخ ونساء. وأما الشبان المسلحون فقد كانوا مختفين ولأجل جلب عطفنا عرضوا أمامنا قتيلين وقعا من طلقاتنا فقبضنا على رجلين منهم فكبلناهما بالحبال وسقناهما أمامنا بعد أن أنـذرت أهالي القرية بأننا سنقتلهما إن سمعنا طلقة واحـدة تطلق علينا من قريتهم أو من جوارها.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة وصلنا إلى المرتفعات التي كان عليهـا الملازم سعيـد وكانـوا صامـدين في مواقعهم وعلمت أن الهجانة استمروا بانسحابهم ولم يبق لهم أثر، وكانت المعركة في عقبـة الطين قـد ضعفت ومدفعيتنـا لم يعد يسمـع لها صـوت وطلقات مدافع الفرنسيين تقع على عين ميسلون وخلفها وأصبح واضحاً أن المعركة انتهت وأن قطعاتنا بحالة انسحاب. فقدرت أنه لم يعد بإمكاننا أن نمنع استيلاء العدو على ميسلون وتبدل موقفنا وأصبح واجبنا حماية انسحـاب قطعاتنـا المتراجعـة في داخـل وادي ميسلون، لأن العـدو استولى عـلى أكثر مـرتفعات عقبة الطين. وبعد قليل سـوف يصل إلى المـرتفعات المطلـة على العين والمسيطرة على الوادي فقـررت أن أتسلق القمة الشرقيـة للـوادي (هي القمة التي فـوق مقبرة الشهـداء) والسيطرة من فوقها عـلى جميع الـوادي وما يسيطـر عليه من تـلال. فأمـرت سعيـد عمون أن يبقى مـع من كان معـه في المواضـع التي هو فيهـا بعد أن أخبـرته بـالعمل الـذي سأقـوم به وأنني سـوف

استمر بمتابعة حماية ما تبقى من الجنود المنسحبين من أعلى القمة وسوف أواكب تراجعهم على طول امتداد الوادي، وبعد ذلك أصبح كمؤخرة لهم، وطلبت إلى سعيد أن يبقى في مكانه ليمنع تقدم الفرنسيين كما يفعل الآن ومتى وجد منهم ضيقاً عليه أن ينسحب من خلف القمة التي سنرتقيها نحن ويلتقي معنا في ملتقى سهل الديماس في المرتفعات. وعندما وصلنا إلى رأس القمة شاهدنا الفرنسيين وقد وصلوا إلى مرتفعات عقبة الطين، وقطعاتنا لم يبق منها في الوادي سوى سرية الحرس الملكي التي كانت قد اجتازت الوادي وأصبحت بالقرب من قرية الديماس. وكان الفرنسيون بطيئين ومتحرزين في تقدمهم وكانت طلقاتنا يمتد تأثيرها على طول امتداد الوادي والتلال المشرفة عليه. وانقطعت نيران المدفعية عنها ولم يبق سوى الطائرات الحائمة التي كانت تلقي بعض القنابل الصغيرة وبعض الصليات من رشاشاتها ولكن دون تأثير ودون أن نحسب لها حساباً. وبقينا ننسحب على طول الهضاب الممتدة إلى غرب طريق دمشق - بيروت إلى أن وصلنا في نحو الساعة الثانية إلى الهضبة التي تشرف على الصحراء فاجتمعنا وجلسنا لنأخذ قسطاً من الراحة منتظرين وصول باقي إخواننا مع سعيد عمون. لقد أصبح الطريق إلى دمشق خالياً وكان آخر من مر منه سرية الحرس الملكي مع قائدها النقيب محمد علي العجلوني وبقيت هذه السرية محافظة على نظامها وضبطها. علماً أن جميع أفرادها من اليمانيين وقد كانوا في جيش الثورة مجموعين أيضاً في سرية واحدة تسمى (سرية اليمانيين) وهم من أشجع وأطوع ما رأيت من الجنود.

وبعد نصف ساعة من الانتظار قررت الاستمرار في المسير ظناً مني أن عمون ربما يكون قد سبقنا. كما قررت أن لا أتبع الطريق العام وخجلت أن أدخل منه إلى دمشق بهذه الصورة،

فقررت أن أتوجه من داخل الصحراء نحو تلول المزة ومنها إلى دمشق. وفي منتصف الصحراء شاهدنا عن بعد طائرة جاثمة على الأرض، فلما وصلنا إليها وجدناها فرنسية خالية من طياريها فحاولنا احراقها فلم تمكننا الريح التي كانت تطفىء أعواد الثقاب فتركناها ونحن نشاهد على بعد نحو كيلومترين إلى يسارنا رتل خيالة العدو يتقدم نحو استقامة قطنا.

ووصلنا إلى المرتفع المشرف على قرية المزة وهناك جمعت كل من معي من ضباط وجنود وقلت لهم إننا نجهل الآن ما سوف يكون عليه مصير البلاد، ولذلك يجب أن نأخذ أمرنا بالتأني فلا نتحرك بسرعة قبل أن نتحقق من الموقف، وأرى أن ننقسم إلى فئتين الأولى الدروز ومن يريد أن يرافقهم يذهبون إلى قرية جرمانا في الغوطة والقسم الآخر الأكراد ومن يريد أن يرافقهم يذهبون إلى حي الأكراد في حي الصالحية، وهناك تنتظرون منا خبراً إما أن تعود حكومتنا فندبر أمورنا معها وإما أن تزول الحكومة ويكون هناك عمل مقاومة فنعمل به أو خلاف ذلك مما لا نعلم. وهكذا توجه كل قسم في اتجاهه وبقي معي فقط الملازم ذهني الدهني. ونزلنا من القمة التي كنا فيها ومررنا من قرية المزة ولما وصلنا إلى قرب الدار التي كان يسكنها الأمير زيد شاهدنا من بعد أمام الدار جمعاً كبيراً وكلما اقتربنا كانت تتضح لنا وجوه الأشخاص إنهم الملك فيصل، الأمير زيد، الشريف ناصر الشريف جميل، الدكتور أحمد قدري، جعفر العسكري، تحسين قدري، راسم سردست، الأمير عادل أرسلان، رستم حيدر، عبد الله الدليمي، صبحي الخضرة، فؤاد سليم، علي جودت الأيوبي وغيرهم نحو خمسين رجلاً وخيل وعدة سيارات ركوب. وكان الجميع مسلطين أنظارهم إلينا. ولما اقتربنا أكثر سمعت الأمير زيد يقول للملك هذا صبحي ولما وصلت ترجلت وربطت حصاني في حديد شباك

الغرفة التي على الطريق وتقدمت من الملك حييته بالتحية العسكرية. فرد التحية بإشارة خفيفة وكان واجماً فسألني الأمير زيد من أين أنت آتٍ؟ قلت من ميسلون (ويظهر من سؤاله أنهم كانوا متعجبين من مجيئي، من هذا الطريق) فسألني ما هي آخر الأخبار، أجبته أننا كنا آخر المنسحبين فلم يبق هناك أحد فجميعهم انسحبوا، وكان جميع الواقفين يصغون إلى كلامي باهتمام، وما كدت انتهي حتى التفت فيصل الى سائق سيارته الذي كان قريباً منه وأشار إليه فشغل السيارة وتقدم بها إليه واقترب مرافقه تحسين قدري ففتح له الباب فدخل فيها واستدار تحسين وركب بجانب السائق دون أن ينبث بكلمة لا هو ولا أحد من الحاضرين. وسارت السيارة نحو الغرب، فالتفت إليّ الأمير زيد وقال لي: هيا أسرع وسر خلف السيارة لبينما نلحق بكم ولكنني أشرت له إلى حصاني المربوط وقد تباعدت قوائمه وخفض رأسه يكاد أن يهوي إلى الأرض، فلاحظ أنه لا يمكن ركوبه (وكان قد مر عليه مثلي اربع وعشرون ساعة دون راحة ودون طعام) فأومأ الأمير إلى أحد رجاله وكان يمسك بفرس من جنس (انكلو عرب) كان قد استقدمها الأمير من الهند، فقدمها إليّ فامتطيتها بسرعة وسرت بها نحو الاستقامة التي سار بها الملك، وعندما أصبحت خارج القرية شاهدت السيارة بجانب طريق حواكير الصبارة المتجه إلى قرية داريا، ولما رآني الملك هكذا مسرعاً أمر بتخفيف سرعة سير السيارة وهكذا كنت أسير خلفها وبعد قليل شاهدنا خيالاً شاهراً بندقيته يتوسط الطريق وهو ينظر إلى السيارة فوقفت السيارة ونظر إليّ الملك من الشباك الخلفي فتقدمت من الرجل وسألته لماذا أنت واقف هكذا فسألني بدوره بغضب وأنت مالك ومالي فأسرع من لمح البصر وجهت إليه بندقيتي وقلت له اخفض بندقيتك ولا تتلفظ بكلمة فستكون آخر كلماتك وكانت كلماتي وأنا في هذا الوضع اليائس شديدة وحازمة لا تقبل

التردد. فخاف الرجل فخفض بندقيته واستدار وساق حصانه فقلت له وهو سائر إياك أن تلتفت فإن لفتتك وموتك سيكونان واحداً، وهكذا ابتعد فأشرت إلى السيارة فاستمرت بسيرها ولما مرت من أمامي رأيت فيصل قد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة لا تريد كثيراً من الذكاء حتى يستشف منها الإنسان، إنها ابتسامة فيها خيط رفيع من الرضا والكثير من الألم. واستدارت السيارة إلى اليسار على طريق قرية داريا وما كدنا نقطع مائتي متر حتى شاهدت السيارات مقبلة نحونا، وكنا وصلنا إلى تحت مجموعة من أشجار الجوز فوقفنا تحتها. ووصلت السيارات متلاحقة فأول ما وصلت سيارة الأمير زيد ثم الشريف ناصر والشريف جميل وغيرها وكانت كل واحدة منها ملآنة بالرجال بأكثر من حمولتها وترجل من في السيارات ملتفين حول الملك، ولم أعد أعلم ماذا جرى بعد ذلك، إلا أنني وعيت على نفسي وأنا في مدخل محطة الكسوة فشاهدت بجانب الطريق سيارة كميون تشتعل فيها صفائح بنزين، وعلمت فيما بعد أنه بعد وصولنا إلى شجرات الجوز والتحاق السيارات لم يبق بي قدرة على التحمل بعد ذلك الجهد الطويل وسيري خلف السيارة هذه المسافة الطويلة فسقطت من على الفرس مغمياً عليّ فوضعوني بإحدى السيارات حتى وصلنا إلى محطة الكسوة.

وهكذا الدهر دخل فيصل دمشق وبرفقته جيش كبير وخمسة آلاف فارس تستقبله البلد بالأزهار والرياحين وزغاريد النساء ودموع الفرح، وهكذا خرج من دمشق وليس معه سوى مرافقه تحسين قدري وكاتب هذه الأسطر.

وكان الملك قبل مبارحته دمشق إلى الكسوة قد أخبر مجلس الوزراء بقراره وطلب إليهم بموافاته إليها. وتوجهوا إليها بقطار خاص يرافقهم عدد كبير من العاملين في القضية الوطنية

مدنيين وعسكريين أكثرهم ممن كان يتحسب من انتقام الفرنسيين. ولم يتخلف من أعضاء الوزارة سوى وزير المالية فارس الخوري ورئيس الشورى علاء الدين الدروبي. وكان جلالته قد ترك في العاصمة رئيس أمنائه احسان الجابري وكبير مرافقيه نوري السعيد ليبقى الأول على اتصال بما يجري من أمور داخلية وسياسية وليقوم الثاني بالاتصال بالجيش الفرنسي وليوافيه الاثنان بما يجد من الأمور.

وفي اليوم التالي لوصولنا إلى الكسوة أي في ٢٥ تموز ١٩٢٠ دخل الجيش الفرنسي دمشق وبعد أن استعرضه الجنرال غوابيه في شارع النصر ومرّ من شوارعها الرئيسية توزع على ثكناتها العسكرية. ويظهر أن الأخبار التي كان يرسلها الجابري ونوري السعيد كانت أخباراً مطمئنة، وفي برقية أرسلها نوري السعيد إلى رئيس الوزراء يشير إلى حصول اتفاق مؤقت بينه وبين الفرنسيين على بقاء الحكومة الحاضرة إن هي إذاعت أن ما حصل كان دون رغبتها السلمية، وأن يقيم الفرنسيون في المزة لمدة مؤقتة ولا يتدخلوا بغير الأمور التي تتعلق بتنفيذ مواد الانذار، أما جنود الجيش العربي القدماء (أي من كانوا قبل التجنيد الالزامي) فيبقون في الخدمة بعد أن يجري تحويلهم إلى درك، وتبقى الشرطة داخل المدينة لحفظ الأمن. إلى أن يقول: ان وجود جلالة الملك قريباً من دمشق ضروري، وأنه ينتظر توكيلاً تحريراً للمفاوضات السياسية، وأن البلدة هادئة تماماً.

وحضر إحسان الجابري إلى الكسوة ليخبر الملك أنه اجتمع بالقنصل الايطالي (المركيز دوبارزنو) وعلم منه أن الفرنسيين سيعلنون انتهاء العهد الوطني وملكية فيصل، وقد كلفوا القائمين بالتعاون معهم بتقديم عريضة يدعمون بها قرارهم وأن بعض هؤلاء العملاء أعلن أن بيعة الملك فيصل قد سقطت

بعد أن ترك عاصمة ملكه. وأوصى ممثل ايطاليا السيد الجابري أن يعود الملك إلى دمشق ليحبط هذه المؤامرة وليكون اخراجه من قبل الفرنسيين بالقوة.

وتجاه هذه الأخبار بدأ الملك باستشاراته للحاضرين يسألهم رأيهم بالحل المناسب. فانقسم الرأي إلى قسمين منهم من كان يشير بالعودة إلى العاصمة وأن يسعى لحل المسألة حلاً سياسياً بداعي أن جلالته قبل شروط الفرنسيين ولم يعلن عليهم حرباً وأنه ملك البلاد الشرعي وليس يخشى أن تساء معاملته. وكان القائلون بهذا الرأي أكثرهم مدنيين ومن سوريا الداخلية. أما العراقيون والفلسطينيون ورجالات المنطقة القريبة من مدنيين وضباط فكانوا يرون أن يظل جلالته مرابطاً في الكسوة وأن يعيد عهد الثورة العربية بأن يرهق الفرنسيين بحرب عصابات ينوؤون بعبئها. وكان جلالته في البداية يميل إلى الرأي الثاني خصوصاً وقد وافاه قطار من شرقي الأردن فيه عدد كبير من مشايخ العشائر والوجوه حضروا كمقدمة للنجدة التي كانت ستأتي للاشتراك بحرب الفرنسيين وقد وصلوا متأخرين. وقد أعرب عن رأيه هذا بقوله انه يفضل أن يموت جندياً شريفاً على أن يعيش ملكاً ذليلاً. وفي هذه الأثناء وصل الكسوة نوري السعيد وأعلن انضمامه إلى القائلين بالرأي الثاني في إثارة حرب عصابات يكون مسرحها حوران وجبل الدروز لأنه أصبح يعتقد أن التوسط السلمي والطرق السياسية لا تجدي نفعاً مع الفرنسيين.

ومع أن الرأي الثاني كان هو رأي الكثرة، ومع أن جلالته كان أميل إليه فيظهر أن الأخبار التي جاءه بها احسان الجابري من القنصل الايطالي أثرت به فارتأى اللجوء إلى الوسائل السلمية في معالجة الأمور. ورأى أن أول ما يجب عمله في الحل السياسي هو تأليف وزارة تنال رضى الفرنسيين. ولما كان يعرف

أنهم يعتمدون على علاء الدين الدروبي فقد أرسل إليه مرسوماً بتأليف وزارة جديدة مرفقاً بقائمة تحتوي أسماء الوزارات موقعة على بياض ليقوم بإملائها هو بالأشخاص الذين يختارهم.

وهكذا قرر الملك العودة إلى دمشق بالقطار نفسه الذي جاءت به الوزارة. وقبل الحركة استدعى الأمير زيد فؤاد سليم وصبحي الخضرة وكاتب هذه الأسطر وأبلغنا قرار العودة وطلب إلينا أن نقوم بمجرد دخولنا دمشق بالاختفاء في مكان أمين لأننا كنا مطلوبين من قبل الفرنسيين بسبب اشتغالنا بالعصابات على أن نخبره بالأمكنة التي سنتخبىء فيها ليتصل بنا عند الحاجة، وأن هذا الترتيب مؤقت إلى أن يتضح الموقف. فشرحت لسموه وضع رجالنا الذين أرسلتهم إلى قرية جرمانا وحيّ الأكراد وبأنهم ينتظرون أوامري هناك ورجوته أن يعفيني من العودة إلى دمشق ويسمح لي أن التحق بهم. فإذا لم تسر الأمور كما يجب فيبقى أمامنا مجال للمقاومة على طريقة من الطرق ورجاه صبحي وفؤاد سليم أن يسمح لهما بالذهاب إلى فلسطين حتى يتبلور الوضع (لأن صبحي الخضرة من فلسطين وفؤاد نسيبه) فاستشار سموه جلالة الملك فوافق على ذهابهما إلى فلسطين على أن يلتحقا به إذا علموا بوصوله إلى حوران(٤) وأبى إلاّ أن أرافقهم بالعودة إلى دمشق فانصعت للأمر.

وبعد ظهر ذلك اليوم ٢٧ تموز عدنا بالقطار، وبوصولنا لمحطة القنوات ذهبت تواً لبيت شقيقتي حيث اختبأت وجاءني أخي عمر فأخبرته عن ضياع سعيد عمون وطلبت إليه التحري عنه. ولم يطل غيابه حتى عاد ومعه سعيد فتعانقنا وكان فرحي به

---

(٤) يظهر أن جلالته كان ينتظر أن يخرجه الفرنسيون من دمشق ولكنه قبل العمل بنصيحة القنصل الايطالي، أن يخرج بالقوة بدل أن يخرج كفارٍّ من ميدان المعركة.

غظيماً جداً. وكنا نسكن مع سعيد في دار واحدة في حي عرنوس فلما تخلص من الأسر وتوجه للبيت وجده أخي بقربه.

وحدثنا سعيد عن الذي وقع له فقال: بعد أن تركتمونا في المواضع التي ندافع فيها تقدم الفرنسيون واحتلوا الهضاب التي على يسارنا والتي انسحبت منه الهجانة فأصبحنا تحت خطر التطويق فأمرت الجنود بالانسحاب إلى الهضاب التي خلفنا والتي أمرتنا بالانسحاب إليها للالتحاق بكم وما كدنا نخطو الخطوة الأولى وقبل أن نترك المواضع التي نحن فيها حتى أسرعت كوكبة من خيالة العدو فدخلت بيننا وبينكم وأصبحنا مطوقين. ولما امتطيت حصاني جفل بي فوقعت على الأرض وأغمي عليّ، فما شعرت بنفسي إلاّ وأنا بين الجند السنغالي وبعض الفرنسيين وهم يقومون بقتل من وقعوا بأسرهم من الجند والمتطوعين وقد قتلوا جميع من وجدوهم بألبسة مدنية وأجهزوا على الجرحى وقد حاولوا قتلي ولكن شعري الأشقر ولون بشرتي البيضاء وتكلمي معهم بالفرنسية جعلهم يظنون أنني من أعوانهم كما يبدو. ولما هدأت هذه الفورة جمعوا من تبقى من الجنود وأنا معهم وساقونا خلف الجيش إلى دمشق وسلمونا إلى قيادة الموقع في شارع النصر وكان معاون قائد الموقع المجاهد الشهيد شوكت العائدي. فبعدأن استلمنا صرفنا على مسؤوليته فذهب كل منا في حال سبيله. فلما جئت إلى البيت ولم أجد فيه أحداً صرت أتجول بأطرافه فشاهدت عمر وهو يفتش عني.

وفي مساء يوم ٢٧ تموز أي في اليوم نفسه الذي عدنا فيه إلى دمشق سلم الكولونيل تولا إلى جلالة الملك الكتاب التالي:

أتشرف بابلاغ سموكم قرار حكومة الجمهورية الفرنسية بأنها ترجو منكم أن تغادروا دمشق بأسرع ما يستطاع بسكة حديد

الحجاز مع عائلتكم وحاشيتكم وسيكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص يتحرك من محطة الحجاز غداً في ٢٨ تموز في الساعة الخامسة صباحاً.

فرد جلال الملك على هذا الكتاب ببرقية احتجاج مطولة للجنرال غورو جاء فيها انه لا يعترف للحكومة الفرنسية بحق نزع اختصاص منحه له مؤتمر الصلح رسمياً لإدارة المنطقة الشرقية ولا نزع اللقب الذي منحه إياه الشعب وأن هذا الاجراء يخالف جميع المعاهدات والاتفاقات والقرارات التي سبقته. وسلم نص هذا الاحتجاج إلى جميع قناصل الدول في دمشق إلّا أنه لم يكن بد من تنفيذ هذا الحكم ولو كان جائراً.

وفي مساء ٢٨ منه أرسل سمو الأمير يطلبني فذهبت وبرفقتي سعيد عمون فكان سروره وسرور جلالته به عظيماً بعدما كنا نظن باستشهاده. فأمرنا أن نتهيأ للسفر في القطار في الساعة الخامسة من صباح الغد. وفي تلك الليلة أرسلت خبراً لرفاقي في حي الأكراد بسفرنا وبأنهم أحرار بتصرفاتهم وبأنني سأتصل بهم إذا حصل ما يوجب ذلك وطلبت إليهم أن يرسلوا بذلك علماً لأخواننا الذين في قرية جرمانا.

وفي الساعة المعينة كنا سعيد وأنا في المحطة وكانت تعج بحاشية الملك وبعض المودعين ومن تبقى من جنود الهجانة الذين نفقت إبلهم في المعركة. أما من بقيت إبلهم سليمة فقد أرسلوها إلى درعا على الطريق. وكان بصحبة الملك عدا أخيه الأمير زيد وحاشيته جعفر العسكري ونوري السعيد وسكرتيره الخاص عوني عبد الهادي ورئيس أمنائه إحسان الجابري ومرافقه الخاص تحسين قدري وطبيبه الخاص أحمد قدري والأمير عادل أرسلان وسعيد عمون وكاتب هذه الأسطر. ولم يصطحب من وزرائه سوى ساطع الحصري وكان في وداعه في المحطة عدد قليل من المواطنين.

أما ما حصل في حمص وحلب: فالفرنسيون كانوا قد خصصوا قوات للاستيلاء على كل منهما كما ذكرنا وأثناء عمليات قواتهم الرئيسية في التقدم إلى دمشق، كانت كل من هاتين القوتين تتقدم للاستيلاء على هدفها.

■ في حمص(٥)

كانت القوة التي في حمص نحو فوج مشاة وبطارية مدفعية بقيادة الزعيم زكي العظمة وقد وصله أمر التسريح متأخراً حيث أعقبه أمر عدم التسريح والاستعداد لمجابهة الفرنسيين إذا ما تقدموا نحو حمص. وعندما علم القائد بتقدم القوة الفرنسية المحتشدة في منطقة تل كلخ جمع قواته لمقابلتهم وتقدم على الطريق المتجه إلى تل كلخ ولحق به عدد من الأهالي المسلحين الذين دفعتهم الغيرة الوطنية وعدد من خيالة الدنادشة وعدد كبير من العشائر البدوية برئاسة الشيخ ابن مجلاد. وخرجت هذه القوة من حمص وعلى رأسها قائد موقع حمص الزعيم العظمة: المشاة ثم المدفعية ثم الأهالي المتطوعة، وفي المؤخرة البدو بقيادة ابن مجلاد. أما خيالة الدنادشة فكانوا في مقدمة الجيش. وفي المساء بات الجند في موقع متوسط بين حمص وتل كلخ، دون أن تكون لدى القائد فكرة تهيئة موضع دفاع. وفي صباح اليوم التالي تقدموا على الطريق باستقامة تل كلخ، ولم يمر وقت كبير حتى شاهدوا طليعة الجيش الفرنسي تتقدم، ففتحت المدفعية نيرانها عليهم دون أن تكون هناك خطة معينة كأن القصد هو إطلاق مدافع. ونفدت القذائف القليلة وبنفادها انتهت واجبات جميع الجيش وبدأ

(٥) حصلت على هذه المعلومات من السيد عدنان الأتاسي وهو ممن عاشوا هذه الأحداث وشاهدوها وهو ابن رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي وكان وزيراً مفوضاً لسوريا في باريس ثم نائباً عن حمص وأحد أبرز أعضاء حزب الشعب.

التراجع غير المنتظم، وبطبيعة الحال جرف معه المتطوعة من أهالي حمص والدنادشة. وهكذا انقلب هذا التراجع إلى هزيمة. وهنا بدأت واجبات البدو. ان عقوبة الهزيمة بعرف البدو (في كل وقت وزمان وظروف ومكان) هي السلب، يجب عليهم أن يسلبوا جميع المنهزمين، فلم يدعوا أحداً يفلت من أيديهم.

وعند العصر وصلت سرية خيالة فرنسية بقيادة كابتن وهي السرية التي كانت في مقدمة الجيش الفرنسي. وقد شاهدوها وهي تتقدم في الشارع الرئيسي وفي مقدمتها قائدها الكابتن شاهراً سيفه ويسير بجانب حصانه على قدميه قائد موقع حمص الزعيم العظمة. ان هذا الكابتن لم يطلب قائد الموقع ولا فتش عنه وكان بإمكانه أن يغرب عن الأنظار أو ينسحب إلى خارج البلدة، ولكنه حضر حسب تفكيره لأجل أن يسلمه ما في عهدته من أمكنة ومهمات كي لا يكون مسؤولاً عنها في المستقبل.

وبهذه الصورة المخزية دخل الفرنسيون حمص دون قتال.

■ في حلب

فقد حدثني عما وقع فيها مساعد لواء الفتح وهو الملازم الأول شمس الدين علي (وفيما بعد الزعيم قائد المخابرات العسكرية في الجيش العراقي) ولواء الفتح هذا هو من الهجانة والذي قاتل الجيش التركي في حوران واشترك في هزيمته فدخل دمشق في أعقابه ثم قام بمطاردته حتى وقوع الهدنة في شمال حلب. وبعد الهدنة تحول إلى لواء خيالة وسمي بلواء الفتح وكان قائده العقيد تحسين علي (وزير دفاع في الجيش العراقي فيما بعد) وكان معاونه الرائد الركن بكر صدقي (الفريق قائد الفرقة ثم وزير الدفاع وهو صاحب الانقلاب العسكري الأول في العراق سنة ١٩٣٦).

يقول محدثي انه عندما وصلت أوامر تسريح الجيش وجرى التسريح تلكأ قائد اللواء بذلك ولم ينفذ الأمر. ولما صدر أمر الغائه والتهيؤ للحرب كان أمر التسريح في قطعات الفرقة قد نفذ ولم يبق سوى هذا اللواء وبطارية المدفعية الملحقة به قبل أمر التسريح. وكان اللواء معكسراً خارج المدينة. واتصل قائده برؤساء عشاير البدو التي كانت تتجمع وبدأ بتهيئة الخطة الدفاعية تجاه القطعات الفرنسية التي كانت تتقدم نحو حلب. وفي هذا الوقت الذي لم يبق فيه قطعة من وحدات الفرقة النظامية سالماً قام العملاء الخونة الذين باعوا أنفسهم إلى الأعداء بما عهد به إليهم فنشطوا في اذاعة البلبلة وروح الهزيمة بين الضباط والجنود وأشاعوا أن قائد اللواء ومعاونه وباقي الضباط العزاقيين لا يهمهم أمر سوريا وأنهم سيسببون بقتالهم الفرنسيين الضرر للبلاد التي لا يهمهم أمرها وينسحبون إلى بلادهم. وفعلت هذه الدعاية فعلتها في ضِعاف النفوس فخارت عزائمهم وبدأوا بمغادرة المعسكر حتى وصل الأمر ببعض الضباط من هؤلاء أن أعلن رأيه وتمرده وذكر لي محدثي أسماء اثنين منهم قائد سرية الرشاش سعد الله الذي كان معاوني قبل أن أنتقل إلى دمشق وهو الضابط الذي اعترف لي بخيانته بعد سنوات كما مر. والضابط الثاني اسمه الملازم ملك. وهكذا بقي الضباط العراقيون وحدهم في اللواء فاصطحبوا عائلاتهم وتوجهوا إلى دير الزور ومنها إلى الموصل فبغداد وتفرقت العشائر ودخل الجيش الفرنسي حلب بلا قتال.

١٧

مغادرة دمشق

كم كان شعورنا مؤلماً ونحن نبارح دمشق التي دخلناها قبل سنتين بفرحة الفتح والتحرير ونتركها الآن وقد غمرت نفوسنا خيبة الأمل وذل الانكسار. كنا نشاهد بهذه الساعة الأليمة النيران المتأججة من ناحية سوق الحميدية وكأن دمشق التي استقبلتنا قبل نحو سنتين بنيران الحرائق التي أشعلها الأتراك في القدم قبل مبارحتهم لها أبت إلّا أن تودعنا بنيران الحسرة تتأجج في قلبها (حريق سوق الحميدية) وصفر القطار ومشى وكأن صفيره آهات وحسرات.

وصل القطار إلى درعا وتوقف في محطتها، وكانت درعا مركزاً للفرقة الثالثة وقائدها العقيد اسماعيل الصفار وهو عراقي وكان معنا في القطار ثلاث شاحنات بنزين عائدة لسيارات الملك التي اصطحبها معه فتقرر أن توضع في مستودعات البترول التي كانت في المحطة تحت حراسة الجيش وعددها ٧٠٠ صفيحة. اتخذ الملك القطار محلاً لمنامه ونصب في مواجهته خيمة كبيرة للاستقبال وبدأ مشايخ حوران يحضرون للسلام عليه. وفي اليوم التالي أي في ٢٩ تموز جاءت طيارات فرنسية تحوم فوق درعا وتلقي مناشير تهدد بها الحوارنة وتحرضهم على طرد فيصل، وفي اليوم نفسه جاءت برقية من رئيس الحكومة السورية علاء الدين الدروبي إلى متصرف حوران

يطلب إليه فيها تبليغ الملك أن الفرنسيين يطلبون إليه مغادرة درعا إلى الحجاز. وقبل ذلك كان زعماء الحوارنة قد أبلغوا الملك أنهم سيكونون إلى جانبه إن هو أمنهم أن الانكليز سيدعمون حركتهم وإلا فإنه ليس بمقدورهم الوقوف بجانبه، وأمام هذه الأحوال لم يبق أمام فيصل سوى طريقين عليه اتباع احداهما. إما أن يعود إلى الحجاز وينفض يديه من جميع ما قام به من أعمال ويعود إلى أول الطريق الذي بدأ منه سيره في بداية الثورة أو أن يذهب إلى أوروبا لإكمال ما شرع به من عمل للوصول إلى ما لم يتمكن الوصول إليه بالحرب. وهكذا قرر الطريق الثاني وتوجه إلى حيفا.

وفي عصر ٣١ تموز أرسل جلالة الملك يطلبني فذهبت إليه في صالونه في القطار وكان يقف بجانبه أخوه الأمير زيد، قال لي الأمير ان قائد الفرقة رفض أن يعيد إلينا البنزين بحجة أنه أصبح ملكاً للحكومة وأنه لم يبق لنا صفة تخولنا أخذه وهو مصرّ على ذلك فاذهب وأرغمه على تسليمها ولو بالقوة وكان الأمير يتكلم بتأثر والملك متجهم متألم، فتألمت أكثر منهما ثم قال الأمير إن مشايخ عقيل هناك وقد أمرتهم أن يتبعوا أوامرك، نزلت من الصالون حيث كان أمراء سرايا عقيل مجتمعين بجانب خيمة الأمير ينتظرونني. قلت لهم أين جماعتكم قالوا حاضرين. وفي الحقيقة شاهدتهم متجمعين وكانوا نحو (٣٠٠) قريبين منا قلت لهم انتظروا هنا في مكانكم. وذهبت إلى مقر الفرقة وكان في براكة قريبة منا فانتحيت بقائد الفرقة وقلت له جئت لاستلم البنزين العائد للملك. قال هذا البنزين عائد للحكومة، قلت له بل هو عائد للملك ونحن جئنا به إلى هنا والملك أمرني ان أستلمه. قال، أنا لا أعترف بالملك قلت له ولكنني أنا أعترف وسأطبق أمره فانتفض من مكانه وقال أتهددني قلت له الأحسن يا سيدي أن تسلمنا البنزين دون

اراقة دماء فالمسألة خرجت عن كونها مسألة بنزين وصارت مسألة كرامة، فأنا سآخذ البنزين حتماً إما بالتي هي أحسن أو بالدم. فتوقف قليلاً يحدجني بنظرات فاحصة ثم قال «طيب روح اعمل يلي تقدر عليه» فحييته وخرجت، وسمعته وأنا أخرج يسأل أحدهم من هذا؟ أخبرني فيما بعد أحد أصدقائي من الضباط الذين كانوا حاضرين أن أحدهم قال له: هذا فلان وهو من رؤوس العصابات الخطرين وإذا قال فعل ولا بد أنه يعتمد على هؤلاء الهجانة وكنت متجهاً نحو مستودع المحروقات وقد قررت أن أطلب تسليمها من قبل آمر الحرس عساني أقنعه قبل أن نضطر لاستعمال السلاح فسمعت من خلفي قائد الفرقة بالذات يناديني باسمي وهو خارج البراكة فعدت إليه فقال لي أرجو أن تكفينا شرك وتترك هذه المسألة فأجبته وأنا أرجوك يا سيدي أن تحقن الدماء فوالله لا أرجع حتى أستلم البنزين وكنت قد شعرت منه الضعف فأردت أن أزيد في ضعفه بمزيد من القوة. دعاني إلى داخل البراكة وقال: انت مصرّ قلت: نعم، قال أتعطيني وصلاً بالاستلام. فقلت: أجل وكتبت له وصلاً وأعطى الأمر بالتسلم[1]. وعدت إلى الملك وكان عنده الأمير وجعفر العسكري ونوري السعيد فأخبرته بما فعلت فظهر السرور على وجهه وابتسم وقال: بارك الله فيك وحسناً تصرفت، وأمر الهجانة بنقل البنزين إلى الشاحنات.

واسماعيل الصفار عاد فيما بعد إلى العراق ولكنه لم يقبل في الجيش ولا في الوظائف المدنية ولولا هذا التصرف الشائن الذي قام به لكان له في الجيش العراقي مركز حسن.

---

(١) وقد علمت فيما بعد بأن الفرنسيين حكموني في المحكمة العسكرية بالسجن المؤبد وبتغريمي خمسة آلاف جنيه ثمن الـ ٧٠٠ صفيحة بنزين وعلقوا هذا الحكم على باب دار الحكومة في دمشق.

وقبل حركة الأمير من درعا تقرر أن يتوجه الشريف محمد علي البدوي مع الهجانة إلى شرقي الأردن، وتوجهوا إليها فعلاً.

وفي اليوم التالي في ١ آب ١٩٢٠ تحرك بنا القطار من درعا فوصلنا حيفا في النهار نفسه. وقد خصص حاكم حيفا بيت المس (نيوتن) لنزول الملك وأخيه وكانت هذه السيدة تعطف على قضية العرب. ونزلت باقي الحاشية في أوتيل نصار وقد أصبحت واحداً منهم. خلال وجودنا في حيفا توارد اليها بشتى الوسائط الكثير من الذين بارحوا دمشق خوفاً من أذى الفرنسيين وهذه أسماء بعضهم:

الدكتور أحمد قدري، خالد الحكيم، محمود الفاعور، يوسف ياسين، الأمير عادل أرسلان، عمر شاكر، رياض الصلح، بهجت الشهابي، سعد الله الجابري، محمد علي الخيمي، نبيه العظمة، سليم عبد الرحمن، جميل مردم، شكري الطباع، شكري القوتلي، معين الماضي، سعيد حيدر، سعيد عمون، الشيخ كامل القصاب، توفيق الخيمي، خير الدين الزركلي، صبحي الخضرة، ياسين دياب، عزت دروزه، عثمان قاسم، فؤاد سليم، توفيق اليازجي، عبد القادر سكر، الشيخ عيد الحلبي، رشيد طليع، عبد الحميد الشالجي، اسماعيل نامق، عبد الله الدليمي، راسم سردست، صبيح نجيب وغيرهم.

وخلال وجودنا في حيفا كانت في كل يوم تصلنا أخبار أن الفرنسيين بعد احتلالهم دمشق وحلب وباقي مدن سوريا تدريجاً بدأوا باعتقال الأحرار من عراقيين وسوريين فهرب البعض إلى فلسطين ومصر والحجاز وشرقي الأردن والعراق وتركيا وقد ركزوا اهتمامهم على جمع العراقيين لما كان لهم من نشاط في الحقلين السياسي والعسكري. وساقتهم إلى جزيرة أرواد وكان عددهم يبلغ نحو ١٥٠ معظمهم من الضباط. ومما

هو جدير بالذكر أن الفرنسيين خلال قيامهم بأعمال الإفساد أثناء الحكم الفيصلي كانوا يبثون فكرة التفرقة بين السوريين والعراقيين بواسطة أذنابهم وجواسيسهم ومريديهم، وقد استفادوا من وجود عدد كبير من العراقيين في وظائف الدولة فصاروا يحرضون قليلي الوطنية وقصيري النظر لنشر هذه الشائعات. ومع الأسف ان بعض العراقيين قد أثرت فيهم هذه المعاملة التي عوملوا بها من قبل الفرنسيين واعتبروا وكأنها موجهة إليهم من السوريين. بينما السوريون كانوا أشد منهم أسفاً على ما وقع لهم وقد قضى العراقيون المعتقلون في أرواد بضعة أشهر إلى أن أصدر الانكليز العفو العام في العراق في سنة ١٩٢١ فعادوا إليها. ولم يكن لدى الملك حين مغادرته سوريا شيء يذكر من المال فأبرق لوالده يطلب إرسال شيء منه. وتقرر أخيراً سفر الملك إلى أوروبا وبلغني جعفر العسكري أنني سأكون ضمن الحاشية التي سترافق جلالته؛ وفي ١٧ منه عاد فبلغني أن الحاشية اختصرت وحددت بعدد قليل، ولذلك تقرر أن أنتظر عودة الملك من أوروبا في القاهرة مع الشريف ناصر وهكذا سافر جلالته بتاريخ ١٨ آب إلى سويسرا عن طريق ايطاليا لملاحقة القضية العربية وسافرت مع الشريف ناصر بالقطار يوم ٢١ آب من حيفا إلى القدس ومنها إلى القاهرة وكان معنا في القطار صبحي الخضرة وفؤاد سليم وسعيد عمون وغيرهم فنزلنا في أوتيل (جوردن هوس) وذهب سعيد لبيت والده، وهكذا انتهى العهد العربي الأول في سوريا.

الخاتمة

إلى هنا، انتهينا من سرد الوقائع التي جرت خلال هذه الفترة من الحكم العربي في سوريا التي تعتبر بحق من أهم الفترات التي مرت بالأمة العربية، لأنها كانت نهاية لغفلة وبداية لجهاد استمر ربع قرن بللته الدموع وصبغته الدماء. وسنحلل في هذا الفصل الختامي الأعمال التي قمنا بها والأخطاء التي ارتكبناها؛ والأعمال مهما كان نوعها حسنة كانت أو سيئة، موفقة كانت أو فاشلة لا بد لها من أشخاص قاموا بها، فنحن لا نقصد أولئك الأشخاص بذاتهم بل القصد أن نأخذ العبرة من أعمالهم لنضعها أمام أجيالنا المقبلة عساها تتخطى ما وقعنا فيه من أخطاء.

الحقيقة جوهرة تختفي بين أكوام من الأخطاء، والأيام مستمرة في سيرها لا تتوقف، ونمط الحياة يتبدل، ويتحول، والعقول تتطور، فالمهم في أمرنا أن نتعظ بأخطائنا لنصلح أعمالنا وأخلاقنا ونحسن سيرنا.

أكتب في هذا الجزء عن أحداث مر عليها أكثر من نصف قرن من الزمن وقد كنت في حينها لا أزال شاباً لم أتخط العشرين من عمري ليس لي من العلم ما يتجاوز نطاق عمل العسكري الشاب ولم يكن في وسعي أن أنتقد أي عمل عسكري أو

سياسي أو اجتماعي قام به أحد أولئك الأشخاص المحترمين الذين سيأتي ذكرهم، أما الآن وقد تجاوزت السبعين فتعلمت خلال هذا النصف القرن الماضي ما لم يكن قد أتيح عمله إلا للقليلين ممن سأذكر أعمالهم، فخدماتي العسكرية التي تطورت عما كان بعلمهم قد تجاوزت من بعدهم العشرين سنة أي ضعف سني خدمات أولئك العسكريين. إن الأحداث السياسية التي مرت خلال هذه الحقبة من الزمن تطورت وتنوعت وتكشف الكثير من خفايا ما مر علينا منها. فعلمتنا ما لم يكن في علمهم وعلمنا وأتاحت لنا إمكانية تحليل الأمور واستجلاء الحقائق.

ما كادت بريطانيا حليفة العرب وصديقتهم اللدود تشعر بقرب انهيار الجيش التركي وأن الحرب على وشك الانتهاء وحاجتها للعرب أوشكت أن تزول حتى بدأت بتهيئة الأمور لتطبيق خطتها الاستعمارية المبيتة مع حليفتها فرنسا، فباشرت عملها بمجرد وصول جيشها إلى دمشق وقبل أن تعلن الهدنة وتنتهي الحرب.

أول ما فعلته هو إيعازها إلى لورنس أن يغادر البلاد العربية عائداً إلى انكلترا. لأن واجب لورنس في الخديعة قد انتهى وأن الأمور ستسير بعد ذلك على طريق غير الطريق الذي وضع لورنس من أجله في ميادين الثورة العربية، فيجب في هذه الحالة أن يكون بعيداً عن هذا الطريق الجديد. لقد كان للورنس في الثورة العربية واجبان، الأول خبير ومستشار للقائد العام الجنرال اللنبي في الشؤون المتعلقة بالثورة العربية بصورة عامة وبالجيش الشمالي بصورة مخصوصة. والثاني أن يبقى متصلاً بالأمير فيصل ليجعله مطمئناً للصداقة البريطانية وحسن نيتها ووفائها للعرب وأن يدخل في ذهنه أنه كلما أخلص العرب في ولائهم ومساعدتهم لبريطانيا ازداد اضطرارها للوفاء لهم بعهودها وتقديم المزيد من معوناتها وصداقتها. ولهذا أصبح

من الضروري إبعاده بعد أن تغيرت المعادلة.

الأمر الثاني الذي شرعت به بريطانيا كخطوة أولى في سبيل تطبيق مخططها الاستعماري هو تقسيمها القطر السوري إلى ثلاث مناطق، ففلسطين تحت الحكم البريطاني العسكري المباشر بإمرة جنرال بريطاني، والسواحل السورية تحت ادارة حاكم فرنسي، وداخل سوريا ادارة عربية يرأسها الأمير فيصل وجميع هؤلاء الحكام يتبعون القيادة البريطانية بصورة حكم مؤقت لبلاد العدو المحتلة. وكان هذا التقسيم وهذه التعيينات تنطبق بصورة واضحة لا تقبل الشك على أنها شروع بتطبيق معاهدة سايكس ـ بيكو التي أصبح أمرها مفضوحاً ومعلوماً للجميع، وأول عمل قام به الجنرال اللنبي هو جلبه للقوة الفرنسية التي كانت في جيشه إلى بيروت وطرد المفرزة العربية الصغيرة التي وصلت إليها وإنزال العلم العربي عن المباني الحكومية. ومن هذه الحادثة بدأت الأخطاء السياسية والعسكرية العربية تتعاقب.

■ الأخطاء السياسية

ان أول الأخطاء التي ارتكبها فيصل والتي جرّت خلفها سلسلة من الأخطاء، هي قبوله بهذا الإجراء الذي أعلنه الجنرال اللنبي عن أنه قرار مؤقت لإدارة شؤون بلاد العدو المحتلة إلى أن يبت بها في مؤتمر الصلح. فكما أن فرنسا أقامت الدنيا عندما رفع العلم العربي على سارية دار الحكومة في بيروت وطلبت إلى اللنبي انزاله لأن ذلك يخالف الاتفاقية معها، كان يجب على فيصل أن يقيم الدنيا أيضاً لأنها مخالفة لمعاهدة بريطانيا مع الحسين، ولأنها تدل على المباشرة بتطبيق تلك المعاهدة المشؤومة التي عملت بريطانيا كل ما في وسعها لإنكار وجودها. فسكوت فيصل على هذا الإجراء ليس له معنى سوى

الضعف وعدم الاستعداد للحزم. وأخيراً الاستعداد للقبول به، الأمر الذي جرأ الانكليز للإقدام على خطوات أخرى ثم أعترافهم بوجود تلك المعاهدة ثم مداوراتهم حول ما جاء في معاهدتهم مع الحسين.

لم يكن في معاهدة الحسين مع بريطانيا أي غموض فيما يختص بأستقلال البلاد العربية لا من حيث الاستقلال الناجز ولا من حيث الحدود. أما النقطتان اللتان ترك حلهما لما بعد الحرب وهما مصالح الانكليز في بغداد والبصرة ومصالح الفرنسيين في لبنان فهي للمذاكرة بأمر هذه المصالح وتسويتها لا من أجل المساومة على استقلال البلاد ووحدتها، فمفاوضات الحسين دارت ورست على استقلال البلاد العربية المشرقية عموماً واستقلال سوريا الطبيعية ووحدتها بما فيها فلسطين. أما معاهدة سايكس ـ بيكو فهي استعمار واضح وتجزئة بل تفتيت ليس له مثيل في التاريخ.

كان على الملك حسين وفيصل أن يتخذا تجاه هذا الإجراء الذي قامت به الحكومة البريطانية بتطبيق تلك المعاهدة موقفاً حازماً لا يقبل الشك ولا التردد وأن يجاهرا بعزمهما وإصرارهما على مطالبتهما بتنفيذ ما اتفقا عليه مع الانكليز وعدم السكوت عن أي إجراء يخالفه. وبما أن طرد المفرزة العربية من بيروت وإنزال العلم العربي جرى قبل وقوع الهدنة بينما كان الجيش العربي لا يزال في طريقه إلى حلب. فكان على فيصل بمجرد وقوع الهدنة بعد أيام من ذلك الحادث أن يجمع جيشه الشمالي بأجمعه (وهو الجيش الذي كان يقارع ٢٥ ألفاً من الجيش التركي) في المنطقة الشرقية المواجهة للسواحل السورية بحيث يجعل بريطانيا وفرنسا تشعران أن العرب مصممون على الاستمرار في القتال في سبيل حقوقهم ومستعدون لفتح باب القتال مع أي جبهة كانت في هذا السبيل.

رب سائل يقول: هل كان بإمكان هذا الجيش الصغير مقاتلة الانكليز والفرنسيين؟ نجيب على ذلك أنه كان بإمكانه التغلب على ذلك الجيش الفرنسي دون صعوبة، وأن الانكليز لم يكونوا في ذلك الوقت مستعدين للدخول بحرب مع حليف لهم قاتل بجانبهم وله معهم معاهدة من أجل إرغامه على قبول ما يخالف جميع ما أعلنوه للعالم من أن حربهم مع الألمان كانت من أجل تحرير الشعوب، وكانت تلك البيانات لا تزال ترن في آذان العالم، وإذا فرضنا أنهم قرروا إرغام العرب بقوة السلاح، فما هو إذاً الموقف الصحيح الذي كان يجب على العرب أن يتخذوه؟ لقد كانوا أمام أمرين: اما أن يتخلوا عن موقفهم كمناضلين عن حريتهم ويقبلوا أن يصبحوا أذلاء مستجدين لحقوقهم، وإما أن يبقوا أبطالاً مقاتلين في سبيل حريتهم وكرامتهم، ولو فعلوا ذلك لما وصل الأمر للقتال، لقد تبين من المحفوظات السرية البريطانية التي كانت تدور في تلك الأوقات والتي نشرت أخيراً أن الحكومة البريطانية كانت تسعى مع حليفتها فرنسا لإلغاء معاهدة سايكس ـ بيكو وكانت ترغب أيضاً في الوقوف عند أقل النصوص فيما يتعلق بوعد بلفور، ولو لم تلمس من العرب هذا الموقف الضعيف المتردد لما ضعفت أمام الفرنسيين واليهود للحد الذي وصلت إليه.

إن بريطانيا لم تخط خطوتها الثانية في سبيل تنصلها من معاهداتها مع العرب إلا بعد أن رأت تلك السهولة في خطوتها الأولى بتقسيمها البلاد إلى المناطق التي جرى عليها الاتفاق في تلك المعاهدة وتبين لها بأن تحولها عن اتفاقها مع العرب سيكون أسهل عليها من نكولها عن معاهدتها مع الفرنسيين وعهدها لليهود، ولما نجحت بريطانيا بخطوتها الأولى أقدمت على خطوتها الثانية بأن كلفت الملك حسين بصفته حليفاً أن ينتدب عنه إلى مؤتمر الصلح من يمثله، واقترحت عليه أن يكون هذا

المندوب الأمير فيصل بالذات وكان لهـا في ذلك قصـدان: الأول أن يشركوا معهم في تنصلهم مما ارتبطوا به مع الحسين سـائر الدول المشتركة في المؤتمر، والقصـد الثاني هـو تحويـل الأمير فيصل من صفته كقائد ناجح لأحد جيوش الحلفـاء إلى مندوب سياسي لم يسبق له ممارسة السياسة وألاعيبهـا، فالفـرنسيون رفضـوا استقبـالـه في بـاريس كـأمـير ابن ملـك الحجـاز والبريطانيـون لم يسمحوا لـه أن يدخـل معهم في حوار بشـأن معاهدتهم مع والده للحد الذي وصلوا فيه لإنكارها.

وهكذا أصبح الأمير فيصل بهذا الموقف مندوباً سياسياً يساوم من أجل استقلال سوريا غير المعترف به (استقلال الحجاز كان مبتوتاً بـه) بعد أن كـان قائـداً لأحد جيـوش الحلفاء المنتصرة يحمل الراية العربية المعترف بها، وهكذا نزلوا بـه (من حيث لا يـدري) من مرتبـة القائـد المنتصر المتحمس المعتز بنضـاله إلى مرتبة المستجدي لحقه، ومع مرور الأيام واستمرار هـذا الموقف الضعيف تعـوده، فأثـر على حمـاسه كقـائـد عسكـري منتصر ليجعل منه سياسياً ضعيفاً يحاول أن يستخلص الحق من أبرز وأقـوى السـاسـة العالميـين لأقوى الـدول الاستعماريـة في ذلك الزمن.

ذهب فيصل إلى الغرب على رأس وفد ليمثـل والده المعتـرف به دوليـاً ملكاً للحجـاز ولكنه بـواقع معـاهدتـه مع الانكليـز التي شملت مصـالح الجـزيرة العـربية بصـورة عـامـة والقطـرين العراقي والشامي بصورة مخصوصة جعلت منه ممثلاً ومتكلماً باسم هذين القطرين، إذاً ذهب هذا الـوفد ليـدافع عن حقـوق العرب وطلب تنفيذ ما تعاهد عليه والده مع بريطانيا التي بدأت تتضح نواياها بالنكول عما تعاهدت عليه. ومعـاهدة سـايكس ـ بيكو التي اقتسمت بموجبها قطري العراق والشام والتي كانوا يخفون أمرها قد أصبحت معروفة وبدأوا بتطبيقها دون تحفظ.

فهذا الوفد الذي ذهب للدفاع عن حقوق تتعلق بمستقبل سائر عرب المشرق والذي سيجد نفسه أمام أعظم سياسيي عصرهم المنتصرين كما ذكرنا يتألف من الأمير فيصل الذي لم يسبق له ممارسة السياسة مع الأجانب ولا سبق له إجراء مفاوضات من هذا النوع وثقافته العامة لا تساعده على الدخول في حوار سياسي مع هؤلاء السياسيين المحترفين الذين مارس كل منهم السياسة ومسؤوليات الحكم منذ عشرات السنين كلويد جورج وكرزون وبلفور وغيرهم من الانكليز وكليمنصو وغيره من الفرنسيين. أما مستشاروه أو أعضاء وفده رستم حيدر وعوني عبد الهادي وجميل مردم فقد كانوا لا يزالون شباباً تخرجوا من جامعة باريس خلال الحرب أو قبلها بقليل، والطبيب أحمد قدري تخرج قبلهم بقليل. أما فائز الغصين وهو خريج كلية الحقوق العثمانية فإنه لم يمارس في حياته الوظيفية أكثر من عضوية محكمة في أحد الأقضية. والأمر المهم الذي جعل فيصل يميزهم ويجعلهم من مستشاريه هو كونهم من حزب الفتاة. انني لا أقصد بما ذكرته الحط من شأن أي واحد منهم ولكنني أقصد أنهم في ذلك الوقت بمن فيهم الأمير فيصل لم تكتمل معلوماتهم ولا توسعت مداركهم بما فيه الكفاية للقيام بهذا العبء الكبير الذي ألقي على عاتقهم. وفيصل الذي كان عليه في الدرجة الأولى مفاوضة بريطانيا لم يكن في وقتها لا هو ولا أحد من مستشاريه يعرف اللغة الانكليزية ولم يصطحب معه ترجماناً موثوقاً، وعندما وصل إلى باريس ثم إلى لندن ألحقوا به لورنس (أصبح من موظفي وزارة الخارجية البريطانية) الذي أصبح له الدليل والترجمان والمستشار والصديق، يوجهه إلى الطريق الذي يتلاءم مع الخطة البريطانية. كان من الخير للمصلحة العربية أن يتكون الوفد الذي سيرسل الى مؤتمر الصلح من رئيس وأعضاء تتلاءم كفاءتهم العلمية وممارساتهم السياسية على قدر الإمكان مع

المهمة التي سيضطلعون بها كمفاوضين باسم الحسين (صاحب المعاهدة) وأن يبقوا مرتبطين به يتلقون تعليماتهم منه. فالحسين عليم بمراحل مفاوضاته وبما اتفق عليه ويشعر بحساسية كبيرة تجاه المسؤولية التي أخذها على عاتقه بخروجه على السلطان أمير المؤمنين في سبيل استقلال العرب، فالحسين مخلص للقضية العربية التي أصبحت قضيته التي ترتبط بها سمعته وشخصيته قبل أي شخص آخر وهو عنيد ومتين وصلب في سبيلها بما فيه الكفاية وفوق الكفاية، فكان يجب أن يبقى الحسين وحده المهيمن على المفاوضات وأن يبقى الأمير فيصل على رأس جيشه الشمالي يدعم هذا الوفد بهذا الجيش الذي يجب أن يقوم خلال المفاوضات بتوسيعه وتقويته بتشكيلات شعبية وتوعية قومية تشمل جميع طبقات الشعب. وبذلك يبتعد أيضاً عن الخطيئة التي ارتكبها بقبوله العرش خلافاً لرأي والده الأمر الذي شجعه عليه الفرنسيون ولم يثنه عنه الانكليز.

والغلطة الثالثة هي: انتماء الأمير فيصل ونائبه الأمير زيد إلى جمعية الفتاة وتعيين الوزراء وكبار الموظفين من هذه الجمعية، لقد سبب هذا الإجراء إعطاء الحكم صفة الحزبية مما أفسح في المجال للتفرقة في الوقت الذي كانت فيه البلاد في أشد الحاجة لوحدة الكلمة، فالحزب مهما كثر عدد أعضائه فإنهم يبقون أقلية ضئيلة يوجهها عدد من الأشخاص ممن لا يخرجون عن كونهم بشراً لكل منهم مزاياه من قوة وضعف. ونحن كأمة متخلفة قد استفاقت لتوها من غفوتها الطويلة جداً تحت حكم جاهل ظالم، لا تزال تحاول فتح عيونها وهي تحت تأثير فرحة الانعتاق والشعور بالشخصية فقد أضاعت اتزانها، تصفق لكل من يدغدغ عواطفها. وفي مثل هذه الحال يكثر الانتهازيون الذين يعرفون أن أقرب الطرق التي توصلهم إلى

مصالحهم هي إرضاء مَن بيدهم الحكم، والحكام في بلادنا عادة لا يرتاحون للمعارضة والانتقاد، فكل من يعارضهم خصم مهما كان مخلصاً في نقده وكل من يؤيدهم صديق مهما كان قصده ومهما كان ماضيه، وبمثل هذه الحالة يجد الحكام أنفسهم تحت تأثير دوي التصفيق فيظنونه التأييد من أكثرية الشعب، كما يظنون سكوت الشعب الذي تعود الصبر على الضيم سكوت الرضى. وهكذا يبقى الحكام في بلادنا تحت تأثير المنافقين والانتهازيين وضعاف النفوس بعيدين عن أكثرية الشعب الذي يمارسون الحكم باسمه. وبهذه الصورة قام أول حكم عربي من قبل أشخاص لم يسبق لهم الاضطلاع بمسؤولية الحكم فلم يحسنوا لا تأسيسه ولا تسييره. وتحت تأثير حزب أمضى زعماؤه السنوات العشر الماضية يطالبون بالاصلاح دون أن يكون لديهم تخطيط لما بعد الاستقلال.

وأعطيت الأولية في أسلوب الحكم للعاطفة وليس للعقل ورُفع الشارع إلى مقام القيادة. وهو أمر له ما له من مخاطر.

■ **عدم التخطيط**

لم يكن لهذا العهد خطوط عريضة مدروسة من قبل اخصائيين وخبراء في الأمور السياسية والعسكرية والاقتصادية لتكون بمثابة الغاية القصوى التي يسعى للوصول إليها بشتى الطرق، ولذلك أصبحت البلاد متروكة لتأثير الأفكار والأهواء المختلفة للأشخاص والأحزاب وللارتجال وضغط الأحداث، وبذلك انفتح الباب واسعاً أمام الدساسين والعملاء لإشاعة الشك والتردد.

من الأخطاء أيضاً ـ **عدم دراسة أوضاع الأقليات** المذهبية والعنصرية بصورة علمية ومعالجة أوضاعهم وإزالة ما علق بنفوسهم من جراء ما مر بهم في العهد التركي.

■ **اهمال الخونة والعملاء:** لقد أورثنا الحكم التركي مئات الألوف من العناصر الموالية للأتراك وللخلافة، هذه العناصر التي لم تهضم بعد الحكم العربي كالأتراك والشركس والألبان، وغير هؤلاء كان مئات الألوف من العرب الذين لم يهضموا بعد قيام الثورة العربية مع الحلفاء ضد الأتراك المسلمين. فمن خلال هذه العناصر التي تمثل نحو نصف الشعب السوري وجد الفرنسيون والانكليز طريقهم إلى شراء العملاء والجواسيس وإشاعة الفوضى والتردد وعدم الثقة بين الشعب والجيش. وقد أصبح هؤلاء من الكثرة بحيث وجد منهم من كان يشغل أكبر الوظائف وبعض الوزارات والحكومة تدري بهم ولكنها اتبعت معهم سياسة المداراة وعدم المبالاة حتى تفاقم خطرهم وكانوا في استيلاء الفرنسيين على سوريا الداخلية أكثر فائدة لهم من جيشهم، وإذا أمعنا النظر في مجرى الأحداث التي تعاقبت فإننا نجد أن هذا الاستيلاء قد تم بجهود العملاء والجواسيس لا بجهود جيشهم فقط وبنتيجة إهمال المسؤولين وضعفهم في مكافحة هؤلاء الخونة.

■ **الأخطاء العسكرية**

أولها الخطيئة الكبرى التي ارتكبت في هذا العهد وهي إلغاء جيش الثورة الذي تكلمنا عنه ونوهنا أن المسؤولين عن ذلك هما ياسين الهاشمي الذي اقترحه والأمير فيصل الذي وافق عليه. إنها أكبر غلطة ارتكبها الأمير فيصل (كما اعترف بذلك فيما بعد) والتي كانت السبب الأول في خسارة موقعة ميسلون وبالتالي السبب في زوال الحكم العربي من سوريا، لقد ألغي جيش الثورة دون داعٍ وهو جيش منظم كان يحارب منذ سنتين وكان منتصراً في جميع المعارك التي خاضها ضد الأتراك الذين كانوا يفوقونه بالعدة والعدد. لقد تشكل هذا

الجيش وتجمع لغاية وطنية فاقتحم الصعاب والأخطار في سبيلها فتحملها وتقدم بها من نصر إلى نصر حتى وصل بها إلى هدفها الأول فأثبت للعدو والصديق أهليته وقدرته. وكانت العناصر التي يتكون منها هي أولى الأسباب في أمر توفيقه ونجاحه، فطبيعة تجمع هذه العناصر وطبيعة الأخطار التي تلازم طريقة تطوعهم وإلتحاقهم بعملهم كانت تجعل منهم بصورة عفوية مجموعة نظيفة، مخلصة ومتحمسة وقد ربط كل منهم مصيره ومقدراته بمصير هذه الثورة القومية. لقد الغي ليشكل عوضاً عنه جيش جاء ضباطه من فلول الجيش التركي المنهزم، أكثريتهم لا يتحسسون بالشعور القومي ولا تزال العثمانية تملأ عقولهم وقلوبهم، لقد ألغي الجيش الذي ختم الحرب بالغلبة والانتصار ليشكل عوضه جيش بضباط ختموا الحرب بالهزيمة والانكسار.

لقد أطلقت يد الهاشمي في قيادة الجيش بصورة مطلقة ليس لها مثيل فكان بإمكانه أن يفعل ما يشاء ودون معارضة، وقد اضطلع بأمر هذه القيادة منذ دخول الجيش العربي إلى دمشق في ١ تشرين الأول ١٩١٨ حتى يوم اعتقاله من قبل بريطانيا بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٩ أي ١٣ شهراً و٢٢ يوماً وهي القسم الأكبر من المدة التي استمر فيها الحكم العربي، وكان يصرح خلال ذلك أن بإمكان الجيش محاربة الفرنسيين والتفوق عليهم.

ولكن عندما حان وقت الجد قال بعدم إمكان صموده أمام الجيش الفرنسي لأكثر من ساعتين، ولما سأله ساطع الحصري عن سبب التناقض بين قوليه أجابه أن الأحوال قد تبدلت منذ ترك الجيش[1]. ولما أوشكت أن تقع المواجهة وكلف أن يكون

(١) كتاب يوم ميسلون للحصري.

ضابط ركن للأمير زيد في قيادة الجبهة رفض وأبى أن يتحمل المسؤولية.

نحن لا نقول ان الهاشمي فعل ذلك عن سوء قصد، فالهاشمي كان وطنياً مخلصاً ولكنه كان معقداً وغير موفق لا في إلغائه لجيش الثورة ولا في تشكيله جيشاً بديلاً فأبقى البلاد بلا قوة تدافع بها عن كيانها، وأعتقد أنني لا أحتاج إلى دليل إذا قلت ان الهاشمي لم يكن بالكفاءة التي تتلاءم مع المسؤولية التي أنيطت به. ربما أكون أول من يقول هذا في حق ياسين الهاشمي ولكن أن الواقع هو الذي يقول ذلك والأمور بنتائجها. بقي الهاشمي في سوريا بعد دخول الفرنسيين ولم يرافق الملك في مبارحته لها، كما فعل غيره من العراقيين لأنه كان مشغولاً بإكمال البناية التي كان قد شرع ببنائها في محلة عرنوس. ولما ذهب بعد تصفية أعماله إلى العراق. كان الأمير فيصل قد أصبح ملكاً فيها وكلف قائد جيشه الشمالي في الثورة جعفر العسكري ورئيس ركنه نوري السعيد بتأسيس الجيش العراقي فأسساه ووفقا بذلك أي توفيق وكان خير الجيوش في الشرق الأوسط في ذلك الوقت. وابتعد الهاشمي عن العمل في الجيش وزالت عنه عقدته التي تكلمنا عنها وأصبح الزعيم السياسي الأول ورئيساً للمعارضة. وأفاد واستفاد. وسنرى كيف ختم حياته السياسية بما ختم به حياته العسكرية رحمه الله. لقد استمر الحكم العربي مدة ٢٢ شهراً و٢٤ يوماً، وكان الهاشمي كما ذكرنا يضطلع بقيادة الجيش خلال أكثر هذه المدة فماذا فعل وواجبه الأصلي هو تهيئة وسائل الدفاع؟.

لم يكن الشعب السوري في وقت من الأوقات مستعداً مادياً ومعنوياً للقيام بواجبه الوطني بالمقدار الذي كان مستعداً له في ذلك الوقت. كانت البلاد ملأى بالأسلحة والعتاد الذي تركه

الجيشان التركي والألماني عدا ما تسرب إليها طيلة أيام الحرب، وكانت الحالة الاقتصادية حسنة من جراء الأموال (وأكثرها بالعملة الذهبية) التي تدفقت إليها من الانكليز والأتراك والألمان في السنة الأخيرة من الحرب. وكان الشعب السوري الذي تخلص من كابوس الحكم التركي قد ذاق طعم الحرية وبدأ يشعر بشخصيته وبواجبه في الدفاع عن وطنه. ولا أدل على ذلك من الثورات التي قامت في المناطق التي احتلها الفرنسيون. ففي كانون الأول ١٩١٨ أي بعد أقل من شهرين من احتلالهم قامت ثورتا انطاكية وجبل عامل وبعد ذلك وبفاصل شهر واحد تعاقبت ثورتا جبل صهيون وجبل العلويين ثم تعاقبت بعدها ثورات الشوف والبقاع والحولة وتل كلخ والزاوية وكفر تخاريم. اندلعت هذه الثورات منفردة كل واحدة على حدة وبقيادات مختلفة. ولم يكن للمسؤولين في الحكومة العربية يد لا في إثارتها ولا في تنظيمها إلّا في بعض المساعدات التي لا تكاد تذكر (باستثناء عصابات البقاع التي مر ذكرها والتي كان واجبها الأول مقاومة العصابات التي شكلها الفرنسيون من بعض الأنصار اللبنانيين، فهذه العصابات أمر بتشكيلها وأشرف عليها الأمير زيد بنفسه).

وأنا، وبكثير من التواضع، أرى أنه من حقي أن أجاهر برأيي وقد خضت الحروب النظامية ونصف النظامية وحروب العصابات خلال ثمان وعشرين سنة وقد شاركت في مجهود هذه الحقبة التي نتكلم عنها وعشت جميع نواحي نشاطاتها في أماكنها المختلفة، أرى أنه لو تهيأ للبلاد في ذلك الوقت قيادة عسكرية لرجل شجاع ذي موهبة واستعداد وعزم وقدر تلك الامكانات العظيمة للشعب فوحد جهوده ونظم أموره لكانت النتائج على غير ما صارت إليها ولكان الحال في فلسطين على غير ما آلت إليه.

الحرب منذ أن عرفت لا تكتسب بالعدد والعُدة فقط، بل بالتدبير والقوة المعنوية قبل القوة المادية. وأمامنا مثال ينطبق على وضعنا في ذلك الوقت وهو ما وقع في العراق في تلك الحقبة نفسها (١٩١٩) لم يكن اعتراف الانكليز في سنة ١٩٢١ باستقلال العراق وعدولهم عما كانوا مبيتينه له من استعمار مباشر وربطه بالهند الا نتيجة لثورته التي قام بها في سنة ١٩٢٠. ان الجيش البريطاني الذي دحر أمامه الجيش التركي حتى الحدود التركية كان لا يزال في ذلك التاريخ مرابطاً في العراق. وعندما قام الشعب العراقي بثورته هذه كان قد خرج حديثاً من الحرب وهو فقير ومنهوك القوة ليس بيده سوى القليل من السلاح القديم، لقد كان بعضهم يقاتل بالسكاكين والرماح والهراوات، فقتلوا الألوف من الجنود البريطانيين وأكثر من عشرة من الحكام السياسيين. لقد كانوا تحت حكم عسكري قاس ومباشر، ولكن الشعب العراقي كان قد عول على المقاومة والقتال في سبيل تحرير بلاده. فشيوخ العشائر في الريف ورؤساء الدين في المدن والقصبات وبعض الشباب والضباط اتفقوا جميعهم على العمل فاستعملوا جميع ما كان لديهم من وسائل وإمكانات قليلة فاغتالوا الحكام في مكاتبهم ومساكنهم والقادة العسكريين في خيامهم وداخل معسكراتهم، أحرقوا الطائرات وهي جاثمة في مطاراتها، وتسللوا إلى المراكب الحربية في الأنهر فذبحوا طواقمها وهم في أسرّتهم، وكمنوا للقطعات خلال تنقلها في الطرقات وباغتوها ليلاً ونهاراً في المعسكرات، لقد اتفق الجميع على الجهاد في سبيل الله والوطن ومن شذ منهم قتلوه حتى أصبح معروفاً أن الرجل إما أن يكون مقاتلاً مخلصاً، أو موالياً مساعداً، أو مقتولاً.

لم يتمكن الانكليز أثناء هذه الثورة أن يجدوا لهم في العراق سياسياً أو ضابطاً أو عميلاً واحداً يتعاون معهم لا من العرب

ولا من الأقليات الدينية والعنصرية لا أثناء الثورة ولا بعدها (عدا بعض الآشوريين) وبهذه الطريقة التي يفهمها الغربيون أجبر العراق بريطانيا على اللجوء إلى فيصل وتكليفه بعرشها فاشترط عليهم ما اشترط، وهكذا حصل العراق على استقلاله قبل أي قطر عربي آخر (ما عدا الحجاز).

ان الشعب السوري لا يقل عن أخيه العراقي شجاعة ووطنية ولماذا نذهب بعيداً وأمامنا أمثال في الثورات العديدة التي قام بها، ولنضرب على ذلك مثلاً بإحداها وهي ثورة جبل العلويين التي قام بها ذلك الرجل والبطل العظيم الشيخ صالح العلي لاعتقادنا أنها تمثل النموذج الكامل لإمكانية الشعب السوري واستعداده للتضحية والفداء إذا ما تحققت له القيادة المخلصة. وفيها أيضاً النموذج الكامل الأمثل للقائد الذي قاد ثورة على أقوى دولة في ذلك الوقت على قلة منه في العدة والعدد، قادها لمدة اثنين وثلاثين شهراً بكريم سجاياه ونبيل مزاياه وشجاعته وقوة إرادته وصدق عزيمته ومتانة خلقه ونبله وكرمه وقوة شخصيته وكفاءته العسكرية، لقد تفوق على جميع من قاتلهم من القادة والجنرالات العسكريين برسم خطط المعارك التي كان لا ينقصها شيء من قواعد القتال المقررة في فنون الحرب، كان حديدي الإرادة شديد المراس في أعماله وشؤونه الحربية وكان متديناً عظيم الثقة والإيمان بالله وبما يقوم به من جهاد في سبيله، انني لم أبالغ في وصف مزايا هذا الرجل العظيم ولا أضفت إليه من عندي شيئاً، عندما بدأت بدراسة ثورته التي استمرت أكثر من سنتين ونصف السنة[٢] على قلة وسائلها وقوة وشراسة خصمها قمت افتش عن سر هذا الاستمرار وذلك التوفيق الذي رافقها، فقرأت أكثر ما كتب

(٢) من هذه المدة أحد عشر شهراً وإثنا عشر يوماً بعد سقوط دمشق بيد الفرنسيين.

عنهـا وسألت بعض من شـارك فيها أو عـاصرهـا. أقـول انني فتشت عن ذلك السر فوجدته في شخص الشيخ صالح العلي وفي مزاياه التي ذكرت بعضها.

لقـد كان للشعب العلـوي جميع المـزايا التي يتمتـع بها سـائر العرب من شجاعة وايمان وصبـر وتحمل وطـاقة في سبيـل الله ولكن هذه المزايا عند العلـويين كـانت مغطاة بطبقـة كثيفة من الجهـل وعقدة الشعـور بالظلم وضيـاع الثقة بـالنفس وبالغـير وبعدم التحسس بالمشاركة الوطنية خارج حدود جبلهم. فصالح العلي هو الذي أزاح عنهم هذه الغشاوة وأيقظ فيهم تلك المـزايا الخابية في قرارة نفوسهم فأظهرها وأعادهـا إلى ما كـانت عليه من سجايا عربية لتساهم في جهادهم في سبيل الله.

لعـل البعض لا يعلم أن قيـادة الثـورات أصعب مـن قيـادة الجيش. فقائد الجيش تؤمن له احتياجاته من أسلحـة ومهمات ورجال عن طريق التنظيم الحكومي. أما في الثورات فتأمـين كل ذلك يقع على عاتق قائد الثورة علاوة عـلى مسؤولياتـه في إدارة المعارك.

وفي ثورة صالح العلي دروس للقـادة العسكريـين والزعمـاء بأن الوسائل والأسلحة الحديثة من طائرات ودبابات ومدافع ليست كل شيء في تأمين الظفر، فإن لحسن التدبير والشجاعة والاقدام والايمان والصبر المقام الأول في ذلك وكلهـا تنبثق من شخصية القائد.

ـ انعدام الضبط: لقد خـدمت بعض الـوقت في اللواء الأول من الفرقة الأولى في دمشق وكـان هذا اللـواء النموذج الـذي كانت عليه حالة الجيش. لقد كان الضبط والربط والتدريب مفقوداً في جميـع قطعات الجيش وجميـع هذه الصفـات تكـاد أن تكـون صورية لا وجود لها. والجيش الذي تنعدم فيه هذه الصفات لا

يكون في مقدوره قتال أي جيش مهما كان دونه في العدة والعدد فكيف إذا كان يتفوق عليه بهما، ولذلك فهـذا الجيش لم يقاتـل الفـرنسيين أبـداً في حلب ولا في حمص وأما في ميسلـون فكان قتاله كما قرأته في الصفحات السابقة إذا كنا نعتبر ذلك قتالاً.

ـ عـدم مكافحـة الجواسيس والعمـلاء داخل الجيش وتـركهم يسرحون ويمرحون علناً في داخل القطعات وكان عدد كبير منهم من الضباط يعملون دون تحفظ ولا خـوف حتى أن قسماً منهم (كما ذكرنا ذلك) كان يعلن أنه مسجل عند الفرنسيين ويتقاضى منهم راتباً لرتبتـه. وكان أحـدهم برتبـة كبيرة ومـرافقاً للملـك وأمره هذا كان معروفاً لدى الملك والقيادة(٣).

ـ عـدم تنظيم وتنسيق قوات الشعب: لقـد كـان معظم الشعب مسلحـاً ومتحمساً فلم تقم القيـادة بتنظيمـه وتنسيق أسلحتـه وتـوزيـع الضبـاط عـلى مختلف منـاطقـه عـوضـاً عن بقـائهم متسكعين في الوظائف وبعض التشكيلات التي لا فـائدة منهـا، بالرغم من الثورات والانتفاضات التي كانت تتعاقب منفردة.

---

(٣) راجع كتاب يوم ميسلون للحصري.

فهرس الاعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)